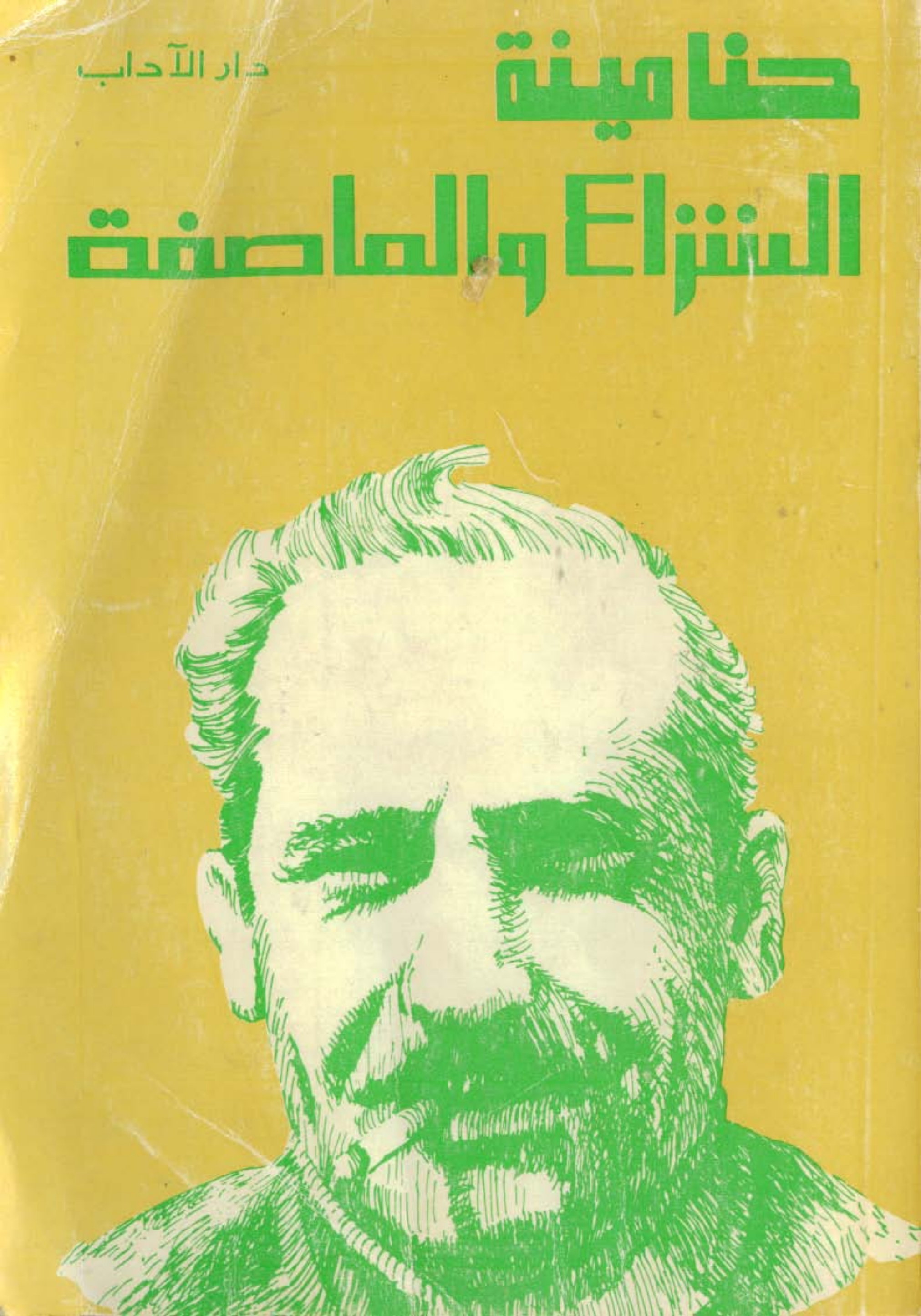

دار الآداب
حنا مينة
الشراع والعاصفة

حنا مينه

الشراع والعاصفة

رواية

دار الآداب – بيروت

الطبعة الأولى
دمشق
الطبعة الثانية
تشرين الاول ١٩٧٧
الطبعة الثالثة
حزيران (يونيو) ١٩٧٩
الطبعة الرابعة
آذار (مارس) ١٩٨٢

مقدّمة

لا ازال اذكر ذلك المساء الشتوي السوري عندما تعرفت بحنا ! اضطررنا شوقي وانا ، ان نخترق مستنقعات واحياء واقفة بيوتها بفضل ارث من كبرياء ، وان ندخل ازقة رطبة تكاد مصابيحها تتجمد ، وكنت اقول في سري : يا لها من بداية دراماتيكية لكاتب شعبي عرف بحملته على جماعة الفن للفن ، وكنت اضحك في عبي وانا افقه اللعبة : حنا مينة الآن منغمس في فراش المرض ، يسعل سعلات جافة ، ويستقبلنا بأبوة بين ديكور بائس اعد بعناية فائقة ، ليقول لنا : هذه هي الحياة التي تتناسونها ، انها ليست حياة مقهى الهافانا ومطعم سقراط ، انها حياة الشعب المسحوق الذي اتشرف بأن اكون منه ، وكنت اهيىء نفسي بسلبية لصدمة الشفقة هذه .

ووصلنا اخيرا الى بيت بابه مفتوح ، واجتزنا دهليزا طويلا مظلما تحنو عليه عدة مشمشات نحيلات عاريات ليطالعنا ضوء غرفة وحيدة ، وعندما دققنا الباب فتحت لنا زوجته الفارعة ، تتمسك بثوبها طفلتان سمراوان صينيتا التقاطيع ، وفي صدر الغرفة كان انسان نحيل الى حد لا يصدق ، جالسا امام منقل فحم ، على رأسه طاقية بحار لاذقي ، وعلى كتفيه معطف عتيق سميك . وقفز كعاصفة .

ـ اهلا ابو الشوق ، اهلا سعيد ، عرفتك من صورتك

واضاءت عيناه وتوهجتا بمرح خارق في وجههالشاحب المنفعل فكأنهما منارتان في بحر هائج ، وكان يمسد شاربه الصغير ويضحك بزقزقة طفل . وفي دقائق ذاب الجليد بيننا وصرنا نضحك بضراوة . كان راسه مليئا بحكايات شعبيةتأخذ طابع الحنان الدافيء وهي تنطلق من شفتيه :

ـ اتعرفون جارنا ابو عمر ؟ ستيني اشترك بثلاث ثورات ، ذات يوم سأعرفكم به ، لقد قرر اخيرا القاء السلاح واللحاق بركب المدنية ! سمع البارحة في الراديو انالاسنان يجب ان تنظف بفرشاة ، ولقد دق اليوم بابنا بخجل يطلب منا ان نعيره فرشاة الاسنان ليومين حتى يجربها ..

والى شوقي : كيف حال الشعر ؟ لا افهم كثيرا فيه ، ولكني احب الياس ابي شبكة ، انه بركان من كبريت ونار، انه يكتب بكرامة ، ومتى فقد الاديب الرجولة الشخصية فأدبه مخصي ... نعم مخصي .اراكم تحدقون في الحائط ، لا تنفشوا ، انها ليست ليسانس ، انها شهادة السرتيفكا !وهي شهادتي الاولى والاخيرة ، اضعها هنا اكراما لوالدتي لانها تعتقد انها اعلى شهادة في سوريا ، تصوروا انها دعت جيرانها ذات يوم الى حفلة طيرت معاشي لتريهم الشهادة وتحتفل بها « اسم الله حنا نال الشهادةالعالية» وهربت من الدعوة خوفا من الفضيحة ، ولكن الله سلم فلم يكن بينهم من يعرف الفرنسية، واكتفوا بالتحديق بالصورة،ثم وضعوها تحت ايقونة العذراء».

حنا مينه كان معلمنا ، كانت حياته الاسطورة تلهمنا ،لقد قرأ كثيرا ولكنه عاش اكثر ، وكانت الحياة على حد تعبير احد الادباء « تنضح من جلده » هذا الرجل الذي عاش المأساة اكثر مما عاشها اي اديب سوري كان اكثرنا فرحا وانتصارا واملا. وكان يقول ابدا :« يجب ان نفرح والا انهزم الانسان فينا » .

على شاطيء « اللاذقية » المدينة السورية الخضراء التي تستحم في البحر ، وتندى ضفائرها بصنوبر جبال العلويين، ولد حنا سنة ١٩٢٤ من عائلة فقيرة جدا، وكان ابواه قد هاجرا من « مرسين » سنة ١٩٢٢ ، وبعد ولادته مرض ابوه مرضا شديدا فغادرت العائلة اللاذقية الى قرية « السويدية » في لواء اسكندرون،ثم هاجرت بعدثلاث سنوات الى اسكندرونة ومنها الى قرية « الاكبر » احدى نواحيها حيث مكثت ثلاث سنوات في الريف ،ثم عادت الى المدينة حيث دخل حنا المدرسة الابتدائية الفرنسية فلما نال السرتيفكا ،تقلب في مهن متعددة وعوده طري، فهو الذكر الوحيد في العائلة ، والافواه الجائعة بحاجة الى جنى يديه ،فعمل مستخدما في بقالية ومساعدا لصيدلي وصانعا في دكان حلاق مدة طويلة حتى اتقن الصنعة « لم يكن الموسى والمقص ينسياني المطالعة ،فكنت لا اترك جريدة ولا كتابا يقع بين يدي ، وكانت زوجة الصيدلي تزودني بالكتب وكنت احلم بالبحر والسفر والمعارك والثورة » وفي سنة ١٩٣٩ حدثت مأساة اللواء الدامية حيث اغتصب الاتراك اللواء العربي بمعاونة فرنسا ، فهاجرت العائلة الى اللاذقية حيث افتتح حنا دكانا للحلاقة . وكان زبائنه من الفقراء والبحارة فاختزن في اعماقه كثيرا من قصصهم الاسطورية عن صراعهم اليومي مع الخطر ، وكانت الحرب العالمية الثانية ومعارك الاستقلال قد تركت سورية في دوامة من الاضطرابات، واشترك حنا في مظاهرة تطالب بالاستقلال فقبض عليه وزج به في السجن « لقد كان السجن المعلم الاول لي،لقد قرأت فيه كثيرا من الكتب ، وكنت ارتعش امام كل كلمة جديدة ، وكان سجين مثقف يشرح لي معاني الكلمات الصعبة ،وكنت ابكي من الفرح » .

تعرف حنا على دنيا النشر وهو حلاق ، صار يرسل بعض القصص الى الصحف الدمشقية وصار اسمه معروفا

ومحبوبا لدى القراء الذين افتتنوا بهذا النفس الجديدالحنون، وهذا الروح الشعبي الاخاذ ، لقد كان يكره صنعته ويحلم بالرحيل ولكن كيف ؟: « ذات يوم من سنة ١٩٤٦ وقف على باب الدكان كهل واخذ يحدق في بامعان ، كان في عينيه شفقة لا حد لها . تفضل يا عم .. تردد قليلا ثم دخل وعيناه لا تزالان تحدقان بكل شيء وقال فجأة : ـ هل لا تزال هنا؟ ـ ماذا تعني انني لا ازال هنا ؟.. ـ الا تذكرني ؟لقد حلقت عندك منذ ذهبت وجبت الدنيا : تطوعت فيجيش الحلفاء وحاربت في كل مكان وانتصرت في العلمين على رومل ..آه اشد ما رأيت من اشياء وها انا اعود لاراك لا تزال هنا ،نفس الوقفة تمسك بالمقص والمشط ..» واحس حنا بطعنة سيف ونظر الى الرجل وهو يبتعد ثم سرح معاونه ونقده اجرته « كنت احس وانا اغلق الدكان انني افتح ابواب روحي»،واعطيت امي اكثر ما ادخرته طوال عملي في الدكان وحملت متاعي وذهبت الى بيروت .

وفي بيروت يبدأ بالتسكع للبحث عن عمل ، ويقضي الوقت بالكتابة متأثرا «بفوركي» ويترجم له هناك قصة« فرنكا او ليسوفا »ويراسل جريدة«الانشاء» في دمشق ويدعى للعمل فيها ، فيأتي الى دمشق ويستقر فيها سنة ١٩٤٧ .

ويتقدم حنا حتى يصبح رئيس تحرير جريدة الانشاء ، ومحرر الصفحة الادبية وصفحة السياسة الخارجية في عدة جرائد « لقد كنت اعمل كالآلة ، لقد تزوجت واصبح لي أولاد، وكنت بحاجة الى اللقمة » . ولم يكن نشاطه في الحركة الادبية بأقل من نشاطه الكتابي فساهم بتأسيس « رابطة الكتاب السوريين » ثم في « رابطة الكتاب العرب » التي كانت تضم نخبة من خيرة الادباء التقدميين في كل البلاد العربية.

رواية حنا الاولى « المصابيح الزرق » كانت شيئا جديدا

في الادب السوري ، خط فيها الاسس الواقعية للرواية السورية وقد اثارت مناقشات حامية في سورية ولبنان ومصر. لقد كانت روحها الشعبية الآسرة واسلوبها الحي البسيط يعطيانها نكهة خاصة ، ولكن ما فيها من انقطاع النفس حينا، وتقصد السخرية احيانا اخرى ، والاندفاع في وصف الطبيعة بشكل يقطع حيوية الحوادث ، ثم بعض اللوحات التقريرية التي تأثر فيها حنا من عدائه لنظرية الفن للفن،فانصرف فيها الى تأكيد التزامه السياسي دون كبير نجاح .. كل هذه الاشياء كان انتقادها تجربة ثمينة لحنا الذي اكتشف ابعاده بصورة اعمق .

لم تكن « المصابيح الزرق » لتمثل حنا الحقيقي ،لم تكن لتجسد حقا ما يعرفه حنا عن اللاذقية : بحرها واحلامها وصياديها وطبقاتها الشعبية ، فانصرف لكتابة روايته التي بين ايدي القراء « الشراع والعاصفة » .

انها قصة رجال البحر المردة ، في صراعهم اليومي المرير مع الموت المتمثل في البحر الهائج ، والعواصف الغادرة ، يقابلونها باشرعتهم المزقة ، وقواربهم العتيقة ، وعزمهم المستمد من صخور الشطآن.ان فيها لروحا اسطوريا حنونا، ولكنه غائص الجذور بالارض .

« البحر ملك » تلك هي صيحة الاحترام العميقة التي يطلقها كل بحار ، والطروسي ، بطل القصة الاول يؤمن بسلطنة البحر كما يؤمن بسلطنة المراة ، ولكنه ، في عنفوان شعوره برجولته ، يعرف كيف يكون ترويض النمور . ان البحر ، صديقه اللدود ، ليجتذبه بعيونه الرمادية الباردة ليبحر نحو جزر مهجورة ، يفتض عذريتها بفتوة الفارس، لقد اكتشف معنى حياته ، ولذلك احس بثقل وقع اقدامه على الارض .

الشراع والعاصفة ، قصة مدينة سورية ساحلية اثناء الحرب العالمية الثانية ، لقد صور حنا ، ببراعة مدهشة ،اثر هذه الحرب، وماتركته من عواصف في بلاد يحتلها الفرنسيون، وابرز التناقضات التي كانت تفترس مجتمعا غير متجانس، ولكنها اولا قصة رجال البحر ، قصة الانتصار على عوامل الطبيعة القاسية ، قصة الارادة البشرية والمغامرة .

البلاد العربية بمجملها واقعة على اطراف البحار ، ولكننا ، منذ الف ليلة وليلة ، لم يعرف البحر سبيله الى ادبنا ! لماذا ؟ ذلك اننا لا نزال عبيد الجاهلية كما كان اسلافنا ، لا نزال نتحدث عن الصحراء والخيل والابل والسيوف والرماح ونعيش في عبودية مواضيع اتى عليها الزمن ، نعيش تاريخا ولا نعيش حياة ، نعيش الفارس العربي الفاتح لنعوض عن ذل الحاضر ، ولكن شعبنا ايضا يجترح المعجزات ، انه لا يحتاج الا الى عين بصيرة محبة ، منزهة عن زجاجية الرؤية ، وعن التطلع الى السموات بينما امتداد شعاعها الارض .

ان حنا مينة من رواد البحر في الادب العربي ، وفي رواياته كل فتوة الريادة وكل تعجلها ايضا وحسبه هذا العطاء الرائع .

سعيد حورانيه

القسم الاول

١

المسافة بين العين ومرمى البصر ليست المسافة الوحيدة للرؤية ، وليست كذلك المسافة الاكثر طولا او بهجة .

العاشقون مثلا ، والمغتربون ، والمحزونون ، وكل الذين نات بهم الدار عن الدار ، هؤلاء ، جميعا ، لا يرون بعيونهم فحسب ، بل بقلوبهم ايضا .

القلب هو الذي يتلفت الى الاشياء مذ تغيب الاشياء ، وحين يتلفت القلب تتبدى له التهاويل صورا مجسدة على لوحة الفضاء ، وتتداعى الرؤى التي ناداها ببوح الشوق ، وتنبعث الذكريات مدفوعة بالحنين الذي لا يقاوم ، فيغيب عن واقعه .. ينسلخ عن الزمان والمكان ، ويحلق بأجنحة جبريل نحو عالم عاشه في المواضي من لياليه ، والغابر من اصباحه واماسيه .

وقد وجد على شاطيء اللاذقية يوما قلب كهذا القلب ، تلفت ورجا وعاش على الرجاء ، ثم تلفت ورجا وعاش على الرجاء ، وبقي وفيا لرجائه ، مخلصا لامانيه .

وشاطيء اللاذقية هذا ليس بالشاطيء الغريب : انه نصف هالة قمر على منبسط في سفح جبل ، وفي وسع المرء ، وهو عليه ، أن يمضي مع منحنياته الممتدة من الطابيات الى المنارة ، وان يسير رويدا على الصخور ، او يقفز فوقها ، او يدور معها ، فاذا مل هذا التسيار ، وتعب من القفز والدوران ، فبامكانه ان يجلس على اية صخرة ، او يقف فوق اي مطل ،

او يتخيل نفسه في شبه جزيرة ، فيستريح على طرف الشاطىء ، ويضع قدميه في الماء ويلهو باحتقان الزبد ، حتى اذا صار رغاء في كفيه ، واصر هو على امساكه ، تقاطر منسربا من اصابعه . اما اذا وجد فسحة من رمل ، وجرب ان يكتب عليها اسما بعود او حصاة ، فلن يعود ثانية ويجد الاسم ، ذلك ان البحر يمد لسانه ويلحسه .. ان البحر سر ، وابدا لا يحب افشاء الاسرار ، ولو بهذه الطريقة من الدعاب.

ومع هذا يكتب الناس اسماءهم على رمل الشاطىء .. لماذا ؟ هم انفسهم لا يعرفون ، بل لا يفكرون .. يكتبون عفو الخاطر ، او لمجرد الكتابة ، فهذه العجينة الرملية تغري المرء بأن ينقش عليها شيئا ، ان يترك فيها اثرا ، ان يخط اسمه او اسم من يهوى ، فاذا لم يفعل، واكتفى بالسير فوقها ، اخذت منه بصمات قدميه ، وقال الرمل للبحر :« انظر ! من هنا مر الانسان !» فيرسل البحر الغيور امواجه لتمحو اثار الانسان.

اما في الصيف ، حين يتمدد المستحمون على الشاطىء، وينقلبون ظهرا الى بطن ، ويكومون الرمل ، او ينخلونه ، او يفتحون فيه الانفاق ، فان البحر يفتح احدى عينيه ، ويرسل نظرة طويلة اسيفة ، ويغفي انتظارا للشتاء .

ويمضي المستحمون في لهوهم ، راكضين على رمله، راكبين على ظهره، ناثرين ماءه، مدغدغين خاصرتيه ، ممسكين بلحيته وشاربيه ، كأطفال تعبث اناملهم بلحية جدهم، حتى اذا ملوا ، ورغبوا في العودة، انتزعوا انفسهم من الشاطىء انتزاعا لانهم لم يشبعوا ، ولا ادركوا كنه هذه الصحراء الزرقاء الممتدة الى ما لا نهاية .

لكن البحر الوادع ، المتموج في هدوء ، المبتسم على استحياء لا يظل هادئا مبتسما دائما . ان للصبر نهاية، وحين يفرغ صبر البحر فاحذره ، احتط اذا كنت على متنه ، وانتبه

اذا كنت على شاطئه ، فانه سيمد كفه ويرشقك بمائه .

ولقد اعتاد الناس ان يهربوا حين يرشقهم البحر ، ان يتراجعوا ، ان يغادروا الشاطىء متفادين البلل .. اما محمد بن زهدي الطروسي فلم يكن يفعل ذلك قط. انه لا يتراجع ، ولا يهرب، ولا يخشى البلل، وحين تاتيه الموجة يكتفي بالقفز من مكانه ، مستثيرا البحر ليتابع لعبته بعنف اشد .

وحتى اذا اشتدت الانواء فانه لا يبرح الشاطىء . هنا مقره هنا بيته ، هنا ماضيه ومستقبله كلاهما . هنا يجلس وينظر الى بعيد ، الى الافاق وما وراءها ، الى عوالم حبيبة ، وموانىء كثيرة ، زارها على مركبه « المنصورة » الذي حطمته العاصفة واستقر اشلاء في الاعماق .

ثم هنا مقهاه . فبين هذه الصخور التي طوف فيها كثيرا ، وسار عليها طويلا، افتتح مقهاه ليبقى على صلة دائمة بالبحر ، ليكون جاره في الفصول الاربعة ، فيما تبقى من سني العمر .

ومع ان الشاطىء يقفر في الشتاء، فانه يظل على صخوره حالما حلمه الخاص، ناظرا الى الافق البعيد في الاماسي واوقات الفراغ : ماذا في البعد يا طروسي ؟ اية رؤى وراء الغيب ؟ اي سر دفين فيه ؟ اي نداء مجهول ياتيك من اللجة ؟ اية صورة تطالعك من وراء التخوم ؟

لا احد يدري. وحتى ابو محمد الذي اصبح ملازما له لم يكن يدري . واما ساله البحارة او الزبائن :« اين الطروسي ؟ » اشار الى الشاطىء وقال : هناك !

ويعرف السائلون عندئذ ماذا تعني اشارة ابي محمد ، فيشفقون على انفسهم من الذهاب الى الطروسي، لانه لا يحب ان يفسد عليه جلسته احد، فاذا ما خرق هذه القاعدة انسان

لغير سبب ،وذهب ليثرثر معه ، نهض من فوره وعاد الى المقهى او اعرض عن الآتي واسمعه كلاما لا يرضيه :

ـ المقهى ، خي ، هناك !

ـ وماذا تفعل انت هنا ؟

ـ اصلي !

فيفهم الرجل انه راغب عن محادثته، وقد يستاء من جفائه وينقطع عن المقهى ، الا ان الطروسي لم يكن يبالي كثيرا باقبال الناس او ادبارهم ، وقد حاول ابو محمد ان ينصحه فصاح به:

ـ لا تتدخل في اموري .

ثم لم يلبث ان اعتذر اليه ، وخاطبه بهدوء وحنان :

ـ يا عم ابو محمد ، لا استطيع ان اكون كسائر اصحاب المقاهي، اقضي عمري في مراضاة الناس .. انا لم اخلق لهذه المهنة .

وفعلا لم يكن قد خلق لهذه المهنة .. ما اصعب ان يتخلى الانسان عن مهنته ليزاول مهنة اخرى ؟ البحار يصبح قهوجيا، والقهوجي بحارا ، والحائك حدادا ، والحداد حائكا ، انها لمرارة يزيد في مرارتها ان المبتلى بها يقيم منها على ما يقيم الزوج من زوج لا يحبها ، او حياة لا يرضاها ، لكنه ، لاعتبارات أو ضرورات ، لا يستطيع تركها .

يقول : « سأهرب » لكنه لا يهرب . يظل حيث هو ، ويظل يفكر : « متى ؟متى؟» ليس من قيد في رجليه، ولا سلاسل تشده الى جدار ، ورغم هذا لا يبرح مكانه، ان الساعة لم تأت، وقد لا تأتي ابدا ، ومع ذلك ينتظرها ، او يتعزى بانتظارها .

وكان الطروسي يؤمن بمجيء ساعته، ويعمل لها، ويخلص في ايمانه وعمله اخلاصا عجيبا . والى ان تدق هذه الساعة، يكفيه انه يعيش على مقربة من البحر، يكفيه انه يقيم على صخوره التي طوف حواليها كثيرا قبل ان يستقر عليها اخيرا.

٢

على ان استقرار الطروسي على هذه الصخور ما لبث ان اضطرب :كان ، في القرارة من نفسه ، ينطوي على شعور انسان اضطر الى التوقف بين مرحلتين من سفرة واحدة. لم يعد يستطيع متابعة السفر ، ولا هو ينوي العودة من حيث اتى، ولديه من الثقة بالوصول ما يجعله يقيم دهرا بانتظار الرحيل. وخلال ذلك يسند ظهره ويستريح او يعمل وهو كاره ، او يفكر بما لا يدري الا هو والشيطان ، ويحس احساسا مرهفا بالغربة ، ويستشعر القدرة على تمزيق من يزيدها سوادا في عينيه .

وها هو مشكل قذر يعترضه، مشكل فيه كل التحدي وكل السفالة التي تستثير الاعصاب المرهفة .

لقد سمع وهو خارج المقهى اصواتا مهددة تعلو في داخله وشتائم بذيئة تنطلق ضده بالذات ، وشجارا عنيفا، وتكسر زجاج وجلبة وصخبا .

وركض اليه بعضهم يقول « علقت عندك يا طروسي ! » فتوقف ريثما قوم عكفتي حذائه، واسرع والية شرواله تهتز وراءه ودخل صائحا :

ـ ايش صار !؟

كان المقهى مقلوبا كما لم يره من قبل : حطام الزجاج يملأ الارض، والكراسي مبعثرة، والبحارة يمسكون صالح برو ويدفعونه ، وصالح يعاند ويشتم قائلا :

ـ سأفعل وافعل !..

وفي طرف المقهى تجمع البحارة قرب ابي محمد يلاطفونه كانوا يلغطون ويعبرون بحركاتهم واقوالهم عن استنكارهم لما وقع ، فانجرد الطروسي نحوه وسأله :

— ضربك !؟

كان هذا يوشك ان يبكي ، ووجهه الاحمر قد تركت عليه كف صالح علامة ظاهرة ، ولا حاجة بعد الى جواب، ورغم ذلك حاول تمويه الامر ، وامسك بالطروسي ليمنعه من الخروج، وتراكض البحارة ليحولوا بينه وبين صالح، فصاح بهم مزمجرا:

— اتركوني ، هــه !

رفع كفه في الهواء ولم ينزلها، فتراجع الذين لحقوا به، وتناول هو خيزرانته واندفع خارجا. ان غضبا قاتلا يستبد به، غضبا عميقا متراكما مضغوطا لا سبيل الى وقفه قبــل ان يبلغ غايته ، ويدرك شأوه من التفجر والابتراد .

انه هنا ، على الصخور ، بفعل ارادة وليس مصادفة ، وما دام ذلك كذلك ،فان تصميما يهون دونه الموت قد انعقد في ذاته على منازلة كل من يبغي زحزحته عن هذا المكان . وصالح برو هذا بحار ، غير انه لا يعمل في البحر، انه يمتهن القتل، وقد استأجره صاحب المواعيــن ودفعـــه لاخضـــاع الطروسي او ابعاده عن « البطرنة » .. وهو لن يخضع ولن يبتعد ، وسيدافع عن حقه حتى الموت .

اندفع خارج المقهى بضراوة استنفرت كل اعصابه للقتال، وحين فعل ذلك لم يفكر في شيء من هذا الذي تسبب في تحرش صالح به . تحولت افكاره الى قوة دافعة في ذاته دون ان تصبح تصورات وتحسبات في راسه ، وكــان هذا شأنه فيما مضى ، وهو كذلك اليوم .. انه يصبر ويصبر ، ثم ينفد صبره فينفجر ، وعندئذ يقدم بغير تراجع .

كان صالح برو ما يزال يشتم ، وبعض البحارة يحاولون

صده عن المقهى ، وبعضهم خافوا وابتعدوا ، ورغب آخرون ان تقع الواقعة، وان يتعارك هذان «الديكان» اخيرا ليروا الى عراكهما ويعرفوا من منهما اقوى ساعدا واشد بأسا . وكان الميل الى الطروسي ظاهرا ، فقد سئمت الميناء تبجحات صالح واتاواته ،وبات تأديبه امنية مشتهاة. ثم انهم حفظوا قولــه « حين نزلت من بطن امي نزلت هذه قبلي » يقولها ويسحب سكينه متباهيا ، حتى بلغ به الامر ان تجرا علــى الطروسي وضرب ابا محمد وحطم النراكيل وقلب الكراسي، ولم يبق على الطروسي الا ان يكسر شوكته .. او يغلق المقهى ويرحل .

وقال الطروسي وهو يهاجم خصمه :

— زعرنتك علي انا ايضا ياصويلح ، ياابن ..

ولمعت تحت وهج الشمس ، مثل ومض البرق ، نصلــة سكين مزقت كتف الطروسي ، فادار بحار وجهه كي لا يرى منظر الدم ، وصاح الفتى احمد « لا تضرب يا صالح » الا ان صالح هوى بالسكين ثانية باتجاه الصدر فمــا بلغت حيث ارسلها ، بل سقطت على طرف الصخر وتدحرجت الى البحر، وصاح البحارة « يا ساتر ! » .. وتفرقوا .

انتهت الجولة الاولى وربح الطروسي . ان مدية صالح برو « التي سبقته في النزول من امه » قد طارت واستقرت في انقاع . وكان الطروسي ، وهو يهاجم صالحا امام المقهى واثقا من نفسه، فما دامت خيزرانته في كفه فلن تطاله ايــة مدية ، ومع هذا جرح في كتفه ، لان خصمه يعرف ان يضرب ايضا. ان ضرب السكين مهنة صالح، وهو، في ارسالها ، امضى من الريح ، ولطالما قتل وعطل الذين تصدى لهم ،وكان يأمل ان يقتل الطروسي كذلك، او ان يعطله على اقل تقدير ، ثم بوغت بضرب الخيزرانة الرصاصي المحكم فتراجع ، وقفز ، ثم وثب وطعن الكتف ، وتراجع رافعــا يسراه ليحمي راسه ،

وارسل باليمين السكين الى صدر الطروسي فما بلغته . كان هذا ايضا ابن مهنته ، ابن ميناء ، ولطالما عارك وتعارك ودافع وقاتل كي يشق طريقه ويعيش ، ولطالما فرضت عليه معارك كهذه فخاضها غير هياب .

اختار ، بسرعة وحزم،ذراع صويلح التي تحمل السكين هدفا له . الخطر من هنا الآن ،انها ضربة دفاع تتلوها ضربة هجوم . وجاءت الخيزرانة على الساعد تماما ، فحاول صالح تفاديها واخفق ، شعر ان ساعده قد رض وانشلت الذراع برهة عن الحركة،وعملت الخيزرانة فيه ضربا وندفا فلم تدع له فرصة لمعاودة الهجوم . وعندئذ،وفيما هو يتلقى الضربات ، اشهر مسدسه في وجه الطروسي فجأة . كانت المسافة بينهما قصيرة ، والاطلاق منها لا بد ان يصيب مقتلا ، الا ان ترنح صويلح تحت وقع الضربات ، واضطراب يده ، اديا الى طيش الرصاصة الاولى ، وعند انطلاق الثانية كان الطروسي قد قفز مهاجما ،فأصابت الرصاصة فخذه وخرجت من الية شرواله ،وجاءت قدمه في بطن صالح ففقد هذا توازنه وتدحرج على الصخر ، وطار المسدس من يده واستقر في شق بين صخرتين . واذ ذاك عاجله الطروسي بركلة اخرى قوية قذفته من على الصخرة الى البحر،فتناثر الماء ، وغاص الجسم فيه لحظة،ثم ظهر مبللا مشعثا يحاول ان يستقيم وان يتمسك بنتوء الصخور ، بينما تراجع الطروسي عن حافة الماء ، واستند منهوكا على جدار المقهى والدم يسيل منه .

كان مصابا في موضعين،كتفه وفخذه ، وكان استناده الى الجدار يتخذ صفة المقاتل الذي لا يريد ان يضرب غريمه وهو ملقى على الارض . لينهض اولا ، ثم يجهز عليه . ليخرج صالح برو من البحر ، وعندئذ ينهال عليه بالخيزرانة حتى يقتله .

وكان صالح ، خلال ذلك ، يدب عند جذع الصخرة الكبيرة ، ويحاول الخروج من البحر ، فترتجف يداه، وتنزلق قدماه ، ويقوم ويقع ، ويستقيم ويترنح، والبحارة الذين تجمعوا ينظرون اليه شامتين ، شاعرين ان الطروسي قد انتقم لكل منهم .

وجاءت الشرطة فقبضت على الاثنين ، وصادرت المسدس والخيزرانة ، واستاقت الطروسي وصالح الى المخفر ورأى ذلك ابو محمد فافزعه ، وراح يضرب رأسه وينتحب« يا ليتني اصبت انا لا هو ، لو اصابه لقتله ، ومن اجل اي شيء ؟ من اجل فنجان قهوة؟لا ،صويلح يريد ان يقتل الطروسي ، ولكنه اكل نصيبه ، يا ليته قتله ، يا ليته مات » !.

وهرع البحارة من كل صوب ، وطفقوا يتحدثون بما جرى ، فيروي الذين شاهدوا المعركة تفصيلاتها لمن لم يروها، ويبالغون وينوعون ،وقد اجمعوا على ان الطروسي كسر شوكة ابن برو ، وهذا واضح تماما ، ولكنهم ، في الاعماق من نفوسهم ، كانوا يقولون : العداوة بدأت الآن ، فكيف تنتهي ؟!»

ومن يعرف كيف تنتهي ؟

٣

اللاذقية مدينة صغيرةعلى المتوسط، نافذة تتنفس منها سورية وتطل على العالم ،فتأخذ وتعطي، وتصدر وتستورد ، جاعلة من مرفئها هذا بوابة لها ولجيرانها الذين يلونها في ابعاد اليابســة .

وهذه المدينة الواقعة الى الشمال الغربي من البلاد ، قديمة بعض القدم في بنيانها وعاداتها . ان الاخلاق ،هنا،ترزح تحت كابوس التقاليد، فالاقطاع هو السيد، وفي ظله تتسم الحياة بالمحافظة والتخلف، ويظل الثأر دينا حتى يوفى ، حتى يغسل الدم بالدم، ويكثر المتزعمون ، ويكثر، بالمقابل ، المستزلمون ، وتنقسم الحياة الاجتماعية على نحـو متفاوت جدا ، ويتوزع « الكبار » زعامة الاحيـــاء ، وزعامـة المرافـق ، وملكيـة الارض ، ثم يتنازعون على كل ذلك ،ويكيد بعضهـم لبعض، ويبطشون بمن تمردعليهم ،ويستخدمون في هذا الشأن كـل الوسائل ويظلون ، رغم ذلك ،ذوي تقاليد في الشرف خاصة، الى درجة ان الناس يتحدثون عنهم بكثير من التبجيل والاحترام !

وحينا بعد حين ، في هذا الحي او ذاك ،يقوم رجل ، او يستيقظ عقل ، او تتولد ،من نفس النزاعات بينهم ، قوة تعمل ضدهم ، واذ ذاك يلوح لهم الخطر ، ويضعون في حسابهم مسألة حذف هذا الشيء الجديد .

لقد اقتسموا المدينة الا اقلها . ففي حي «الشيخ ضاهر»، حيث مرائب السيارات، تسيطر عائلة «مظهر» على حركة النقل، وخاصة على الشاحنات التي تنقل من المرفأ واليه ، وقد خطر، ذات يوم ، لاحد اصحاب الشاحنات ان يتمرد على هذا الاحتكار فاحرقت شاحنته في قلب الساحة ،وعندما احتج خرج اليه واحد من آل مظهر فضربه كفا وعاد الى مكتبه ،وتكفل رجاله بالباقـــي .

وفي حي آخر تحكم عائلة اخرى،فتسيطر على قطاع آخر من الحياة . وفي الميناء تحكم عائلة مماثلة ، وكل مركـب او ماعونة او فلوكة ، وكل داخل الى البحر او خارج منه يجب ان يخضع ، في نهاية الامر ، الى هذه العائلة على نحو ما .

ومن وراء هذه الاسر تحكم اسر الاقطاعيين الذين يملكون الارض في الارياف والنفوذ في المدينة ، ويحمـون هـــذه الاستثمارات ويفيدون منها . انهم ،في الواقع ، حكام المدينة الحقيقيون ، وهم غالبا ، على اتفاق مع الحكومة ، فــاذا اصطدمت مصالحهم بعقبة ما، انقلبوا معارضين ،وعندئذ يمكن الافادة منهم في بعض الحركات ، وخاصة في العمـل ضد اعوان سلطات الانتداب ، شريطة ان تكون زعامة العمل وقفا عليهم في هذا المجال ايضا .

ولقد كان محتملا ان يأتي الطروسي ويفتتح مقهى في هذه البقعة الصخرية، ذلك ان اصحاب النفوذ لا يديرون المقاهي ، اما ان ينتصر للبحارة، ويتدخل في شئون الميناء ،ولا يرضخ لابي رشيد صاحب المواعين ، فهذا جزاؤه الموت ، او التهجير من المنطقة ، وربمـا من المدينة كلها .

وكان الطروسي يعرف انه يثير الغبار في وجه ابي رشيد حين ينتصر للبحارة ، او حين يفرض نفوذه الشخصي فـي دائرة المقهى ، وكان يتوقع ان يجابه بالتحرشات ، ولقد لام نفسه لانه يتدخل ، ثم وجد انه لا يستطيع ان يسكت ،اضافة الى انه ، في بعض القضايا ، يجر الى التدخل جرا ، فليس

ضميره ولا لسانه بقادرين على اصطنـاع اللامبالاة حيال مـا
يرى ويسمع وكان يقول : « اذا سافرالانسان اراح واستراح.
انه يبتعد عن الميناء وجوها ، وينسى ان في بلده يقـع هذا
كله ، ولكنني لا استطيع السفر ، ولا استطيـــع السمـع
والسكوت. البحارة اوغاد ، يأكل بعضهـم بعضا كالسمك ،
يقتتلون في سبيل غيرهم ، وابو رشيد هو الحاكم بامره لا
يحق لغيره انزال ماعون الى البحر ،ولا يحق لسواه تشغيل
احد من العمال ، هو الذي يفرغ السفن والمراكب ، وهو الذي
يحملها ، فيقبض اجورا باهظة ويدفع اجورا تافهة ،اف ، ما
هذا الظلم يا ناس ؟ وكيف السبيل الى الخلاص ؟ الحمدلله
انني لست من العاملين في الميناء،والا لقتلت او قتلت ، سأظل
في المقهى ، يكفيني تعب المقهى،لن اتدخل فيما يجري خارجه» .

يقول هذا ويصمم عليه،ثم لا يلبث ان ينساه ،ويتدخل،
وينتصر للبحارة وقد بلـغ من شدة غيظه ،قبل اسبوع،ان شتم
ابا رشيد نفسه. ولقد ندم على ذلك،لكنه كان قدشتمه وانتهى
الامر ، وبلغ الخبر صاحب المواعين فأضمر ان يتخلص منه،وجاء
صالح برو مأمورا بالتنفيذ،فكانت المعركة التي سمع بها كل من
فـي المدينـة .

تحدثوا عنها في احياء الشيخ ضاهر ، والشحاذين ،
والنصارى والميناء ، فالمدينة الصغيرة تعنى بأخبارهـا المحلية
بشكـل خاص .

وارسل ابن برو الى السجن بسبب اطلاقه الرصاص،
ورفض الطروسي دخول المستشفى واكتفى بتضميد جراحـه
البسيطة وعاد الى عمله،وتوقع ،منذ الآن ،ان يكون في عداء
دائم ما بقي في المقهى ،لكنه كان ذا طبع عنيد ،لا يتراجع عند
التحدي وما داموا قد تحدوه فسيثبت حتى النهاية ،وهو لا
يقوى على غير ذلك ، ولا يمكنه مفارقة البحر ،ولا السفر على
متنـه قبل ان يأتي الفرج .

ثم هو في مدينته .انه ابنها،وله ماضيه فيها،وله عائلته
التي تفرقت اصولها وبقيت فروعها. مات الوالدان ، وهاجر
الاعمام ، وسكن الاخ الاكبر طرابلس ، وتزوجت الاخت هناك
وتباعد ما بينه وبين اقاربه،هؤلاء تجار وهو بحار ،وقد وجد
نفسه ، منذ البدء وحيدا ،وشق طريقه على هذا الاساس ،
معتمدا على نفسه ، وعليه ان يتابع ذلك الآن .

* * *

وفي عصر اليوم الثالث للمعركة،وبينما كان الطروسي جالسا
في مقهاه،تلقى زيارة غير معتادة من ابي امين رئيس الميناء .

كان واضحا من هيئته انه لم يرتح للزيارة ،وانه استغربها
ومع هذا ساير الضيف،خاصة وانه رئيس الميناء،وقد قصده كما
قال ، فرحب به ، واوصى له على ناركيلة وقهوة ، وجلسا
جنبا الى جنب يتحدثان .

كان رئيس الميناء طويلا ، معافى ، يحب ان يبدو في مظهر
حسن ومقام يتناسب مع وظيفته،ويتخذ لذلك عدته من وقار
وصوت غليظ،ويرتدي ، غالبا ، ثياب الميناء البيضاء الرسمية،
ويضع على كتفيه الشارات ، وفيما عدا ذلك كان خاتما في
يد ابي رشيد ، زلمته على النطاق الرسمي في الميناء .
ـ انت تعرف انني احبك واريدك يا ابو زهدي .

بهذه الكلمات افتتح الموضوع الذي جاء من اجله،وحرص
ان يتكلم بهدوء ووقار ،وان يبدو نصوحا فيما يقول ، فشمله
الطروسي بنظرة خاطفة واجاب :
ـ انا لا اشك في هذا يا ابا امين ، امر،هل من خدمة ؟
ـ العفو ، نحن بأمر الرياس امثالك ، زيارتي ليست الا
لرؤيتك . لقد انقطعت عن الميناء في هذه الايام ، فقلت في
نفسي « تفقد اخاك الطروسي يا ابا امين » .
ـ اهلا وسهلا ، حياك الله وابقاك .

— والقائل ايضا . نحن لا ننسى انك منا ، ولك علينا حقـوق .

توقف الطروسي عن متابعة هذا الحوار الذي يعرف انه ليس الا مقدمة تضاف الى ما سبق من اسئلة عن الصحـة والشغل . لقد حزر ان رئيس الميناء جاء لغرض معين ، وانه مدفوع اليه ، وخمن علاقـة ذلك بالمعركة مع ابن برو وعرف ان وراء الزيارة ابا رشيد صاحب المواعين .

استأنف ابو امين كلامه فقال :

— .. وحين بلغني ان صالح برو اعتدى على المقهى استأت جدا ، واستاء ابو رشيد ، ولولا انك ذكرته — ولعنة اللـه على ساعـة الغضب والوشاة — بكلام لا اعرف مـدى صحته ، لجاء وشرب القهوة عندك .

فكر الطروسي قليـلا واسر في نفسه : « انه لا يأتي مهددا فماذا حدث ؟ هل فشلت الخطة فارادوا سترها ؟ »

— من جهتي — كذلك قال متوجها الى رئيس الميناء — اقدر عاطفتك تماما، واعرف انك لجميع البحارة ولست لواحد دون آخر (قاطعه ابو امين قائلا : معاذ الله !) واقدر كذلك موقف ابي رشيد ، فسلم عليه ، وقل له عن لساني ان المقهى مفتـوح للجميـع .

علت قرقرة الناركيلة وتلاحقت مسرعة ، وساد — لوقت قصير — صمت بين الرجلين . انصرف الطروسي الى لف سيجارة ، وابو امين الى سحب انفاس متلاحقة من النركيلة. كان راساهما يفكران فيما سيعقب هذه المجاملات ، ولم يفاجأ رئيس الميناء بجفاء الجواب فيما يتعلق بأبي رشيد ، فهو قد خبر الطروسي ، انما ، بعد الذي حدث ، وبعـد ان عرف الطروسي الدافع الى المعركة ، أما كان يجدر بـه ان يلين ويشكر ، او يفصح عن ايماءة اعتذار على الاقل ؟!

« لنجرب اسلوبا آخر . لنذكره بقوة ابي رشيد ، ثم نساوم ونسدي النصح، وعليه، بعد ذلك، تقع عاقبة اعماله »

— يا ابا زهدي انت رجل (تمتم الطروسي: العفو) وابو رشيد يقدر الرجال ، يحبهم ويكرمهم، ولكن اذا بلغه عنهم ما يسيئه ، او تدخل احد منهم في شئون الميناء ، لا يستطيع ان يحتمله وانت تعرف عناده ، وتعرف مدى قوته ونفوذه و...

قال الطروسي في سره « بدأ التهديد ،يجب وقف هذه الديباجـة » .

قاطعـه :

— اسمع يا ابا امين ! نحن نتحدث كأصدقاء ، وانت تزورني على هذا الاساس ، فلا موجب لتذكيري بقوة النفوذ، ولا داعي للتهديد ..

اندفع ابو اميـن يقسم :

— معاذ الله ابو الزهد . بشرفي، وحياة الاخوة ، لـم يخطر لي هذا على بال ، وكل ما اريده ، صالحك ، سلامتـك ، واذا قلت ما اغضبك فلانني لا استطيع بحكم صداقتي ومحبتي لك ، الا ان اذكـره . نعم ابو رشيد قوي، قوي بنفوذه ، وبالرجال المنتفعين منه، وسأروي لك هذه الحادثة التي وقعت قبل الحرب ، قبل ان تخف الحركة في الميناء ، اتسمعني ؟ انا رئيس الميناء واعرف خفاياها ، فأرجوك ان تصغي الي . وان تعتبر كلامي كلام صديق ، كلام اخ » .

— تفضل !

— زاد فضلك ، عشت يا ابا الزهد ، اظنك سمعـت بالحادثة حادثة ضابط الجمرك .

— لم اسمع بها ، تفضل .

— عينت ادارة الجمارك ملازما شابا في مديرية اللاذقية، فأراد ان يغير النظام ، وان يضع ترتيبات جديدة ، ويتدخل

في امور يجب ان يغمض العين عنها ، فأرسل ابو رشيد ينصحه مرة ومرة ، ولما رفض النصيحةهدده، فلما تمادى اعتزم بعض الشباب قتله .. قسما بالله ارادوا قتله ، رايت السكاكين والمسدسات بعيني هاتين ، فدخلت عليه وقلت له « تعال انظر » وقام الى نافذة مكتبه فنظر ، ولما رأى الموت بعينيه طلب نصحي فما بخلت به عليه، واخذته فورا الى ابي رشيد ، ومنذ تلك الساعة اصبحا صديقين ، وانتفع الرجل كثيرا ، وانتفع غيره ، وكل من عاند ابا رشيد او قاومه، ضرب او نقل او لحقته اضرار ، ولذلك قلت انه صاحب نفوذ، وله في البلد سند قوي ، وفي السراي سند اقوى ، والذين يسايرونه ينتفعون ، وانت ستكون في المقدمة ، فلماذا ترفض النعمة وتجلب لنفسك وجع الراس ؟! »

ـ وبعد ؟

ـ وبعد ؟ فكر بالامر ، المثل يقول «العين لا تقاوم المخرز» فلماذا لا تراعي مصلحتك ومصلحة مقهاك ؟

استأنفت الناركيلة قرقرتها السريعة المتلاحقة ، وساد الصمت مجددا ، بينما عاد الرأسان الى التفكير : احدهما بما يجب ان يكون الجواب ، والثاني بما سوف يكون عليه الجواب .

قال الطروسي مجتهدا في الا يزيد الطين بلة ، والا يزيد ، في الوقت نفسه ، ابا رشيد طمعا :

ـ التفكير ضروري في الامور التي لم يسبق للانسان ان فكر فيها يا ابا امين، وفي اقوالك لا مجال للتفكير ولا مجال للجواب . ابو رشيد يهددني ، ثم يساومني ، وانت تعرف ان التهديد لا ينفع معي والا لتراجعت قبل الدخول في معركة مع ابن برو ، والمساومة ، كذلك ، لا تنفع ، فلو رضيت ان اساير واساوم وابيع رجولتي واحني رأسي للغير واتلقى

الاوامر ، لكنت الآن ريسا في اي مركب ، وما كنت بحاجة الى فتح هذا المقهى والعيش على هذه الصخور ، لذلك ارجوك ان تبلغ سلامي الى ابي رشيد ، وان تقول له ان ما مضى قد مضى ، فاذا استعمل نفوذه لاخراج صالح من السجن يكون قد استأنف معاداتي ، اما اذا ترك هذا الامر ، ولم يرسل احدا للتحرش بي ، فانني، من جهتي ، لا اطمع بالعمل في الميناء ، ولا انوي ، وليس في مقدوري ان نويت ، انزال مواعين في الميناء . اما خصومتي مع صالح برو فاعتبرها رغم دوافعها ، مسألة شخصية ، والايام وحدها كفيلة بحلها .

وانتهى الحديث عند هذا الحد ، وانتهت الزيارة كذلك، فقام ابوامين وهبط طريق شركة « الامبريال » قاصدا الميناء.

٤

بعد اسبوع واحد كان الطروسي يحمل ضماداته على الكتف والفخذ ، ويتوكأ على عصا ويسير نحو العدلية ليقدم عريضة الى النيابة العامة .

فعل ذلك دون استشارة احد ، وقال في العريضة انه يسقط حقه الشخصي عن صالح برو ، واجاب الذين عرفوا بما فعل ولاموه عليه « ليس لي داع ولا مدع . القانون على راسي ولكنني لا اشتكي آلا لربي ، اذا كان ابن برو رجلا فليدخل هذا المقهى او يتحرش بأحد في الميناء بعد اليوم » .

وجاء من اطراف المدينة رجال يقول كل منهم ما يقوله صالح برو عن نفسه . كانوا اصحابه ، فلما وقع شمتوا به . ليس في عالم هؤلاء تقدير وصداقة دائمان ، المنتصر هو الممدوح ، ولكي يظل واحدهم محترما عليه ان يظل شجاعا. انهم يسمعون بالطروسي ، ويعرفون انه مقدام ، اما ان يقاوم ابن برو ويثبت امام سكينه ومسدسه ،وان يرميه في البحر فوق ذلك ، فهذا ما لم يتصوروه . وعلى ذكر هذا الحادث انعقدت الحلقات في المقاهي والخمارات التي يرتادونها،وظلت تتحدث في الموضوع زمنا ،وانقسم الرجال فيما بينهم،وتبجح بعضهم فذكروا مفاخرهم ووقائعهم بهذه المناسبة ، وفي فورة الحماسة انتضى احدهم سكينه واغمدها في الطاولة ، فنشبت معركة صغيرة ، حال الصاحون دون تطورها بين السكارى ، وفي الايام التالية شرعوا بالاتجاه نحو مقهى

الطروسي ، للتعرف اليه ، واكتساب مودته وتدشينه زميلا جديدا .

وبلغ الطروسي ما يقال عنه من مديح فما طرب له قط « انا لست من هذا الصنف ،اذا لم يعتد احد علي لا اعتدي على احد ، اما وقد وقع ما وقع فانني سأجعل صويلح ينسى الحليب الذي رضعه » .

– ولكن انتبه . صويلح غدار .
– الانسان لا يموت مرتين .
– لعل السجن يربيه هذه المرة .
– من جهتي لا ارغب في سجنه،لذلك اسقطت حقي عنه.
– اذن انت تنتظر خروجه ؟
– لا انتظر شيئا .
– فشر ، صويلح كلب ، نحن نؤدبه عنك .
– لا تؤدبوه ولا يؤدبكم ، اتركوني اصفي حسابي معه .
– ما باطل ، نحن معك ويجرؤ صويلح على حركة .

ضاق الطروسي ذرعا بهذه الحلقة السيئة التي تصنع من تبجحها انشوطة له : « اهذه هي حياتي هنا ؟ اهذه ضريبة لا بد ان يدفعها صاحب مقهى؟ لا ، لن اطيق ثرثرتهم، لا اريدهم عندي ! » واوصى ابا محمد ان يأخذ منهم ثمن المشروب كسائر الزبن . قال : « لتكن، اذا رفضوا ، واقعة اخرى كواقعة ابن برو ، فلئن كانت حياتي هنا رهنا بأن يستعبدني الآخرون ، ويأكلوا حقوقي ، فلا كانت الحياة . خذ يا ابا محمد خذ ، لا تهمني القيمة بقدر ما يهمني مصيري ،انا لم اقبل الذل في البحر فهل اقبله في البر ؟» فردابومحمد قائلا :« حاشا ! والله لا يدخل هذا المقهى انسان الا بأمرك ، وثمن المشروب قبل ما ينتهي المشروب ، ومن لا يعجبه مع السلامة ، مع الف سلامة ، اصبحت اعرف عند من اشتغل» .

ـ وسيعرف هؤلاء الزبائن في اي مقهى يجلسون .
ـ بعد وقفة ابن برو ما اظن ابن امراة يتحرش بالمقهى.
ـ انت غلطان . . التحرش سيستمر .
ـ ولماذا لا تحدث ابا رشيد في الامر ؟

« تأمل هذا الابو محمد يا طروسي؟انه لم يفهم بعد ».
ـ ولماذا نحدثه ؟ هل هو مخفر ؟ حكومة ؟ لا تذكره بعد اليوم ، اشتغل شغلك ، قدم القهوة وخذ ثمنها ، خذ ثمنهـا من الجميع ، سمعت ؟
ـ وحتى من ابي رشيد ؟
ـ نعم ، حتى منه .

قالها بشكل حاسم ، كأنما استفزه ابو محمد بطرح مثل هذا السؤال ، وتحت الضمادتين ، على الكتف والفخذ ، شعر بوخزتين اليمتين ، وقفزت الى ذهنه فورا صورة ابي رشيد، وتذكر اقوال رئيس الميناء عنه ، وتمثلت له الميناء وجسوم الحمالين العارية ، وعروقهم النافرة ،وتفاهة حياة البحارة، والظلم النازل بهؤلاء وهؤلاء ، والجوع والاضطهاد وسلطـة صاحب المواعين التي لا تحد ، وعصابة الشر التي من حوله ، والمصير المنتظر لكل من يقاومه ـ تمثل فظاعة كل هذا وتساءل: « ما سوف يكون جوابه على حديثي مع رئيس الميناء ؟ هل يتوقف ام يتمادى ؟ وهل يرسل لي رجـلا آخر ام يجعلني انسى ثم يغدر بي ؟ انني هنا على البر ، ولا عمل لي في البحر، ومع ذلك لا استطيع الاحتمال ، فكيف يحتمل الآخرون؟كيف يحتمل الذيـن يعملون في البحر » ؟

شعر بوطأة الحياة الجارية في الميناء كأنه يحياها بنفسه. ان وضعا جديدا قبيحا يسيطر عليها الآن ، اما في زمنه ، زمن « المنصورة » ، فلم تكن في المرفأ هذه الحركة التجارية الواسعة ، ولا هذا العدد الضخم مـن المواعيـن ، ولا هذه

الكثرة من العمال ، ولا هذا الاحتكار لاعمال الشحن والتفريغ.
كان رئيس الميناء هو الذي يسير الاعمال ، والمراكب تسافر وتؤوب ، وفلائك الصيد تذهب وتجيء،وقد تحدث ،حينا بعد حين ، مشاجرات وخصومات هي من طبيعة المرافيء ، امـا هذه السفن التي ترسو بعيدا في البحر ، وهذه المواعين التي تحمل اليها ومنها البضائع ، وهؤلاء المئات من الحمالين،وهذا النفوذ الذي يتمتع به ابو رشيد ، امـا هذا كله فلم يكـن موجودا . ولئن خفت الحركة الان ، خلال الحرب ، فانها لن تلبث ان تنشط بعدها ، وابو رشيد يريد المحافظة على وضعه، يريد ان يحمي نفوذه الى ذلك الوقت ، انه يعرف ما يفعل .

٥

وكان ابو رشيد يعرف ما يفعل حقا. فمنذ ان نشطت الحركة في المرفأ ، غداة اغتصاب تركيا لمرفأ اسكندرون ، احتكر النقل بين الرصيف والبواخر ، واستأثر به عنوة ، وان غضب من مزاحم او سلطة ،هدد بأن يبذل في خصومته كل ما يملك « نزلت بالشحاطة (١) وراح اطلع بالشحاطة » كذلك يقول مذكرا خصومه بأنه لم يكن يملك شيئا حين بدأ العمل ، وانه مستعد ان يبدد كل ما يملك دفاعا عن هذا العمل ، دفاعا عن احتكار ملكية المواعين (٢) وتشغيلها .

وكان الجميع يعرفون انه يعني ما يقول ، رغم مظهره الخارجي الذي لا ينم عن عناده الداخلي . كان كهلا رقيق البنية ، رقيق الحاشية ، حلو المعشر ، كريما في سبيل توطيد نفوذه ، متواضعا في سلوكه، ولو جاء غريب للتعرف اليه وقصد الميناء بحثا عنه ، لمر به دون ان يعيره التفاتا . ذلك انه لم يغير شرواله البحري وسترته القصيرة المشقوقة في اسفل الظهر ، وشحاطته وطربوشه العاديين . ولم يكن يبدو ، في ثيابه المتواضعة هذه ، متميزا عن سائر العاملين في الميناء . وكان يرى ، غالبا ، في مقهى المرفأ ، او على الرصيف ، ومن يسمع بنفوذه ويراه لا يصدق انه هو ،ويعجب حين يتأكد من شخصيته ، ويزداد عجبه حين يرى اصحاب

(١) الخف . (٢) المواعين ومفردها ماعونة ، قارب خشبي كبير على شكل عوامة لنقل البضائع من البواخر واليها .

المراكب ورئيس الميناء في ثيابهم الثمينة الفضفاضة ، ويراه ، هو ، في لباسه العادي ومسلكه البسيط . ولم يكن يصطنع ذلك اصطناعا بل يحياه حياة ، ويظل يدور في الميناء ،يشرف ويراقب ويدقق ويسير حركة الشحن والتفريغ بنفس البساطة والطيبة ، حتى اذا لاح له الخطر من اية جهة : من مزاحم ، من موظف ، من حمال ، من بحار ، من حركة تضامن ، من بوادر تكتل نقابي ، من تمرد صاحب شاحنة ، خلع ثوب البساطة ولبس ثوب القوة ، وبدا عجوزا مقداما ضاريا ، يجمع بين العنف واللين ، والصلابة وحسن التدبير ، وعندئذ تقع بعض الحوادث الزاجرة : يغرق مركب او تحترق شاحنة او يضرب رجل او ينقل موظف ، او يدفع المال ويتم خضوع المتمرد دونما ضجة او اعلان .

وكان البحارة وعمال الميناء يعيشون في خوف دائم ، فمن يرضى عنه ابو رشيد يشتغل ، ومن يغضب عليه يترك الميناء ، او يغرق ذات يوم قضاء وقدرا !

وكان العمل قاسيا : تقف الشاحنة على الرصيف ، وينقل الحمالون الاكياس والصناديق الى الماعون ، او ينقلونها منها الى الشاحنة ، ثم يفرغون حمولة المواعين في البواخر ، وحمولة البواخر في المواعين ، ويصعدون ويهبطون ، من الصباح الى المساء ، حاملين الاكياس والصناديق وهم يرتجفون تحتها ، وظهورهم تتقوس لثقلها ، وعروقهم تنفر لشدتها ، ولكنهم ، مع ذلك ، لا يبرحون صاعدين هابطين ، ورائحين غادين ، لا يستطيعون التوقف ولا الراحة ولا المطالبة بحق من الحقوق .

وذات يوم ،بينما الطروسي في الميناء،والعمال يحملون احدى الشاحنات ، ارتقى واحد منهم لوحا خشبيا وعلى ظهره صندوق كبير يضطرب تحته . كان العامل ينقل خطاه بمشقة ، فيدفع احدى قدميه بحذر ثم يدفع الأخرى بنفس

الطريقة ، ويصعد بحمله مكدودا ضاغطا اعصابه بعنف شديد.
هذا الشغيل المسكين لم يستطع ايصال الصندوق الى الشاحنة.
اختل توازنه في اعلى اللوح ، وترنح ،وسقط الصندوق من
على ظهره ، وسقط هو فوق الصندوق ، وصاح الحاضرون
« يا ساتر » ! وهرعوا اليه يسعفونه ، ويمسحون الدم النازف
من جبينه . كان المشهد مؤلما ، مثيرا للشفقة ، الا ان وكيل
ابي رشيد لم يشفق ولم يرحم ، بل صاح بالعامل وشتمه ، فلما
اعترض عامل آخر وانتصر لزميله امسك به من قميصه ،
وشده ، وصفعه .

راى الطروسي ذلك بام عينيه فلم يطق صبرا على السكوت.
لقد سافر هو الآخر ، وعرف العالم ،وابصر عمال المرافىء
وكيف يعملون وما هي حقوقهم وضماناتهم،وعز عليه ما اصاب
مواطنه العامل ، وما نال زميله الآخر . آلمه المنظر اشد الالم ،
فأحب ان يقول للضارب كلمتين ، وان يلومه على تصرفه ، غير
ان الوكيل صده بفظاظة ،بل تطاول عليه ، وكاد الموقف يتطور
لولا ان حضر ابو رشيد، فطيب خاطر الطروسي،وانتهر وكيله
ودفعه امامه، واعلن انه لا يرضى بهذه المعاملة ولا يتسامح
حيالها .

هل كان صادقا في ذلك ؟ ربما ، ومهما يكن من امر فقد
عرف كيف يتصرف ،وكيف يظهر الشفقة على العامل الجريح،
اما العامل الآخر ،الذي انتصر لزميله، فلم ينج من الاذى ، ولم
يكن لجرأته مجال للمسامحة . وبلغ الطروسي ان هذا العامل
ضرب في اليوم نفسه ، ومنع من دخول الميناء في اليوم
التالي . وقال ابو رشيد في حق الطروسي ما لا يحب،وصاح
في جمع من العمال والبحارة : لا اريد تدخل الغرباء في
شئون الميناء ولن اتساهل مع احد من البحارة بعد اليوم .

وجاء العامل المطرود الى الطروسي وقص عليه قصته .
شكره اولا على موقفه ، وحدثه عن حياته وحياة الآخرين في

الميناء ، ورجاه بعد ذلك ان يتوسط له عند ابي رشيد ليعيده
الى العمل .

وفكر الطروسي مليا في الامر . كان يعز عليه ان يرفض
طلب العامل ، ويعز عليه ان يترجى ابا رشيد ، ويعرف ان
العامل اذا اعيد اليوم فسيصرف غدا، ومع ذلك وسّط الريس
قدري الجانودي في موضوعه ، وسأله ان يسعى لتشغيله رأفة
بعائلته،وان يبذل جهده كي لا يطرد ثانية . وفعل الجانودي
ذلك كرامة للطروسي ، وعرف ابو رشيد بالامر فتحدث عنه
مستاء ، واشار الى ان الطروسي يواصل تدخله فيما لا يعنيه،
وانه يحرض عمال الميناء وبحارتها ، وانه مدفوع من ...

وغضب الطروسي كما لم يغضب قط : غضب لوصفه
بالغريب عن الميناء ، وسخر من اتهام ابي رشيد له . اكان
يتدخل حقا ؟ ايعد الانتصار لبحار تدخلا في شئون البحر ؟
ومن ملكها لابي رشيد؟ومن سوده عليها؟ اي قانون ؟!اية سلطة.

فكر بهذا كله،بل اضطر الى التفكير بهذا كله ، وعجب
لهذه الدنيا،وعجب لهذا الظلم ، وتساءل مغيظا : « كيف
الخلاص ؟ » ثم انكفأ على نفسه يلومها قائلا « اما يكفيني همي
حتى احمل هموم الناس ؟»

كذلك بدأ الاحتكاك بينه وبين ابي رشيد. واخذت افكار
جديدة تدور في راسه ، وتساؤلات عديدة تلح عليه ، وبدأ
يستشعر الفرق ما بين البحر والبر ، ويلاحظ الاختلاف بين
المحيطين ، وفهم ان وقفته على البر ، وهو في نضج الرجولة،
غير سفره في البحر وهو في شرخ الشباب .. ان في المدينة،
والميناء،والمقهى اشياء جديدة واخبارا جديدة، والعالم يدور
في دوامة الاحداث ، وهو وسكان المدينة ، شاءوا ام ابوا ،
يدورون مع العالم .

لقد حدثه ابو حميد عن المانيا فقال :« اذا انتصرت يا

ابو زهدي انتصرنا . فرنسا عدوتنا ، والانكليز اعداؤنا ، وعدو عدوك صديقك ، لذلك فالالمان اصدقاؤنا . ان انتصار المانيا قريب ، وعندئذ نستقل ونتخلص وتصبح بلادنا لنا ، لا للاجانب ولا لاذنابهم » .

وضحك وهو يسمع ابا حميد. انه لا يقيم له وزنا ، ولا يسمعه الا مضطرا وتزجية للوقت ، ولكن اقواله معقولة ، ومهما يكن فان الحالة على هذا الشكل لا تطاق ، ولا بأس من سماع اذاعة برلين ، ولا بأس من سماع ما يقوله ابو حميد نقلا عن برلين .

ولا بأس ، كذلك ، من سماع اقوال الزبائن الآخرين . بل لا بد من سماعهم حينا بعد حين ، فعندما تثور المناقشات في المقهى ، لا يستطيع ان يمنعها ، ولا يستطيع ، كذلك ان يحتملها ، فيخرج ويلجأ الى البحر . ولكن بعض العبارات تستوقفه احيانا ، وتجعله يفكر بها على نحو ما ، ثم يفكر بأصحابها على نحو ما ايضا ، ويتساءل في ذات نفسه « لماذا يتحمسون للسياسة كل هذه الحماسة ؟ » ولماذا لا يتحمس الاستاذ كامل ، معلم المدرسة ، لمدرسته كما يتحمس لآرائه ؟ وابو حميد ، لماذا يتحمس لاذاعة برلين بأكثر مما يتحمس لمهنته ؟ ولماذا يكره ابو حميد الاستاذ كامل ؟ ولماذا يكره هذا الاخير المانيا ؟ وانا ؟ مع من انا ؟ لست مع احد ، ولست ضد احد ، ولكن اذاعة برلين تعجبني ، وحديث الاستاذ كامل يقنعني ، وبعض الاحاديث الاخرى تسليني ، بل تجذبني ، لقد اعتدت سماع الزبائن ، والفت الجو ، وابو رشيد يريد تعكير هذا الجو ، يريد تهجيري ، ولكنه لن يفلح » .

٦

تناهى الى ابي رشيدما قاله الطروسي فلم يعلق بشيء. انه لا يكشف اوراقه بسهولة ، بل لا يلعب أوراقه الا بعد استقراء وتصنيف. ولقد يؤجل لعب ورقة ما اليوم ليربح بها غدا .

قال في ذات نفسه وهو يفكر بالطروسي « هذا انسان لا يصلح لعمل منظم ضدي. انه لا يملك ماعونة فيزاحمني ، ولا يعمل في الميناء فيفسد علي الوضع ، كل ما في الامر انه يتجرأ علي ، ويتحدث بذلك الى العمال والبحارة ، ويرى هؤلاء قوته فيستمدون قوة منها ، وهذا مصدر الخطر . انني لا اخشاه هو ، بل اخشى سريان عدواه الى غيره ، وعندئذ يتسع الخرق ، ويجتمع عامل الى عامل ، وبحار الى بحار ، ويطالبون بحقوقهم ، ويؤلفون نقابة ، ويتدخلون في شئوني .. لا ، لن اسمح بهذا ! »

صمّم على ذلك تصميما قاطعا . فالميناء منطقته ، وهو الذي يدير العمل فيها ، ويريد ان يديرها كما يشاء هو لا كما يشاء الآخرون . ثم انه يدفع المال لبعض زعماء المدينة ، ويمول الحملات الانتخابية ، ويدعم بعض المرشحين حتى يفوزوا ، فاذا ما فازوا دعموه لدى السلطة . وهو ، الى ذلك ، يرشو بعض كبار الموظفين ، ويدفع لبعض الفتيان العاطلين ، ولبعض المعوزين في المواسم والاعياد ، هكذا تتوطد سيطرته ويشتد بأسه ، ويريد ان يظلا كذلك وطيدين شديدين دائما .

ولو رضي الطروسي ان يعمل معه لانتفع منه ، ولـو اكتفى بالمقهى ولم يتدخل في شئون الميناء لذهب اليه وشرب قهوة الصباح او العصر عنده ، اما وهـو ليس كذلك ، وقد تجرا عليه ، فلا بأس من تاديبه ،او تهجيره ، ولا بأس ، في نهاية الامر ، من حذفه ، ولا يخسر ،في جميع الاحوال، شيئا من سمعته او صفائه .. فمثل هذه الامور تتم عادة بهدوء ، وفي معارك عادية ، شخصية ، لا علاقة له بها البتة !

وحين نقل اليه رئيس الميناء ما قاله الطروسي عنه ابتسم واجاب:« لا مانع سنشرب القهوة عنده ..كيف رايت قهوته، تشرب ؟» قال رئيس الميناء :« قهوته جيدة ، وهـو ، مـع عناده ، انسان دمث ، وانت تعرفه اكثر مني، وزيارتي لـه ، هل تحسبها سدى ؟ لقد افهمته بالقلم العريض ان سلامته مرهونـة بموقفه ، وانه بغنى عن وجع الراس !»

ــ اذن اقنعته !

ــ اقناع ؟ لا ، ولكن ليّنته ، اعتمد علـيّ ابو رشيد ، عندك رئيس ميناء يعتمد عليه .

ــ بارك الله ! بارك الله ! ممنون منك يا ابو امين .

وقام ابو رشيد يتمشى على رصيف الميناء ويتابع التفكير بينه وبين نفسه « ليّنته ! أهذا هو اللين؟ ايكون لينا من يدعوني لاشرب القهوة عنده ؟ لا ،لو حصل ذلك لجاء هو يعتذر ويشرب القهوة عندي . ابو امين سخيف ومغفل، اهذا رئيس ميناء ؟» واجاب بنفسه على تساؤله فقال « نعم ، رئيس ميناء ، بـل افضل رئيس ميناء !»

كان يضع يديه وراء ظهره ، ويسير مترفعا ، تطـق شحاطته في قدميه ، وتدور في راسه فكرة : « كيف نعمل مـع الطروسـي ؟ »

ان ابا امين لم ينقل اليه كل شيء،ولم يكن هو بحاجـة

الى ذلك ليفهم . انه يدرك الكلمات وما وراءها ، ويستطيع ان يبعث اليه برجل آخر ،بل بعدة رجال عند الضرورة ، ولكن هذا تهور،فلماذا لا يتروى قليلا ؟» يحسن بي ـ قال فـي نفسه ـ ان ادع صالح برو في السجن الآن،لقد كثرت سوابقه، وكثرت طلباته وفشل ، ولدي غيره ، فالبحارة مستعدون ان يتعاركوا حتى يفني بعضهم بعضا ، والطروسي ، بعـد ، لا يشكل خطرا مباشرا ، ومسألته مسألة مزاج ، وسأخضعه مع الزمن . يكفيه الآن بعض النرفزات ، اني اعرف ما يجري في مقهاه ليلا ، وها هو مخفر الشرطة امامي » .

عرج على مخفر الشرطة فلقي فيه الترحاب الحار الذي يلقاه في كل مكان ، وبعد شرب القهوة اختلى برئيس شعبـة الامـن العام وتحدثا قليلا على انفراد .

٧

واختلى الطروسي ، في احد جوانب المقهى ، بنديم مظهر الذي تسيطر عائلته على حركة الشحن في المدينة ، وصاحب النفوذ الاول في حي « الشيخ ظاهر » كله .

ومنذ ما دخل نديم المقهى، عرف الطروسي الهدف من زيارته . كان آل مظهر يرغبون في الحط من مكانة ابي رشيد، وهم لا يجاهرون بذلك، ولا يعملون له علنا ، انما يتمنونه ويشجعون عليه سرا . وقد قال الطروسي في ذات نفسه عندما رآه « جاء ليساومني ايضا !! » وقام ، من ثم ، يرحب به، فزيارة نديم ، مهما تكن دوافعها ، لا بد ان تلقى الاكرام، ذلك انه رجل يعتد بساعده ، وله شبابه ووجاهته ، ويسير مختالا بقامته الفارعة ، وكتفيه العريضتين ، ووجهه المورد، ولباسه الفاخر ، وله مجلسه في مرآب « الشيخ ضاهر » الكبير، وله انصاره والمنتفعون منه، ونفوذه وسطوته . انما لم يكن على صلات بزعماء المدينة التقليديين ، لانه ، بحكم عمله ، يرتبط بشركات النقل والمصدرين والمستوردين والصناعيين ، ويؤيدهم في الانتخابات، ويقف، غالبا ، ضد الذين يدعمهم ابو رشيد ، ومن هنا يبدأ الاحتكاك بين العائلتين .

والطروسي ، لكونه محبا للرجال الشجعان ، يؤثر نديم مظهر بحبه، ويفضله على ابي رشيد ، الا انه لا يتصل به مع ذلك ، ويود ، في قرارته لو ترك وشانه ، لو بقي بمعزل عن الصراع بين الرجلين .

قال نديم وهو يرد فتحة غنبازه فوق ركبته المكتسية بسروال داخلي ناصع البياض :

— حدثوني عن المقهى فاشتهيت ان اشرب قهوتي فيه .

— اهلا وسهلا ، المقهى مقهاك .

— وهناك سبب آخر لزيارتي ، هو انني صديق شقيقك واحب ان اكون صديقك ايضا .

كان الرجل صادقا ، والطروسي يعرف هذه الحقيقة ، الا انه قال في نفسه :

« هناك سبب ثالث للزيارة ، وهو الاهم ، فقله بدون مقدمات » .

— كيف الشغل ؟

— ماشي الحال ، نعمة الله واسعة .

— في المستقبل يتحسن ، وطالما انك تركت البحر نهائيا فلا بأس بالمقهى .

« تركت البحر نهائيا ؟ من قال هذا ؟ ولماذا انا مقيم هنا اذن ؟ »

— في الحقيقة لم اترك البحر، لكن الظروف لا تساعدني الآن على العودة اليه . لقد غرق المركب ولم استطع تعويضه، فقلت في نفسي لا بأس بالعمل في هذا المقهى مؤقتا .

— خير ما فعلت، واذا رغبت بالعودة الى البحر واحتجت الى شيء فانني مستعد .

— اشكرك ، اذا احتجت الى شيء فلن اتأخر .

— لا تتأخر ابدا ، مساعدة بعضنا لبعض واجبة .

— في الوقت الحاضر لا احتاج الا الى رحمة الله .

— رحمة الله قبل كل شيء، ولكن الكف لا تصفق وحدها .

— الكف القادرة تصفق .

ابتسم نديم راضيا مفتونا ، وقال بجرس صادق :

— حدثوني عنك ، وكنت انتظر منك هذا الجواب .

وبعد وقفـة :

ـ انا نفسي قلت هذا الكلام ، وما ازال ، ومـع ذلـك لا ارفض اليد التي توضع مع يدي ، فلماذا تكابر انت ؟

ووضع الطروسي رجلا على رجل وقال :

ـ لنتكلم اذن بصراحة . انت تحتاج الى ايدي الغير لانك تعادي الغير ، اما انـا فلا اعادي احدا ولا ارغب فـي معاداة احد ، حتى ولا ابو رشيد نفسه .

ـ واذا عاداك هو ؟

ـ عندئذ نفكـر .

ـ وصالح بـرو ؟

ـ اسقطت حقي عنه .

ـ غدا يخرج بكفالة .. الواسطة كل شيء اليوم .

ـ حين يخرج نتكلم .

ـ نتكلم بعد فوات الاوان ؟

ـ لا بعد الاوان ولا قبله ، في الوقت المناسب ! .

وابتسم نديم للجواب مرة اخرى : « لا بعد الاوان ولا قبله ، في الوقت المناسب » يا للثقة بالنفس !

وانعطفـا ، بعد هذا ، في شعاب اخرى من الحديث. كانا ، رغم التباعد والحذر، قريبين نفسيا، والصداقة المقترحة بينهما قد لاقت تربتها فعلا ، وارتاح الطروسي لصاحبه ، فلمـا غادر هذا المقهى كان شعور بالاعجاب يعمر قلبه ، وقال عنه في « الشيخ ضاهر » : « هذا رجل مقدام ! » وكان هذا الاحساس متبادلا ، فقد اوصى الطروسي ، بعد انصراف نديم ، على فنجان من القهوة ، وجدد سيكارته ، وتكوم شيئا ما على نفسه ، واغرب في تفكير متناقض ، فيه سرور وفيه اسى . لقد اصبح ، دون رغبة منه ، موضع اهتمام الناس ، ولو وقع هذا في وقت آخر ، ومع رجل آخر ، لكان مدعاة للسرور والتباهي ، اما في مثل حالته ، ومعه بالذات ، فقد كان مجلبة

للسرور والتنغيص معـا . انه يعرف قيمة زيارة نديم مظهر ، ففي احياء المدينة يتطلبونها ، ويتكسب بهـا بعضهم نفوذا ، وكان نديم يزور انصاره متعمدا ،فمن حين الى حيـن يزور الذين وضعوا انفسهم ، لسبب او لآخر ، تحت رعايته ،وكانت الزيارة ، في هذه الحال ، تأخذ شكل الدعم المعنوي ، فـاذا ما احتاج الامر لتأييد مادي ، اقدم غير مبال ، ذلك ان سطوته تتمركز في « الشيخ ضاهر » وتتفرع في الاحياء الاخرى ، وبقدر ما كان حريصا على نقطة الارتكاز ، كان حريصا على نقاط الاستناد ، وفي سعيه هذا الذي يتخذ صفة المسايرة حينا ، والقصد حينا آخر ، كان يفتقـد النصير القوي فـي الميناء ، وها هو الطروسي يظهر بين الصخور اخيرا ، دون سند او حماية ، ويقف في البطرنة ثابتا ، ويلقي بصالح برو من فوق صخورها ، ثم يتحداه ويسقط حقه الشخصي عنه ، مع علمه بأنه يتحدى ابا رشيد نفسه اذ يفعل ذلك .

لكن الطروسي ليس بالرجل الذي يقبل ان يصطنعه الآخرون ، وما ان انصرف نديم مظهر حتى قال مصمما « لن اسير في هذه الطريق ، ولن اكون طرفا في اي نزاع من هذا النوع . انا هنا بانتظار ساعة الابحار . انني في جوار البحر، ومن اجله فقط يمكن ان اقاتل ، اما اذا تركت وشأني فلـن اكون مع هذا ضد ذاك ، انا الطروسي ولست صالح برو »

اطلق جملته الاخيرة وزفر ، مخرجا الهواء الكدر الحبيس، ثم استنشق رائحة البحر ، ورنا الى الافق البعيد ،واستعرض عيشه النكد على هذه الصخور ، وحياته الخالية من كل مـا يبهج وينشط ، وذكر ماضيه .. ما كان اجمل ماضيه ، أيعود مرة اخرى الى ماضيه ؟ ايستأنف البحار رحلته بعد انقطاع؟

انه السؤال ذاته ، والاستفهام الكبير المرتسم ابدا في لوحة ايامه . ولئن كان يحسه سابقا شوكة تخزه ، فانه ، في هذا الجـو الكدر ، يشعر به مطرقة تدق صدغيه في طلب الجـــواب .

٨

وكان الجواب في الغيب دائما . هو يؤمن بأنه بالغ ما يريد . اما متى يكون ذلك :فياي اسبوع ،في اي عام ، فانه لا يدري.كل ما يعلمه انهتوقف يوما عن الابحار وما زال كذلك. كان في الخامسة والاربعين من عمره حين حدثذلك. هو يذكر التاريخ ولا ينساه . انه تاريخ غرق « منصورته » التي ترقد الآن بسلام فيقاع البحر . كانوا ينادونه «الريس»، وله مركب ينقل الحبوب من سورية الى قبرص وحيفا ويافا والاسكندرية ، وبالمقابل ينقل الخشب من شواطيء رومانيا الى سورية ولبنان وفلسطين . كان المتوسط بحيرتهوارضه. انه يعرفه جيدا ، يعرف دروبه دربا دربا . ولديه بوصلة ، لكن بوصلته الحقيقية هي النجوم : الكوكبة ودرب التبانة ونجمة الصبح . وهو لا يقرأ غير العربية ، ومع ذلك علق في قمرة المركب خريطة اخذها من بحار ايطالي مقابل سطل من النبيذ ، ووضعها ثمة للزينة لا لشيء آخر . انه لا يقرأ لغتها ولا ينظر اليها الا مصادفة .. ولماذا يفعل ؟ من نظرة الى البحر ، والمركب يجري ، يعرف كم الساعة ، ومن مدينة الى اخرى يعرف المسافات بالساعات ، وكان همه ان يحطم ارقام الساعات ، ان يصل قبل غيره ، وكان يصل قبل غيره فعلا . ان له كفه التي ما رفعها مرة الا عرف مجرى الريح وتقلباتها، وله قدمه التي تدرك ، من اهتزازات الماء ، ما سوف يكون عليه البحر ، وكانت المغامرة ، بعد ، شيئا في دمه ، وكان ، الى هذا ، يحترم البحر فلا يتحداه ولا يبصق في وجهه .

— هذا ملك ! البحر ملك !

يقولها بكل ما في وجدانه من ايمان بها ، فاذا واتت الريح صاح بالبحارة :

— افتحوا الخام يا اولاد واعطوني الدفة .. افتحوه كله، كله ، واجعلوا فتحته الى البر ، ودعوني اسابق لاصل .

— ولماذا السرعة ؟ الريح طيبة يا ريس !

فينظر اليهم بعين ويغمض الاخرى ،ويهز برأسه قائلا :

— اعرف انها طيبة والا ما فتحنا الخام ، ولكن الريح لا تؤاتي كل ساعة . الريح كالمراة،سريعة التقلب ، كثيرة الدلال، فاذا اعطتكم المراة وجهها ، هل تتركونها دون ان تضعوا يديكم وراء ظهرها ؟

وينظر في البحر امامه وقد استثير ، ويتابع :

— في رأسي افكار لا اعرف كيف اشرحها . انا عنيد ، كافر ، مؤمن ، اربح وانفق ، اشرب واحب وآخذ حظي من الحياة ، واخالف الدين طمعا في المغفرة ، ولكنني لا اشرب من بئر وارمي فيها حجرا ، ولم اقض ليلة مع امراة الا شكرتها وتمنيت لو ان معي زهرة اتركها لها على الطاولة .

ويضحك البحارة ويتغامزون :

— الريس قرمة ! ابن زمانه !

ويقول بعضهم :

— البحر يعلم الانسان ، خي !

فيوافقهم على رأيهم :

— اذا لم يتعلم الانسان من البحر فلا امل له بالتعلم ابدا .. البحر مدرستنا .

وحين يقول ذلك يبدو متواضعا جدا ، ويشبه في لهجته وحركاته ، طالبا انقطع الى مدرسته.. اعطاها كل حياته ، وحبس نفسه ، راضيا مختارا ، بين جدرانها .

وكان في الليل ، وفي السحور ، وفي اي من ساعات

السفر ، يقوم ويتجول في كل اطراف المركب : يتفقد البحارة، يصلح وضع الخام ، ينزل الى العنبر ، يدور كحارس يقوم بواجب الحراسة ، شاعرا انه راع والبحارة رعيته والمركب عالمه الصغير .

— من اجل هذا نحبك يا ريس ! انت ابونا واخونا الكبير.

— انا واحد منكم . ليس لي اولاد فانتم اولادي .

ولم يكن له ، فعلا ، زوجة واولاد .

— ولماذا لم تتزوج يا ريس ؟

— نصيب ! حين كنت في سن الزواج ، لم اكن قد شبعت من العزوبية ، ولما شبعت كان وقت الزواج قد فات ... انا انسان لا تستطيع امراة واحدة ان تضبطني ، ثم هناك سبب آخر ،فالبحار النازل الى البحر كالجندي الذاهب الى المعركة ، لا يعلم ايعود ام لا، وقد رأيت كثيرا من ارامل وايتام البحارة ، فأدمى منظرهم قلبي وخفت الزواج وانجاب الاطفال . كله نصيب ، هذه اعذار ، الصحيح انني لم اعلق في « فخ » امراة بعد .

— وماريا ؟

— هذه لا تريد الزواج .

— وغيرها ، يقولون ان لك في كل مرفأ امراة !

— من قال هذا ؟

— ولماذا تخبىء ؟ كل البحارة يعرفون !

— وانتم ؟ لكم صاحبات ام لا ؟

— نحن على باب الله ، دراويش !

— فشرتم ! البحار له في كل مرفأ امراة وخمارة .

— ما كل البحارة .

— طبعا ، ولكن هذه قاعدة . البحار يغيب عن بيته عدة شهور ، ورائحة البحر تهيج الرجولة ،وهذه راسمال البحار، اذا لم يكن رجلا لا يصبح بحارا ولو قضى حياته في الماء ،

وللرجولة حقها ، ونحن نتصرف بموجب هذا الحق فمن يلومنا ؟ لو كان لي زوجة لاوصيتها ان تقول لاولادي كلمتين : « كان ابوكم زكرت (١) وكريم » هكذا كان وهكذا يجب ان تكونوا .

— واذا لم يكونوا ؟

— اعتبرهم ليسوا اولادي . قد تكون امهم حبلت بهم من غيري ، فالبحار يغيب ويغيب،وامراته تنتظر وتنتظر ، وقد تمل هذا الانتظار ، وتقع يوما في التجربة ..

ويضحك البحارة ويقولون :

— لا تجعلنا نشك بزوجاتنا .

— معاذ الله ! انا اقول هذا عن بحارة العالم (ويهز براسه ويضيف مازحا) يا اولاد الكلب،تعلموا ان ترضوا زوجاتكم اذن ، وفروا قوتكم حتى نعود ، وسنرى ما تفعلون حين نصل .

ويعود الى جده فيقول :

— ما قضيت ليلة مع امراة وعرفت انها زوجة بحار الا واحسست بالندم. شعرت انني اخون حق الزمالة ، فأتوب ، ولكن توبتي لا تطول ، حياتنا قاسية يا جماعة ،فبعد شهر في البحر يشتاق الإنسان الى الارض ، ولا نصل الى مرفأ حتى اجد نفسي مدفوعا الى المعصية ، واقول في نفسي « تستر يا رجل ! » واردد الحديث « واذا بليتم بالمعاصي فاستتروا » ولكن الرمح لا يختبىء في شوال ، وها انتم تعرفون كل شيء ، لعنة الله عليكم .

— ولهذا لم تتزوج ! اعترف بالحقيقة .

— ربما ! ربما ! وقد اتأسف في المستقبل لانني لم اتزوج ولم انجب . صدقوا انني لا اغار ، لان امراة تكون كي لا تكون

---

(١) زكرت لفظة شعبية تطلق على الشهم ، الشجاع .

لغيري . الغيرة والخوف والشك اقدر من البحر على تدويخ البحار ، ولكن اراء الناس تتغير مع الزمن . احبوا زوجاتكم واشتروا الهدايا لاولادكم . لا تعودوا وانتم تهزون ايديكم . العائلــة حلوة يا شباب !

يقولها بحرارة وحنان . انه لا يتكلم عن اموره الخاصة دائما ، ولكنه حين يجتمع الى بحارته في امسية جميلة، والبحر رهو ، والمركب يقلع ويتهادى ، والشراع كجناح طائر ابيض منشور للريح ، يحلو لــه ان يستمع اليهم، وان يفتح صدره لهم ، ويشعرهم انه منهم ، وان للبحر اسرته ، وانهم هم وكل بحارة الدنيــا افرادها .

وعلى شدة عصبيته ، وكثرة شتائمــه ، واستعــداده للقتال دفاعا عن مركبه او حقه او عشيقته ، لم يكن يقلع الا وهو يقول : « يا الله يا رضا الوالدين » ولم يكن يقبل ، ولو اعطي اي شيء ، ان يأتي صباح عيد الفطر او الاضحى وبحارته بعيدون عن بيوتهم، فاذا عاكسته الريح ولم يرجع اسف وبدت الجهامة على محياه ، اما اذا كان في البلد فانه يذهب الــى بحارته يعيّدهم ،ويستدين في حالة العسر ويدفع لهم، ويقول في ذلك انه يعرف من بيت اهله ، وانه كان طفــلا ويعرف مشاعر الاطفــال في العيد .

فاذا سألوه : «كيف كانت طفولتك؟» اجاب : لا تسألوا كنت شقيا اكثر من كل الذين ترونهم على الشاطيء .كنت ابن ميناء عن حق ، وقد سببت للوالدين ، يرحمهما الله ،متاعب ومخاوف كثيرة،وكانت اختي فاطمة ، وليس لي غيرها ، هي التي تتستر علي ، وتفكني حين يربطني والدي الى عمود البيت بسبب هربي من المدرسة او شيطنتي وعراكي مــع الاولاد وسباحتي في البحر ، وكانت تطعمني وتعطيني من خرجيتها، ولهذا احببتها مثل روحي ، ثم تزوجت اختي الى طرابلس ، واصبحت غريبة ، وكلما تيسرت لي سفرة ازورها ، فتخرج

لي قميصا او منديلا او اي شيء جديد وتقول « خذ يا عين اختك » . واسمع في الحي ، عندها، وشوشة ، واحس ان عيونا تنظر الي من الشعريات الخشبية ، وبعد مدة اكتشفت ان اختي تتحدث عني،وتسأل الله ان يهديني الى الزواج،وتقول انها ستخطب لي قريبا وتسمع نساء الحي فتقول كل واحدة في نفسها « لعل وعسى » .. الاخت ام ثانية يا جماعة ، لم ارها منذ زمن ، والعائلة ، اذا مات الاب والام ، تفرقت .. هذه سنة الكون ، سبحان الله » .

اما سنته فكانت « اصرف ما في الجيب يأتك مــا في الغيب » . لقد جاهد في اول عمره جهادا شاقا : عمل في الميناء ، وفي البحر ، وفي الصيد ، واشترى فلوكة ، ثــم باعها ، واشترى شختورة ، وبدّل وغيّر ، واستقر اخيرا في « المنصورة » . كان شريكــا فيها اولا ، ثم اصبحت ملكه ، واصبح مسئولا عنها وعن بحارتها ، وكان يدخر بعض المال فاذا حلت ضائقة ، او انقطع في مرفأ بدد ما ادخروا واستدان، وكان مع ذلك قانعا ما دامت « المنصورة » ملكه .

على ان المنصورة غرقت عام ١٩٣٦ . هبت في تلك السنة عاصفة رهيبة على المتوسط، وكان هو بين اللاذقية ومرسين، فنجا مع بحارته في قارب صغير ، وتحطمت « المنصورة » وابتلعها البحر .. ضاعت الى الابد ! وجاءت الازمة بعد ذلك، وخف النقل ، فلم يستطع تعويضها . وتعطل طويــلا ، ثــم اشتغل « ريسا » ، الا ان اصحاب المراكب بخلاء ، يعاملــون بحارتهم معاملة العبيد ، فلم يطق صبرا على الشغــل معهم ، وقال وهو يترك العمل آخر مرة :

— الذي صوته ليس من راسه لا يعرف ان يغني .

ولكن كيف يستطيع المغني السكوت عن الغناء! وكيف يترك الملاح البحر نهائيا ؟ بل كيف يفارق الشراع ونساء المرافيء ؟

قال في نفسه : « لماذا لا أعود صيادا من جديد ؟ من هنا ابدأ .. الصيادون يرحبون بي :« على الراس يا طروسي، ما تكرم يا خي ، الفلوكه فلوكتك، رح معنا والرزق على الله»».

وراح معهم من جديد فوجد الزمن قد تغيّر ، وزوارق الصيد لا تترك لصيادي الفلائك شيئا. كل شيء يتبدل بسرعة، وصنعة البحر نفسها اصبحت تجارة ، والتجار لا يعملون ، والبحارة اصبحوا اجراء ، وهو لا يطيق ان يكون اجيرا عند احـد .

هذه الصخور ، بين الطابيات والرمل، قطعها سيرا عشرات المرات، جلس فوقها ، انحدر بين شعابها ، صعد الى قممها ، مشى على الشاطيء الرملي ، قرفص على حافة الماء ، نكث الارض ، كتب على الرمل ، صبر طويلا ، ثم ضاق ذرعا بكل شيء ولكنه لم يستطع ان يترك البحر ، ان يذهب الى المدينة ويتـرك الميناء .

وخطر له ، وهو يفكر بالموانيء التي زارها ، ان يفعل كما يفعل البحارة المسنون في رومانيا وايطاليا والاسكندرية ومرسين . غيرانه استبعد ان يكون صاحب خمارة، ولو اراد ذلك لما سمح له، فلم يبق عليه الا ان يفتح مقهى صغيرا ويسترزق .. وماذا في ذلك ؟ انه ، على كل حال، يظل على مقربة من البحر ، ويصبح مقهاه ملتقى البحارة .

ولكن اين يفتحه ؟ وانى له المال ؟ وهل يستدين ؟ ومن يدينه ؟ بحارته القدماء تفرقوا، بعضهم هاجر، وبعضهم عمل في مراكب اخرى، وبعضهم مات ، واصحاب المراكب لا خير فيهم ، ولن يطلب منهم، واصحاب البضائع كانوا يدفعـون « للمنصورة » وليس له . كان صاحب مركب ذات يوم ، ريسا معروفا ، اما الآن ؟ لا شيء ! مجرد بحار ، والذين لم يكونوا شيئا ، ربحوا من ظهر بحارتهم واغتنوا ، ولو ذهب اليهـم لساعدوه ، لكنه يحتقرهم : « هؤلاء قراصنة ، بـل ادنـى !

القرصان قاطع طريق ، وربما فعل ذلك لحاجته ، اما هـم فمرابون ، يهود يعبدون المال » .

طرح الفكرة عنه ، وظل يضطرب بين المدينـة والميناء ، يلوب ، يذهب، يجيء ، يحسد الصيادين على صبرهم الطويل، ويشعر انه عاجز حتى عن ان يفعل مثلهم، ان يجلس نهـارا كاملا ينتظر السمكة لتأتي فتأكل ولا تعلق .. « يا للزمـان العكروت ، كيف غرقت المنصورة !؟ »

عشرات ومئات المرات فكر كيف غرقت المنصورة، وعشرات ومئات المرات حاسب نفسه، ونقب عن اخطائه، وكان، في كل مرة ، يجد انه فعل كل ما يمكن ان يفعله بحار، وانه لم يرتكب خطأ يندم عليه . كانت العاصفة اقوى فانتصرت عليه وانتقمت، وهوت «منصورته» الى القاع . ضاعت كما ضاع كثير غيرها، فاذا كانت الباخرة «تتانيك» التي كتب عليها اصحابهـا « لا تحرق ولا تغرق » قد غرقت فما وجه الغرابـة فـي غرق «المنصورة» ؟ الفارق الوحيد ان اصحاب «تتانيك» شركـة وانه فرد ، لقد بنوا واشتروا غيرها ، اما هو فقد عجز عـن البناء او الشراء . وظل يتحسر والحسرة لا تفيد ، فليتعزّ بسواه ، فمن راى الى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته .

انما البحر هو « المصيبة » التي لم تهن عليه :كيف؟ وهل يعيش بعيدا عنه ، محرومـا من الابحار على متنه ؟ ابدا ! وهل يظل اجيرا عند الناس ؟ ابدا ايضا ، اذن فما العمل ؟

وفيما كان يجلس على صخور « البطرنة » ويرنو الى البحر ، ويتأمل السفن والمراكب والفلائك والمجاذيف والمراسي والحبال والصواري والاشرعة ، كل ما يذكره بامسه ويوحشه في يومه ، جاء بحار وربت على كتفـه وجلسا يتحدثـان ويستعيدان ذكريات البحر واخباره وقصصه ، ويقول احدهما للآخر كل مـا في صدره .

في هذه الامسية شكا الطروسي . كان البحار صديقه، ويعرفه صاحب نخوة ورجولة ، فباح له بما يعذبه . قال له انه فكر في افتتاح مقهى فلم يجد المال . ولم يكن البحار يملك مالا، الا انه كان مدبرا ، فاقترح على الطروسي ان يكون المقهى بسيطا: بضعة كراسي وبضع طاولات وخيمة على هذه الصخور.

– هيا يا رجل ، والله فنجان القهوة بلسم في هذا الجو .. انا اول زبون عندك ، انتظرني وسأعود .

واغتبط الطروسي لكلمات صديقه، اتبعه نظره وهو يذهب « كم في الدنيا من اصدقاء اوفياء؟ لا بأس بالانتظار يا طروسي، الناس بعضهم لبعض » .

وعاد الصديق ببعض المال . هل كان يدخره ؟ هل استدانه؟ هل باع حلى زوجته ، هل رهنها ؟ كل هذه الاسئلة جالت في خاطر الطروسي وهو يأخذه منه ويشكره عليه، فما زاد صديقه ان قال « دبّرها ربك ، ابدأ العمل من صباح الغد »

وفي صباح الغد جاء الطروسي باكرا . انتقى صخرة كبيرة مجوفة ، امامها منبسط صخري، واتى بزند من الحديد وراح ينقر الصخر ، ويسويه ، ونقل الحصى والرمل وملأ التجاويف، ثم استدار الى تجويفة الصخرة وبدأ باصلاحها ، وجاء بالخشب فصنع خيمة ، واصبحت الصخرة وراء الخيمة كهفا ، وضع فيه الموقد والدكة الخشبية ، واشترى بعض الكراسي والطاولات ، وابتدأ العمل .. وجاء بعد مدة ابو محمد ، « المقطوع من حجر » كما يقول عن نفسه ، وعمل معه ، واتخذ المقهى من اول ليلة مكانا للعمل والمبيت .

٩

هكذا قام المقهى في الاصل، وهكذا استقر الطروسي بعد طول اضطراب. كان عليه ان يجد مصدرا للرزق فوجد ، وكان عليه ان يحمي رزقه فما تأخر ، وعرف ان لا بد له من الكفاح ليبقى فكافح وبقي ، ولم يترك البحر ولا غادر الشاطيء .

ان خيمة تستند مؤخرتها الى صخر ، وتنهض مقدمتها على دعامتين خشبيتين ، وتعلوها اغصان الدلب والغار، وتطل على البحر من كل جهاتها فتستقبل انسامه ورياحه ، وتصغي الى همس مائه واضطراب موجه ، وترقب ، في كل يوم، هدوءه وثورانه ، يحلو لاي انسان ان يشرب قهوته ويدخن ناركيلته فيها وان يقضي ساعة من ليل او نهار راضيا سعيدا تحتها ، فكيف يقوى المرء على تركها ؟ وكيف يستطيع هو بالذات ان يتخلى عنها ؟

على ان الخيمة تبدو جرداء مقفرة في الشتاء. العواصف تمسك بها وتهزها ، فيقرقف ورق الغار والدلب ، وتضطرب الاعمدة الخشبية ، وتتخلع المسامير ويهتاج البحر ، ويتبلل الجالسون فيدخلون المقهى ليتابعوا حكاياتهم ، ويترشفوا قهوتهم ، ويدخنوا النراكيل ، ويتسقطوا اخبار الصيد وتقلبات الجو .

وكان المقهى ، من الداخل ، عاريا الا من بعض اعلانات افلام ما قبل الحرب ، تطل من اكبرها صورة عبدالوهاب بطربوشه القصير ونجاة علي بعينيها الجاحظتين وشعرها

المقوص جديلتين الى وراء، في استدارة حول الراس تزيد من ابراز جبهتها العريضة الناتئة ، وقد وقفا حول شجرة رسم على جذعها قلب يخترقه سهم ،وفي راس الاعلان هذه العبارة « دموع الحب » وفي صدر المقهى رسم آخر بالحبر لرجل غليظ الشفتين ، هرقلي الجسم ، كبير الشاربين ،معقوفهما الى اعلى ، كتب تحتها بخط رديء « عنترة ابو الفوارس » .

وعلى يسار الداخل دكة خشبية طليت بدهان ازرق لم يبق منه ملح البحر سوى آثار ،وعلى استطالة الدكة المجوفة التي تتحول في الليل الى سرير ينام عليه الطروسي احيانا وينام في داخله ابو محمد دائما،تفرقت اقداح وفناجين ، وتدلت من السقف شصوص وصنارات ، واستندت قصبات الصيد في الزوايا ، وتكومت الشباك عند الباب ،وكان البحارة ينحشرون في المقهى متلاصقين ، يلعبون ويتصايحون ،ويحلون مشاكلهم ويعقدونها ،ويذهبون ويجيئون ،ويبداون ويعيدون، ويجدون كل ما يبتغون : الريس يلقى بحارته ، والبحارة ريسهم ، والمقاولات تجري ، والصفقات تتم ، والمشاجرات تنشب ،والمشكلات تسوى ، وجميع الاعمال البحرية تلقى لها سوقا رائجة على نحو ما .

وكانت عمليات التهريب لا تنقطع . تجري علنا حينا ، وسرا حينا آخر ، ومن وراء ظهر الطروسي احيانا ، لكنه لا يلبث ان يكتشفها فيتهدد ويتوعد ويصيح بالبحارة :

— لا اريد هذه اللعنة في مقهاي .

ويصيحون بدورهم :

— اتركنا نسترزق ، عندنا عيال !

ويثور بهم ، ويقسم ان يمنعهم . ثم تهدأ ثائرته ،ويدير ظهره ، ويقول في نفسه « التهريب جزء من حياة البحر ،جزء من حياة البحارة ، وهم ، كما قالوا ، اصحاب عيال ، فلماذا

اعترضهم ؟ ولماذا اقطع رزقهم ؟هذه عادة المرافيء ، ولن اغيرها » .

شيء واحد يوصيهم به :

— لا تستغلوا وجود المقهى ، تكفيني متاعبي بسببكم .

— نحن لا نفعل اي شيء يا عم ، القطة تأكل عشاءنا !

— وغداؤكم ؟ من يأكل غداءكم ؟ قولوا .

— وماذا نفعل ؟ الا ترانا مثل فقراء الهنود ؟

— نعم ! انتم عقلاء مثل « بنات الراهبات » ،وانا كذلك مثلكم ، لكن لا تنسوا اننا اولاد كار واحد .

فيضحك البحارة ، ويظهرون الاذعان ، ثم يتابعون لعبة التهريب ذاتها . فاذا كان الصيف تفرقوا وخفتت ضجتهم، واذا كان الشتاء تجمعوا وثقبوا اذنيه بصياحهم ونقارهم .

على ان المشكلة الصعبة ، بعد الصياح والشجار ،كانت رطوبة البحر التي تفسد السكر والملح وتذيبهما . فحفر الصخر وصنع منه شبه صندوق ، واقام للمقهى بابا خشبيا ،ومع هذا لم تسلم مؤونته كليا ، انما اصبحت الامور ايسر قليلا .

عقبة اخرى تغلب عليها ، تلك هي ضبط النظام داخل المقهى ، فقد اعتاد الصيادون ان يدخلوا حاملين شباكهم وسلالهم وقصباتهم وصناراتهم وحتى مجاذيفهم المعطلة وحبالهم المقطعة احيانا ، ويلقون بكل ذلك في ارض المقهى او في بابه، او على الطاولات والكراسي ، او يجلسون فوقها ، ويسدون الطريق ويفسدون كل شيء .

ولم يطق الطروسي احتمال هذه الفوضى . اجبر الجميع على وضع اشيائهم في الخارج ، وتعهد بالمحافظة عليها ،ونصح بعدم ادخالها ، وتصايح ، وتشاجر ، وافلح نسبيا ، فقنع بذلك ليقينه ان البحار لا يخرج من جلده ،وان مقهى البحارة لا يصير مقهى ذوات ، وان لكل فئة جوها ، وانه هو شخصيا

يحب هذا الجو ، وربمـا افتقده لو غاب عنه .

وكان هذا الجو لا يكتمل الا بعناصره واجزائه كلها ، وكانت هذه العناصر والاجزاء تفرض نفسها بأي شكل ،وكان الطروسي يقابلها بصبر تارة ، وبضيق طورا ، ويدفعهـا بالاحسن ، ويدفعها بالاسوا ، لكنه لا يهرب منها ولا يتخاذل امام مصاعبها . دخل السجن مرة ، ودفع الغرامات مرات ، وعرف انماطا من المهربين ، واصنافا من المحتالين ،وضروبا من الخبثاء ، وضروبا من الطيبين ، وارتاح الى بعض الزبائن، ونفر من البعض ، وكره اشياء ، وتألم لبعض النذالات ، ونعم ببعض الصداقات، وظل ، في كل ذلك ، على انفته ، عصيا لا يسلس قيادا ، وعزيزا لا يخفض جناحا .. ظل بحارا يدير مقهى على الشاطىء .

انما الشاطىء ليس صخرا فحسب ، ولا رملا او مـاء فحسب ، انه ناس كذلك ، وشئون ، وشجون ، ودنيا حافلة ، متنوعة ، متجددة ابدا ، لا غنى لمن يعيش فيها ان يشارك في وجوه نشاطها . ومع كل رغبة الطروسي في تجنب مـا لا يعنيه ، ومع حرصه على النأي بنفسه عن شئون الميناء ، وجد نفسه مسوقا الى ان يرى رايا في امرها ،ومن هنا عنته حياة الآخرين ، وانجرف في تيارها ، وحدد موقفه مـن بعض امورها ، فتعرض بسبب من ذلك لنقمة ابي رشيد ، وتعارك مع صالح برو ، وثبت رجله في ارض المقهى وقال « انـا هنا وسأبقى ، وليطبخ ابو رشيد احمض ما عنده » .

١٠

تابعت الحياة سيرها المعتاد، وانسحب ظل النسيان على حادثة ابن برو ، وخمدت فورة غضب الطروسي فاستأنف مجلسه على الصخرة ، وعاد المقهى الى طبيعته ، ورجع الزبائن الى لغوهم واحاديثهم ،كأن شيئا لم يقع بين البطرنة والميناء.

وجلس الطروسي كعادته على دكة المقهى يشرب قهـوة الصباح ويدخن سيكارته ويفكر ، متأملا الاشياء من حوله ، والاشياء في ذاتـه ..

كان المقهى على شيء من الترتيب والنظافة اليوم . ولو صنفت المقاهي على اساس من ترتيبها ونظافتها لكانت درجته منخفضة جدا ، ولكن ماذا في وسع ابي محمد حيال مشاكسة البحارة ؟ لقد يحلو لهم ان يضعوا اغراضهم على دكة المقهى نفسها ، فيحملها ابو محمد ويضعها جانبا ، او يمسك بهـا الطروسي ويلقيها خارجا ، ويقسم ان سيرميهـا في البحر ان رآهـا على الدكـة مرة اخرى ، ويعود فيراها مرة اخرى، بل مرات اخرى لا نهاية لها .

اذن فقد كان المقهى نظيفا مرتبا في هذه الحدود: المجاذيف والحبال ملقاة على الصخور ، والشباك مجفرة عليها ،والفلائك مربوطة الى اوتاد حديدية امام المقهى ، وكويمات من «الفلين» والاسفنج وفوارغ العلب ومزق الشباك تنتشر هنا وهناك .

السلال والقصب والصنانير وحدها وضعت في الداخل وانتشرت من هذا الخليط كله رائحة السمك والملـح والقار والقلفون. وجلس الطروسي يستقبل هذه الرائحة ولا ينكرها،

وينصت الى البحارة ولا يقاطعهم .

كان من عادته الا يتدخل فيما يتحدثون . يعرف هذه الاحاديث التي تدور عن المد والجزر والنوء والصيد وشئون البحر الاخرى،اما اليوم فقد اختلف الحديث ،ونحا به صياد منحى المغالاة والمغالطة .فقد زعم ان العجين افضل الطعوم للبوري ، والريح الشرقية انسب الرياح للصيد ، وكان الصيادون يجادلونه فما يزداد الا تعنتا ، وقد كره الطروسي منه ذلك فانتهره :

ــ بلا خلط !

ولامر ما تعمد الصياد المناكدة فصاح به الطروسي :

ــ اي تعال علمني الصيد .. ما بقي غير هذا !

واضاف بعد وقفة :

ــ يا ابني لا تجادل ، انت البارحة طلعت على الدنيا ..

قال الصياد :

ــ صحيح ، ولكن لكل زمان دولة ورجال ..

ــ ماذا تعني .؟ هل انت رجل هذا الزمان ؟ وهل اصبحنا نجهل البحر لاننا نشتغل في مقهى ؟

ــ اذا تركت الشيء تركك .

وضع الطروسي الفنجان على الدكة مغضبا ، والتفت الى الرجل وقال بنبرة حاسمة :

ــ بلا فلسفة .. كلام الرجال على راسي ، اما كلامك !..

(واضاف) قالوا لك البوري لا ياكل العجين ، والريح الشرقية تطرد السمك الى الداخل ، فلماذا تجادل في المحسوس ؟ ولماذا لا تتعلم اذا كنت لا تعرف ؟ أهذا كلام صياد ؟ وانت، صياد انت ؟ وهل تحسب ان الانسان يتقن الصيد اذا وضع رجله في الماء ؟ لا يا ابني لا ، الصيد مهنة صعبة .

قال كلماته بحدة ، ثم امسك فنجاة كانما شعر بتفاهة الموضوع فرغب عن الاسترسال فيه ، وربما ارضاه سكوت

الصياد ، او ندم على مناقشته وزجره، فجعل يدخن،ويتفرس في سقف المقهى ، ويرسل نظراته عبر الباب ، كمن يتوقع قدوم شخص ينتظره ..

في هذه اللحظة علا صوت انفجار على الشاطيء ،فصاح البحارة « ديناميت ! » وقفز الطروسي عن الدكة واسرع خارجا ، ووقف على الصخرة الكبيرة ونظر فيما حوله ،ثم انحدر بين الفجوات ، وراقب الماء،وتلفت ، وانصت ، ولما لم يجد ضارب الديناميت ،ولا عرف في اي مكان من البحر القي ، عاد الى المقهى منزعجا يقول :

ــ سأعرفه .. غدا نتحاسب .

فمد خليل العريان لسانه على جاري عادته وقال :

ــ حلمك على الناس خي ، ليش النرفزة ؟ الصيد ما له قانون ، اليوم نصطاد بالشبكة ، وغدا « بالمطرين » وبعده بالديناميت،ثم السجن وضراب السخن،هذه حياتنا ابوزهدي!

قال الطروسي وهو يبتسم بالرغم عنه :

ــ انا افهم ما تقول يا خليل . ليس للصيد قانون ، وفشر من يقول غير ذلك ، لكنني لا احب الصيد بالديناميت لانه يقتل صغار السمك . وهذا الصيد غدر ، غدر لا حرام ، لان الذين في السراي لا يعرفون الحرام حتى نعرفه نحن ، والمسألة وما فيها انني لااجد فيه لذة،فهل تجدون فيه لذة انتم؟

ــ لذة ؟ لا ، لقمة عيش ، هذا كل ما في الامر .

ــ جائز ! لا بد للانسان ان يعيش ، غير ان رجال الجمرك والشرطة سيأتون غدا ويسألونني : من رمى الديناميت يا طروسي ؟ وانا اعرف الذين يرمونه لكنني لا اقول : لذلك لا اريد صيد الديناميت في هذه المنطقة ، والحاضر منكم يعلم الغايب والسلام .

انقلب شيء ما في جو المقهى بعد خروج الطروسي منه. الريس محمد الصوفي لم يعجبه الحديث ، فما ان قال خليل

العريان « كلام الطروسي مسك » حتى انتهره :

ـ لا مسك ولا بطيخ .

ـ لا تزعل من الحق يا عم .

ـ لا ازعل من الحق بل من الاستبداد . الطروسي يستبد بالصيادين ، فمن الذي جعله مسئولا عن المنطقة ؟

قال خليل العريان يطيب خاطره :

ـ يلعن الديناميت وساعته . ما فيه غير الخطر . ابن ابو شفة راحت يده ، ورمضان انقطعت اصابعه ،وعبدالرحمن في السجن ، والبحر ، على كل حال ، واسع ، اي ما بقي غير البطرنة ؟روحوا للرمل،لابن‌هانيء،للفنار،الدنيا واسعة .

اصرّ الصوفي على رايه .

ـ مهما كانت واسعة لا يجوز هذا الشغل ، اذا كان محموقا من ابن برو فلا يفش خلقه في الصيادين .

ورفع ابو محمد راسه عن ركوة القهوة وهم ان يقول له « اذا كان هذا الشغل لا يرضيك فقل كلامك في وجه الطروسي لا في قفاه » الا انه مضغ الكلمات لدخول اثنين من رجال التحري ، اقتربا منه وسألاه :

ـ اين الطروسي ؟

ـ خير ان‌شاءالله !

ـ لنا معه شغل .

كانت اللهجة جافة ، فاكتفى ابو محمد بهز كتفيه وقال :

ـ لا اعرف ! الطروسي لا يقول اين يذهب .

ولما خرجا تساءل مغموما :

ـ ما القصة يا ترى ؟ كيف اوصل له اشارة ؟

ثم سلا قائلا في نفسه :

ـ وليش الخوف ؟ الطروسي يدبر حاله .. ما هذه اول مرة يسألون‌عنه ، ربما جاءوا لاجل الديناميت او لا جل ابن برو ، غدا نعرف السبب .

١١

رجع رجال الامن في الليل ، ففتح اثنان منهما الباب ودخلا بكياسة . كانا على اعتقاد ان الطروسي موجود ، فلما لم يقعا له على اثر سألا عنه ، فقال لهما خليل العريان :

ـ ما شفت وجهه من الصبح .

ـ وابو محمد ؟

ـ مريض .

وتهامسا ، وسأل احدهما :

ـ وابو حميد ؟

ـ لا اعرف .

ـ الم يكن في المقهى اليوم ؟

ـ ما شفته .

واراد صاحب الاسئلة الاستمرار في الكلام ، بل واصطناع القسوة ، الا ان رفيقه ضغط على يده وغمزه فخرجا . وتعالت ، بعد قليل ، انات ابي محمد من وراء الدكة: « آخ يا مغربي ، راح اموت ، يا خليل اسقني ، قلبي محروق يا خليل ، نار في قلبي ياخي » .

حمل اليه خليل الماء وقال :

ـ جماعتك رجعوا . المسألة ما نظيفة ، اين الطروسي يا ترى ؟

ـ ومن يعرف ؟ لا تشغل فكرك ، آخ ، آخ ، يا مغربي غطني يا خليل ، ضع الحصير فوقي ، عاودتني البردية ،آخ.

كان يرتجف ، ويتكوم ، ويتقلب ، ولا يني يطلب الماء .

ان الحمى تحرقه ، وانبرداء تقضقض عظامه ، وجسمه ينضح بالعرق البارد ، ويئـن انينا متصلا ، ولا يفتأ يذكـر اللـه والمغربـي، واسنانه تصر ..

وكانت الظلال تتأرجح في المقهى ، والريح تنوح علـى وجه البحر وتصفر بين الشقوق ، وكآبة تخيمعـلى الجو ، وانين ابي محمد يزيد الاشياء جهمة ،وبعض البحارة يدخنون النراكيل في الزاوية ،واربعة يلعبون «الباصرة» على ضـوء خفيف من اتنور محاط بورق ازرق ، والباب الخشبي يهتز بعنف ويبعث صريرا حادا ، وامواج البحر ترتطم بالصخـور، فيدوي هدير رعدي القرار ، وتقفز الامواج عن الصخور آتية من الاعماق ، فيتطاير الرذاذ ، ويتساقط الماء من الخيمة الـى الارض تساقطا رتيبـا .

وعاد خليل العريان الى حلقة الصيادين في اقصـى المقهى . كان قد اعد فنجانا مـن الشاي لنفسه ، واعتـدل مزاجه واصبح اكثر قابلية للكلام والسهر . ذلك انه لا يعود الى بيته الا في ساعـة متأخرة من الليل ، فقد شرب «دمعته» وتعشى وجاء ليسهر ، غير آبه لشيء سوى البحر والصيد.

وتجمع حوله بعض الصيادين ، وبعض الفتيان منالذين يعيشـون في الميناء .

كانوا يحبون خليل العريان حبا حقيقيا ، ففـي ليالـي الشتاء هذه ، حيث البرد والمطر ، تصبح حكاياته عالما سحريا يلجـون بابه مخلفين وراءهم كل واقعهم الاليم .

ولقد حاولوا الليلة ان يسمعوه فما تكلم .. بلى ..! القى بعض النكات ، ولكنه القاها عرضا ، كتعليق او ايضاح ، ثم اغمض عينيه واستمر في ترشف الشاي .. فلما فتحهما بدا الاحمرار فيهما بفعل ما شرب من العرق وفاحت رائحة كحولية منه ، وتدلت شفته السفلى كأن ارتخـاء عصبيا قـد

اصابها ، وتعثر لسانه ببعض مخارج الحروف، غير انحديثه، في حالة السكر هذه ، يصبح اكثر طلاوة وامتاعا .

لقد أقسم « برحمة بطرس » وسكت . حسبوه سيقول شيئا ، ولكنه اغمض عينيه وسكت . ليس لديه ما يقولـه ، ومع ذلك فان بطرس لا يبرح لسانه . لقد كان بطرس كـل دنياه ، وكانت السمكة الطازجة له ، والقرش الذي في جيبه لمصروفه ، وكان يبذل كل جهده لتنشئته وتعليمه ، ويقـول لجيرانه « بطرس فلتة » ، « السرتفيكا » اخذها مثل شربةالماء، وما من كلمة تعسر عليه، يعني الكلام مـا مثـل النظـر » . ودخل بطرس بعد ذلك الصفوف الثانوية ،واصبح شابا ، ثم جاءت سيارة يقودهـا فرنسي ثمل فدهسته ، ومنذ ذلك اليوم غاص ابوه في حزن قاتل ، حتى خيل الى جيرانه انـه سيجن لا محالة . كان يبكي ،ويروي قصته لكل من يلقاه ، ويجمع الازهار ويذهب الى قبره ، ويفتتح كلامـه مقسما برحمة بطرس ، وللناس ان يصدقوه عندئذ ، لان ذكرى ابنه هي الشيء المقدس في ذاتـه .

وكان خليل طويلا ، ذا انحناءة زادت مع الايام ، غليظ الشفتين ، احمر الوجه والعينين اذا شرب ، رائع الحديث عن الصيد وحياة البحر في كل وقت .

وكان احمد ، وهو فتى يعيش في الميناء ، يجلس قربه ويساعده في اعداد الطعم لصيد الغد . ولم تكن كأس الشاي قد فرغت كلها ، لانه اعتاد ترشفهـا على دفعات ، اما القهوة فيتركهـا حتى تبرد تمامـا .

وكان ابو فضل ، صياد الشبكة ، يتحدث عن «الرزق» ويشكـو :

ـ هذه المهنة لم يعد لها طعم .

ففتح خليل عينيه وقال :

ــ اي والله ، تسمرت البارحة من الصباح الى المساء، لم ياكل البوري معــي .

سال احمد :

ــ وما السبب ؟ البحر شرقي ؟

ــ لا ، كانت الريح غربية .

ــ وكيف لم يأكــل ؟

ــ حظ !

فقال صياد في آخر الزاوية :

ــ لو كنت مكانــك ! ..

واستدار خليل اليه وقال :

ــ نعم ! لو كنت مكاني ! كمل حديثك ..

ــ كملته ، انت لا تعرف الصيد .

ــ انــا ؟

ــ اي ، انت !

فهز براسه وفتح عينيه جيدا وقال :

ــ يا ابو فضل ! بشرفك ، هذا كلام رجال ؟

قال ابو فضل :

ــ اتركهم خي ، اولاد ! البحر واسع والرزق على الله ، ولكن الصيد حظ كما تقول . البارحة اخذت الشبكة ونزلت من عند الميناء حتى الخضر ولم اصطد غير ثلاثة إفراخ بوري وزنهم نصف كيلو ، فأخذتهم الى البيت ومررت على ابن بعيرة الفران ، فناولني الخبزات ولم يطلب حقهم ، عرف انني غير متوفق . اما اليوم فقد عوضها ربك . اخذت الشبكة ونزلت وراء الطابيات . هناك الماء رقراق وعكر ، فضربت الشبكة حوالي ساعة واخذت الذي فيه النصيب وطلعت ، هه(ووضع

يده على الارض وقبلها) كفاها ربك ، يوم قمح ويوم زيوان حتى ينقضي هذا العمر .

وصادق خليل قائلا : « اي نعم ،حتى ينقضي .. »

وقال بحار : « سينقضي .. لن يدوم غير وجـه ربك القيوم.دنيا لعينة ما فيها غير الشقاء ». واضاف بعد وقفة: مهنتنا انحس المهن ، علم الله لو كان الاغنياء مكاننا لانتحروا.

قــال ابو فضل :

ــ الاغنياء ينتحرون من البطر ، ما سمعتم ببنت ميلو؟

ــ هذه انتحرت لانها عاشقة ..

قالها احمد وهو يشدد على كلمة « عاشقة » ويعطيهــا نبرة خاصة في اللفظ ، فتسلم خليل الحديث وقال :

ــ برحمة بطرس سقطت قدامي في البحر . كنت بجنب الصخرة ، احمل الفانوس بيد والمطرين (١) بيد ، وعلى ظهري التنكة الفارغة ، وامامي اخطبوط ما بقي غير ان اشكه وارفعه الى التنكة ، وفجأة انشق البحر وغاب فيه جسم ، ثم ظهــر راس ، واخذ يرتفع وينخفض ، وكان شعر اسود طويل يروح ويجيء من الموج .

ــ وعندئذ خفت وهربت ..؟!

ــ انا ؟ برحمة بطرس الذي حرق قلبي ما تحركت من مكاني ! عيب على الرجال تهرب ، وليش الهرب ؟ اي البحر اعرفه منطقة منطقة وصخرة صخرة من الطابيات الى ابن هانيء ، وما اكثر الذي مر على راسك يا خليل ، ولك مرة شفت اخطبوط وزنه طن .

ــ طــن ؟

ــ نصف طــن

ــ لا !

---

(١) الحربــون .

— ربع طــن
— ما صحيــح
— ٥٠ كيلــو
— كثيــر
انفجر خليل صائحا :
— يلعن دين الذي يتكلم بحضوركم ، بجم !
أضاف :
— ولك كيلو ، نصف كيلو ، بلوط ! خاصوني ، العمى !
وضحك الحاضرون حتى سقط احمد عن كرسيه ،وقلب ما تبقى في كوب الشاي . ثم اخذوا يسترضونه وهــو لا يرضى ويقســم :
— لا والله ، ما عدت افتح فمي في هذا المقهى .
— طيب أخطبوط وزنه طن ؟ اي هذا كلام يا خليل ؟
— قلنا نصف طــن !
— اقــل
— والله لم اعد اذكر
— هه ، هذا كلم معقول .
— طيب ! احسبوه نصف كيلو ، الاخطبوط لعبة فــي البحر ؟ الاخطبوط في البحر مثل الافعى في البر ، اذا غدرك راحــت عليــك .
— والخلاصة ؟
— الخلاصة كان الاخطبوط امامي ، فرفعت المطرين ، وقربت « اللوكس » وحكمت الضربة وقلت « يا الله ! » لكن موجة بنت كلب جاءت في هذه اللحظة ، فانحرفت الضربة واصابت يد الاخطبوط فقطعتها ، فانكمش اللعين ولقطني من بطة رجلي ، والتصق فيها وراح يفرز حتى احسست شرايينها تمزقت ، ومد اصابعه على الرجل الثانية فقلت فــي نفسي « ودع الدنيا يا خليل ، يا أسفاه على شبابك ! » ولكن الروح

حلوة ياشباب ، ومن حلاوة الروح امسكت بالصخر لاخــرج فما استطعت . تسمّر الاخطبوط في الارض من جهة،وتكمش برجلي من جهة اخرى ، ولا فائدة من الشد . خطر لــي ان اصرخ، وحتى صرخت ، ولكن الدنيا شتاء ، والساحل مقفر، وانا وحيد ، فرميت المطرين وسحبت الخنجر من وسطــي (هنا صاح احمد : هاي ! هاي !)ورحت اضرب فيه حتــى تراخت اطرافه وانفكت اصابعه ، فسحبته وبعته في اليوم الثاني بيعة محرزة ، ولو لــم افعل لمص دمي واغرقني مثل ابن قويدر .. البحر ما لعبة يا شباب ! البحر غابة ، مثل غابــات افريقيا واكبر ، فيها جميــع الوحوش ، لذلــك لمــا سمعت الجسم يسقط ...
قاطعــه بحار :
— اي جســم !؟
— جسم بنت ميلو !
— هه ، رجعنا الى قصتها الآن ، طيب ، كمّل .
فتأفف خليل واغتاظ ، لكنه ، لامر ما ، تابــع حديثــه قــائــلا :
— لما سمعت الجسم يسقط تركت المطرين وهجمت .. جاهدت ربع ساعة حتى اخرجت الجثة الى البر فماذا ارى؟ بنت بثياب بيض ، كأنها في ليلة العرس . مددتها على الرمل وركضت الى المخفر وصحت « الحقوني ، غريق » ولحقوني، لكن البنت كانت اعطتكم عمرها من عزم السقطة على الصخر، لو كانت بعيدة عنه نصف متر لخلصتهــا ، برحمــة بطرس صورتها لا تفارق خيالي ، في حياتي ما شفت اجمل منها ، رحمة الله عليها ، لو خلصتها لاغتنيت . ابوها يملك الذهب بالتنكات وبنته تنتحر ! ما عجيبة هذه ؟
قال ابو فضل :
— لا تتعجب ! المال ليس كل شيء ، الاصل راحة البال.

ـ وراحة البال من اين ؟
ـ من القناعة ، القناعة كنز لا يفنى !
قال خليل :
ـ انا استغنيت عن هذا الكنز . اي العمى ! من كثرة الصبر وصلنا الى القبر .
فصاح احمد :
ـ قلنا لكم بنت ميلو انتحرت من العشق .. الا تعرفون انعشق ؟
وتوجه الى خليل العريان قائلا :
ـ اذا وقعت في العشق تنتحر ام لا يا خليل ، بشرفك؟
ـ هذه مسألة ثانية . على زماننا كانوا يتزوجون بدون عشق . انا تزوجت ام بطرس على العمياني . امي قالت عنها مليحة فقلت لها هاتيها .. لكن الايام تغيرت ، اولاد اليوم يقراون الجرايد ويذهبون الى السينما .
ـ معك حق ، السينما اصل السبب ، افسدت الشباب والبنات ، دين الذي اخترعها .
ـ ومن الذي اخترعها يا خليل ؟
سأل ابو فضل جادا :
ـ ماركو (١) باشا !
ـ ماركو باشا ؟
ـ اي نعم ، ماركو باشا لا رحمه الله .
ـ وكيف ؟
ـ اي انا مهندس حتى اعرف ؟ سمعت انه اخترعها وعتبكم على الذي فهم غير هذا ، بطرس كان يقرأ في الكتب ويذكر امامي ، وانا اسمع كلمة من هنا وكلمة من هناك واحفظ
ـ اذن بطرس هو الذي حكى لك حكايات السندباد ؟

---

(١) المقصود ماركوني ، المخترع الايطالي .

ـ لا ، هذه سمعتها من بحارة ارواد، قصص البحر كلها انا حكيتها له .
قال احمد :
ـ احك لنا واحدة منها اذن !
ـ في ليلة ثانية .
ـ الآن .. برحمة بطرس .
وصاح بعض البحارة :
ـ اي والله برحمة بطرس يا خليل ،احك ياعم .
فتمنع خليل واغمض عينيه، وعندئذ نبروا فيه وقالوا :
ـ العمى ! ليش الدلال ؟ قلنا لك احك فاحك ، الدنيا شتاء ومطر،والحكايات مخلوقة للشتاء وها ابو محمد شفي .
كان ابو محمد قد نهض يتوكأ على الجدار ،فأسرع احمد وناوله الابريق ، واقترح عليه ابوفضل ان يغسل راسه بالماء البارد ، واعد له خليل كوبا من الشاي .
.. وعند منتصف الليل انصرف الجميع ، فأطفأ خليل الضوء وراءه وانصرف ، وغمرت المقهى على الفور ظلمة دامسة .

١٢

عاد الطروسي الى المقهى في ساعة متأخرة من الليل .

كان الهواء شديدا يكاد يحمله ويلقيه عن الصخور ، وروح مجنونة تهيم مولولة في الفضاء ، تعبث بكل شيء وتستثير معها كل شيء : الريح والمطر والرعد والبرق وموج البحر .

وقال الطروسي وهو يرسل بصره في الابعاد فلا يرى شيئا بسبب الظلمة « ما أفظع هذه النوية ،ترى مَن من الاولاد في البحر الآن ؟ »

وجاء الجواب ارتجاجا عظيما حسب ان الصخور التي تحته تشققت لهوله ، وومض البرق في اقصى صفحة البحر، فراى خيولا مائية تحمحم وتركض جامحة ، ورغاء ابيض يفور على اشداقها وهي تصهل وتزأر ، وآلاف من الكتل الموجية ذات المناكب الثلجية تتدحرج واحدة اثر اخرى ،وتنجدل وتندغم وتتوالد من جديد ، وتتجه كلها الى الشاطىء وترتطم به وتفنى عليه .

حدق في السماء فلم ير نجما واحدا فيها ،بل لم ير السماء ذاتها لكثرة ما حجبتها الغيوم الدكن .ومن الاطراف الاربعة كانت الظلمة تطبق على كل كائن ، وهدير شديد يتصاعد من البحر ، وينبعث من الصخر ، ويتساقط من السماء ، ومطر يهطل رذاذا كأنه تعب من الانصباب فتوقف ريثما يستريح .

وحين فتح الباب تنازعته الريح ، لكنه استطاع اغلاقه بعد لأي ودخل المقهى ماسحا الماء عن وجهه وكتفيه ، ثم خلع سترته وشرواله المبللين ولبس غنبازه .

لم يكن يشعر بانزعاج ،بل لم يكن وجهه يحمل اي تعبير يدل على استغراب او تأفف . انه واحد من هذه الكائنات التي تعيش في دوامة الاعصار الآن . الارض تثور ، والسماء تثور ، والبحر يثور ،وهو يشهد هذه الثورة التي رآها مرات لا عدد لها ، والفها واحبها واطمأن اليها .

اشعل الضوء بهدوء وقال في نفسه :« فنجان القهوة والسيكارة يساويان ليرتين عثمانيتين» ثم اتجه الى«الوجاق»، ومر بالدكة فوجد ابا محمد قد افاق وان في فراشه ، وعندئذ ادرك ان الرجل يشكو اليه تغيبه ،فاجتاحه شعور حقيقي بالندم « كيف تركته الى هذا الوقت ؟ ولماذا لا التفت الى المقهى كما يجب ؟ يا ام حسن ، سامحك الله ، مرة اخرى وقعت يا طروسي ، انتبه الى شغلك ،انتبه ! »

حاكم نفسه ، وعاتبها ،وتساءل،ولام، ودافع اللوم ، حتى انتهى من اعداد القهوة له والشاي لابي محمد ، فحملهما وذهب اليه ، ولما جلس هذا في فراشه وجه اليه هذه الملاحظة:

— ما راح تطيب حتى تعمل بنصيحتي !»

— ما عندي نفس يا ابو زهدي .

— اذن مت .

قالها بلهجة العتب اكثر منها بلهجة القصد . وكانت نصيحته تتلخص بما يلي « مدقة عرق زهرة وجرن فليفلة حمراء بدون خبز ، ونوم دافيء حتى يعرق الجسم وتروح البردية ، وهات يا صحة وهات يا أكل ».

قال ابو محمد :

— مدقة العرق نشربها ولو كان فيها سم ، اما جرن

الفليفلة الحمراء ... وبدون خبز ؟ مـاذا لو وضعت معهـا حفنـة برغـل ؟

ـ لا ، فليفلة خالصة يا ابو محمد ، اسمع مني .

ولم يسمع منه ، فاغتاظ الطروسي وقال شامتا :

ـ مت اذن ، والله كل طب الدنيا عندي بنحاسة ، انا طبيب ونص ، قال اطباء قال !

لوى ابو محمد رأسه بعجز تام ولم يقل شيئا :«سأجرب ما يقوله الطروسي غدا » قال ذلك في ذات نفسه وعاد فتكوم في فراشه ونام . وقام الطروسي الى الضوء فأطفأه ،وجلس على كرسي ومضى يدخن سيكارته .

***

فكر بالعاصفة والصيادين وقال « نصحتهم فما سمعوا النصح ، قلت لهم اليوم « فرتونة » فـلا تبحروا ، وقلت لهم بكروا بالعودة ، ولكن مع من تتكلم؟ولك عكاريت ! عكاريت ! وابن الجمل هذا ؟ تفو ، رجلي هذه بألف صياد مثله . قلت له انتبه فقال « لا تخف ،انا ملك البحر !» تأملوا ملك البحـر هذا ! اي البحر له ملك ؟ هو نفسه ملك ، بل هو ملك الملوك! قضيت عمري في البحر وما تجرأت على التلفظ بكلمة مثلها . قلت له البحر هو البحر يا ابني فلا تستهن به ، البحر ملك ، وفي الدنيا ملوك ثلاثة : ملك الماءوملك النار وملـك الهواء ، ورحمة الله على والدي الذي كان يقول : احذر غدر النـار والماء والنسـاء ، لكـن ابن الجمل لم يقتنع وابحر ، وها هي الفرتونة ، وعلى رجلي اذا لم يعد ،بداهية ، اذا مات فلا رده الله ، ولكن البحارة الذين معه ، اللهم لطفك ، اللهم لطفك يـا رب ! »

نهض الى الباب ونظر : كـان البحر يهـدر ، والموج يتدحرج ، والريح تصفر ، والمطر يهطـل ، ووحشة تحيط بالشاطىءفتبعث فيجسم الواقف على البر قشعريرة الخوف.

عاد الى كرسيه واشعل سيكارة. لم يكن يشتهي النوم. ان فكره هناك ، مع الذين ابحروا ، أين هم الآن ؟ وهل عادوا في المساء يا تـرى ؟

تصور حالهم في هذه الساعة وهتف في ذاته « انهـم ومراكبهم في البحر ، كالفئران امام القطط ، تلاعبهـا حتى الموت ، ثم تنقض عليها وتأكلها ، وغدا او بعده يلفظ البحـر الجثث ، وتضحك ملكة البحر ، وتأمر العاصفة ان تهدأ لان حفلة زواجهـا قد تمت » .

لماذا يتذكر هذه القصة كلما شاهد عاصفة ؟ انه لا يؤمن بها لانها اسطورة ، وهو لا يدري في اي كتاب قراها لـه بحار مغرم بقراءة الكتب . لقد سمعها ونسيها ، ولكنه ما ان يرى العاصفة حتى يذكرها ويظل يذكرها كأنما حفرت في راسه حفـرا .

فرك جبهته واغمض عينيه. انه لا يذكر الكلمات بالضبط، ولكنه يتخيل الحكاية وكأنها تجري امامه.تقول الاسطورة :

« في اللجة البعيدة ، حيث تثور العاصفة وترقص جيوش الريح يتزوج ملك البحر، المـــاء ينشق ويظهر الملـك اولا ليجلس على موجة جاءت وحنت له ظهرها باحترام .ثم تظهر الملكة بين صفين من عرائس البحر، فتأتي وتجلس الـى جانبه وتختفي بعد ذلك العرائس.الملكة جميلة ليس كجمالها علـى الارض ، والملك جبار ليس كجبروته في البحر ،فما ان تقبل عروسه حتى ينظر الى الكون نظرة ارتياح ، ويرسل بصره في الابعاد ليرى الى البحارة اسرى في قبضة الموج ، او صرعى تحت اقدام العاصفة ، ثم يومىء الى مستقبليه من ملوكالريح والمطر والنار ان اذهبوا . وتنظر عروس البحر فيما حولها نظرة اغتباط وتقول :« شكرا لك ايتها العاصفة .. رقصتك كانت جميلة ، عنيفة كما يحبها الملك ، مثيرة كما اشتهيها انا ، منتقمة كما يريدها سدنة المعبد » .

ويهدأ من حولهما كل شيء، وتلتفت عروس البحر الى حبيبها ، الى الملك الجالس قربها،وتغمس نظراتها في زرقـة عينيه ، وترتعش شفتها السفلى،وتختلج قسمات وجهها ، فيسألها الملك:« ما بك يا حبيبتي ؟ ما هذا الشحوب علـى وجهك ؟ هل انت مريضة ؟» وتقول الملكة « لست مريضة يا حبيبي ، ليس بي شيء » ولكنها تظل شاحبة ، ونداء يتصاعد من جسدها ويتشهى على شفتيها :« قم بنا الى النـوم ، قم بنا الى الفراش » لكن الملك لا يبرح مكانه . انه لا يريد ان ينام ، ولماذا ينام ؟ « اخلعي، يا مليكتي ، ثيابك ، ودعـي الموج يعمدك بالزبد » وتخلع الملكة ثيابها ، قطعة قطعة ، وتتوقف ، وتشير الى بعيد : « انظر يا مليكي الى الشاطيء ، ان رجلا يقترب منا . انه قادم من مملكة الارض ليدنس مملكة البحر، وانا خائفة ، خائفة جدا .خذني اليك ، ضمني الى صدرك، اضغط علي ،اكثر، اكثر ،اقول اكثر، احمني من انسان الارض هذا ، لا تدعه يقترب مني فان انفاسه تحرقني ، مر الموج ان يحطم شراعه ، مر العاصفة ان تصرع بحارته ، انتقم لي منه فقـد خانني ، وعذبني » .

ويبتسم ملك البحر ولا يبالي « من هو انسان الارض هذا ؟ انه مخلوق ضعيف فلا تأبهي له،دعي الامواج تداعبـه وتصرعه ، دعيهـا تقضي لبانتها في يوم لبانتنا .»

وتجيب الملكة وهي تتمطى « هو ضعيف لكنه جبار ، لا تدعه يقترب مني فسيقتلني مرة اخرى . ان لـه ثأرا قديما معي يا حبيبي.لقد عرفته فأحببته ،ثم خانني فانتقمت منه. لهوت بالصيادين ففتنتهم ، جعلتهم عبيدا في مملكتي لا يبرحون شاطئها ، وعبثت بالبحارة فأغريتهم بالسفر وفتحت تحت اقدامهم اللجة فغاصوا في قاعها . اتيت كل ضروب الانتقام ولمـا اثأر لنفسي بعد » .

ويقول الملك : « لا تخافيه يا مليكتي فسآسره واقتـل

بحارته . كل من في البحر يهابني وكل من في البر يخافني ، فماذا ترهبين ؟ دعيه يقترب، من الهاوية ،انه فراشة تحوم حول الضوء،وقد رايته وتركته لالهو به . سأصرعه امامك ، واجعل من دمه حناء لقدميك . ستأتي به الريح على كف النوء محطم الذراعين ، ويجعله الموج شلوا في اشداق الزبـد ، ويدوي الرعد في اذنيه فينخلع قلبه من الهـــول ، وينذره البرق فيستسلم للعاصفة التي تقوده الى مذبـــح المعبد .قربانا للآلهة، وبعد ذلك يطرحه الاعصار طعاما للاسماك فتأكل عينيه، ويلفظه الماء المقدس جيفة لغربان الساحل . اقتربـي منـي يا حبيبتي ولا تخافي ،ضعي راسك على صدري،ارفعي ذراعك فوق كتفي ، اية ذراع هذه ؟ انها من العاج المورد ، ارفعيها اكثر ، دعيني ارى ابطك ، دعيني اقبل ابطك ، دعيني اقبل كتفك ، ماذا بك ؟ ما هذا القلق في عينيك ؟ اجيبي » .

وتجيب الملكة : « كل ما تقوله حق يا حبيبي . كله حق وصدق . . انهم يخافونك،ويرهبون عاصفتك ، ويسجدون لك، ويضربون صدورهم رجاء ومسكنة امام جبروتك ، انهم ضعاف وانت وحدك القوي،انت وحدك القادر، فما ان تتمطى اصلابك، وتنفث الهواء رئتاك ، حتى يذيب الذعر رعاياك ، فيهربوا من وجهك الى الشقوق والكهوف ، يهربون كلهم : من البزرة الـى الحوت ، من الصدفة الى شجرة دم يوسف (١) من السمكة الطائرة الى السرطان الزاحف ، من الاخطبوط الى الشبوط ، كلهم سواء في خوفك والسجود لك ، وكذلك ناس الارض. انهم يتحدثونك وانت هاديء، ويتجرأون عليك وانت وادع ، فاذا ثرت وعصفت ، وامسكت كفك القادرة بأشرعتهم الواهية،

---

(١) شجرة بحرية ذات جذع واغصان ، صدفية ، مخرمة حمراء اللون، صخرية البدن ، اذا اصطدمت بها السفن تصدعت ، تكثر في البحر الاحمر ويخافها ربابنة السفن كما يقول البحارة .

سجدوا وتضرعوا وانتحبوا ، لكن ضعفهم خادع فلا تصدقهم، انهم اقوياء وانا اعرفهم ، لقد تجولت في مملكتكم كثيرا ... الست ابنة كبير وزرائك واخلص قوادك ؟ الم تقل لي :«اذهبي حيث شئت فاني معيدك الى ذراعي ساعة اشاء ؟ » لقد ذهبت فتجولت ، عرفت مملكتك كلها ورعاياك كلهم . صعدت الجبال وهبطت الوديان وطفت الغابات واجتزت السهوب . قطفت الورود ذات الالوان وشممت عطرها المسكر . شاهدت البحر الذي حصاه من لؤلؤ ورماله من ماس . ابصرت الحوت يبتلع السردين والقرش يزدرد الدلفين ، والسمك يطير ، وعرائس البحر ترقص ، والعبيد يسجدون ، والاحرار يثورون . شهدت الحروب بين البحر الابيض والبحرالاسود، وركبت فرس الماء التي هي اجمل الافراس ، ومللت القاع فخرجت الى السطح حيث رايت السفن فتبعتها ، والمراكب فقلبتها ، والشاطىء فسلبت عقول صياديه ، والعاصفة فرقصت في قلبها حتى اتعبتها ولم اتعب ، ثم ابتسمت للشمس فانكسفت ، وتعريت في ضوء القمر فانبهر القمر واغمض عينيه ، فلطمته على عينه وقلعتها ، (*) لاني لا احب الذين تنبهر عيونهم . وكشفت مفاتني للموج فبكى وتشنج وارغى وازبد ومد لسانه الى اليابسة فجاءني بالهدايا ،لكنني رفضت هداياه ، لانـي لا احب الذين يبكون . وغازلني الليل فقلت له اقطف لي من حديقتك نجمين ، فتلعثم واجاب « النجوم عيوني فهل اقلعها ؟؟ » فتناولت حفنة ماء ورشقته بها فكان الندى . انني اشتهي الليل لانه يثيرني، وامقته لان الذي لا يقلع عينيه كرمى لحبيبته لا يستحق ان تكون له حبيبة. وسبحت بين الغيوم ، بينما الضباب على وجه القمر ، وقلت

(*) هناك اعتقاد شعبي ان القمر اعور ، بسبب التضاريس التي تظهر على وجهه .

لها : يا غيوم ابتسمي فقالت « اعتدت العبوس فانى لي الابتسام ؟ » ونفخت عليها وبددتها لان الارادة هي التي تصنع الفرح والحزن ، ومن لا يبتسم في قلب احزانه يكن فريسة للاحزان . وركبت متن الريح بينما العاصفة تهب على البحر وقلت لها : « اقلعي لي شجرة من ارز لبنان لاغرسها في جبال البحر » فناحت الريح وقالت «هذا ارز الرب وجذوره عميقة في الارض فكيف اقتلعها ؟» ولقد اعجبت بحكمة الريح وهزئت من قلة ثقتها بنفسها . وقلت للرعد : « صمت ابي الهول ابلغ من جعجعتك ، فاذا كنت قادرا فانطقه او حطمه بصواعقك . اهدم الهرم الاكبر ليأتي السيل فيحمل الي الصوان على خشب الابنوس مع طوفان النيل،فعجز الرعد واستكان ، ثم انتحر وانفجر فكان البرق . ولقد احببت البرق ، لكنه ، واسفاه ، سريع الالتماع سريع الانطفاء عاقر كالسراب ، وانا احب ان اخصب منك . ولكن اسمع ! انصت : انسان الارض يقترب يا حبيبي ، فما انت صانع به ؟ العاصفة ؟هل امرت العاصفة؟»

« والتقت عينا الملكة بعيني الملك.. ما هذا القلق الذي نبت فيهما ؟» ما لك يا حبيبي ؟ لماذا لا تجيب ، لماذا لا تأمر العاصفة ؟ »

— لقد امرتها . العاصفة مستمرة في كل مكان الا في المكان الذي نحن فيه !»

— وكيف قهرها !؟ كيف اخترق اسوارها !؟ كيف تحدى جبروتها ! ؟ قم بنا الى الاعماق ، اسرع ، اسرع ، اطلق التيار المجنون ، مر الهواء والماء والبرق ،مرهم ان يصرعوه ، ان يردموه بجبال الموج ، مرهم ان يمزقوا شراعه ويحطموا ساريته ويكسروا مجاذيفه ويبددوا مركبه . لقد انشق الماء فانظر الى رعاياك في مملكة البحر ، قم وجندهم ، استنفر امراء البحر وقادة الجيوش،اذهب فقاتل ودعني هنا يا حبيبي،

لم اعد اخاف ، اعرف هذا القادم ، اعرف انسان الارض ، اعرفــه ، و . . . »

وذهب الملك ، وثار البحر ، وانفتح الفور ، وتسعرت الريح ، وظل انسان الارض يتقدم .. وظلت الملكة فوق الموجة تنظر اليه :« ها هو ، انني اراه ،أراه جيدا ، كم هو جميل انسان الارض هذا ! كم هو قوي ! انه يقف وراء الدفة مبللا، ممزق الثياب ، مشعث الشعر ، مفتول العضل . ان المــوج يضربه، والريح تلطمه ، والماء يقطر منه منسابا كجداول من فضة . لقد انشق البحر ، حبيبي هو الذي شقه . الشراع يهوي الى القاع ، لقد انتصر مليكي .. ولكن لا ، الشراع يصعد ثانيــة ، لقد اصبح على جبل ومن تحتــه هاويــة ، حبيبي رفعه ، رفعه بقوة ، وسيقذف به بقوة . الشراع يترنــح، يتهاوى ، سيغور في القاع ، ولكنه يصعد من القاع ، كيف ؟ يا لك من عنيد ايها الواقف على الدفة! يا لك من شجاع ! يا لك من بحار ! ولكنك لن تنتصر على مليكي . يا رياح مزقي ثوبه، اجلدي وجهه ، حطمي الساعدين ، حطمي الدفة . ايها الرعد اثقب اذنيه ، ايها المطر افقأ عينيه ، ايتهــا العاصفة اقضــي عليــه . . . »

وتنمرت العاصفة ، وتفجرت ، وزأرت ، وولولت .. ولم يشعر الطروسي بها ، ولا عرف مصيرها . كــان قــد اسند راسه الى الجدار ، واغفى وهو يفكر بالاسطورة التــي رواهــا لــه البحار .

١٣

ـ ابو زهدي ! ابو زهدي !
ـ اللــه
ـ قم ، اي ما وجعتك رقبتك ، كيف نمت على الكرسي؟
ـ اتكأت فنمت ، كم الساعة الآن ؟
ـ طلعت الشمس !

تمطى الطروسي فطقطق عموده الفقري،وحاول النهوض فلم يجد قابلية ، فانزل قدميه عن اصبع الكرسي ، وفــرك صدغيه ،واغمض عينيه الحمراوين بعد ان طلب فنجانا من القهــوة .

وبادر ابو محمد لاعداد القهوة دون ان يسأله شيئا. ولماذا الاسئلة ما دامت تبقى بغير جواب؟اين كنت؟ولماذا تأخرت ؟ وكيف خرجت في هذا الجو ؟ لقد القاها ابو محمد كثيرا ، وصمت عنها الطروسي كثيرا، فما فائدة القائها من جديد ؟ ان فنجان القهوة يجدي اكثر من كل النصائح والملامات،وهذا ما تعلمه خلال عشرتهما الطويلة .

كانا ، كلاهما ،معكري المزاج هذا الصباح .ابو محمد قاسم بن مصطفى خيــاط النعــل ، وحسن بن محمد زهدي الطروســي .

حلم قاسم بابنه محمد ، بالمرحوم الذي مات مسلولا في طرطوس ، وحلم الطروسي بالبحر والمنصورة والعاصفــة ومعركته مع ابن برو . ولم تكن احلامهما واضحة،انها اضغاث

احلام ولدتها مخليتان مكدودتان لانسانين متباينين .

فتح ابو محمد الباب فغمر الضوء المقهى كله ، وشق الطروسي عينيه فراي البحر قد سكن بعد هياج ، والارض تضحك للسماء ، والطقس الجميل يفيض نورا وغبطة وهدوءا ، وتذكر الاسطورة فقال « تعبت العاصفة ونام البحر » ثم خطر له هذا السؤال :« من الذي انتصر يا ترى : الانسان ام البحر؟» ولم يقطع براي ، حمل فنجان القهوة وخرج الى الصخرة الكبيرة وجلس في الشمس ينشد الدفء وينعم بالهدوء والدعة وحلاوة الصباح .

الصخور نظيفة تتألق تحت الشمس ،وتستحم بفيض من اشعتها ، والموج كليل خائر يجر نفسه الى الشاطىء فيتكسر عليه ، وطيور النورس البيضاء التي كانت تصيء مذعورة لهول العاصفة امس تطير آمنة مطمئنة اليوم ، والبحارة نزلوا الى مراكبهم وفلائكهم يصلحون ما افسدته الريح والموج ، وبعض الصيادين قد خرج في طلب الصيد ، وفرحة تغمر الكون ، والق قدسي ساحر ينور الدنيا كعهده دائما بعد العاصفة .

وبدأ الزبائن يتوافدون : منهم من حمل شباكه ليصلحها ، ومنهم من جاء يشرب القهوة قبل ان ينزل الى الميناء ، ومنهم من اخذ قصبته وصنارته وتيسر ، وفريق آخر جلس في المقهى لانه اعتاد ان يجلس فيه حين لا يكون لديه عمل ولا سفر .

وجاء خليل العريان ايضا :« راحت السكرة وجاءت الفكرة » واستأنف الركض وراء اللقمة . سأل : اين الطعم ؟ كيف اصبحت ابو محمد ؟ كانت عيناه منتفختين ،شأن مخمور صحا بعد نوم عميق ، وكان شعره مشعثا مبللا ، فشرب قهوته وحمل قصبته وصنارته وسلة الطعم الصغيرة ومضى الى الشاطىء .

وبدات الحياة تأخذ طابعها المعتاد ، وعلت قرقرة

النراكيل ، وسمعت مصمصة الشفاه وهي تترشف القهوة والشاي . ومر بائع « السحلب » في موعده ، وانعقد الدخان في جو المقهى ، ودارت الاحاديث وازداد اللغط ، وتداخلت الاصوات ، ثم صعد احمد الصخور فما كاد يضع رجله في باب المقهى حتى نادى اللاعبين قائلا « قوموا نركب الباصرة » ونظر اليه ابو محمد مشفقا « جاء الشقي وستبدا الضجة والمماحكات الآن » .

حوالي الساعة العاشرة عاد رجال الامن للمرة الثالثة ، فقام الطروسي وسألهم :

ـ نعم ، أمر !

ـ زيارة ، هل ترفض الزوّار ؟ زبائن . .

ـ زبائن على راسي ، المقهى مفتوح ، ولكن الزيارات ليس وقتها ، الحرب نشفت السوق ، ولم يبق غير الجرب والموت واولاد الكلب . .

وضحك رجال الامن . كان الجرب قد عم المدينة فعلا ، والدواء الموصوف له هو القطران والكبريت وماء البحر ، وكانت العدوى قد انتقلت مع الجيوش الفرنسية والانكليزية ، الا ان بعض الناس كانوا يقولون « سبب الجرب سوء الغذاء وقلة السكر » ويجيب الآخرون « السبب ،اولا واخيرا ، اولاد الكلب ، هؤلاء . . »

قال رجال الامن :

ـ جئنا امس فلم نجدك .

ـ لو علمت بتشريفكم نمت في المقهى !

ـ لا داعي لذلك . . لدينا سؤال ونريد جوابه .

ـ تفضلوا ! قولوا !

لم يقولوا بصراحة ، وزاد احدهم فعمد الى طريقة الاستدراج :

ـ كيف الشغل في هذه الايام ؟

ـ الحمد للـــه .
ـ اظن انه يتحسن في الليـــل !
نظر اليه الطروسي وتوقف عن لف سيكارته ، ثم رمقه بنظرة استنكــار وقال :
ـ ماذا تقصد ؟
ـ لا شيء ، سؤال ، حرام السؤال ؟
ـ لا ، ولكن سؤالك لم يعجبني ، ليش اللفوالدوران، قصدكـم ؟
ـ قصدنا نسألك عن ابي حميد ، هل يأتي الى المقهى فــي الليـــــل ؟
ـ سؤالكم بأي معنى ؟
ـ بمعنى الصداقة .
ـ لن اقول .
ـ باسم الوظيفـــة .
ـ لن اقول ايضا ، خذوني الى المخفر .
ارتبك رجال الامــن وقالوا :
ـ المسألة ما وصلت الى هذا الحد يا ابو زهــــدي ، سؤال وجوابــه : يأتي أم لا يأتي ؟
ـ لا اعرف .
ـ شكــرا
ـ مع السلامـــة .
وخرجوا غير راضين .هم يعرفــون الا فائــدة مــن الطروسي ، وانهم لن يربحوا الا عداوته ،لذلــك يتجنبون الاحتكاك به ، فاذا ما احتاجوا الى مراقبة احد في مقهاه ، فعلوا ذلك بحذر شديد ، زاعمين انهم يأتون اليه كاصدقاء ، لكنه لا يحفل بهم لايمانه « ان الحيـــة لا توضع في العب ».
وكان ابو محمد لا يتحدث بشيء عما يرى ويسمع .وقد نصحه خليل العريان بأن يمسك حرف الميم دائما « ما بعرف »

فعمل بهذه النصيحـــة جيدا ،وكان يحيل كل صاحب قضية الى الطروسي قائلا « هو المعلم لا أنا » .
ولما استفسر عن سبب مجيء رجال الامن ، قــال له الطروســـي :
ـ اذهب الى ابي حميد وقل له كلم.. الجماعةعرفوا..
وتوقف عن اتمام الجملة واضاف :
ـ اذا قلت له هذا يفهم ما اريد ، واذا عادوا في غيابي فلا ترد عليهم . هذا مقهى الطروسي ما مقهى ابن آمنة !
وجلس قرب دكة المقهى ولف سيكارة جديدة وفكر :لن يستطيع ابو حميد بعد اليوم سماع برلين في المقهى ! فمــن وشـــى بـــي يا تـــرى ؟
وعلت ضربة على احدى الطاولات في زاويـــة المقهى ، فصـــاح الطروســـي :
لا تخبطوا ايديكم بهذا الشكل ، اي العمى ،لا يمكنكم اللعب بدون الضرب على الطاولات ؟
ـ حلاوة « الباصرة » ان تضرب يدك وانت تأخذهـــا يا ابـــو زهـــدي !
قالها احمد ضاحكا ، هارشا براسه ، فقد كان حظــه مؤاتيا اليوم ، غير ان وجود الطروسي في المقهى حال دون الشيطنة والعراك كالمعتاد .
وفي مكان قرب الباب ،حيث النور أقوى ، جلس عبد الجبار زبيبه يصلح شبكته ويتحدث عن « اهل حلب الذيــن يعيشون بلا بحر ، ويأتون الى اللاذقية فيظنون البحر نهر قويق ، ويلقون بأنفسهم فيه ولا يطلعون » .
ومهد لحديثه بهذه الملاحظة : الحادث الذي سأرويــه شـــاهدتـــه بنفسي :
ـ بنفسك ؟ ساله صياد يجلس قربه .
ـ نعم بنفسي ! كنت ، يا عزيز السلامة ، اصطاد وراء

الطابيات في ثالث ايام العيد ، وجاءت سيارة من اهل حلب للسباحـة هناك لان الماء رقراق على الرمل .

وتوقف وسب الدين فجأة لان خيط الشبكة انعقد ،وبعد ان حله واستأنف رتق الشبكـة بمكوك خشبي قال : نزلوا ، يا عزيز السلامة ، كلهم الى البحر ،ركضوا بدون وعي،وبداوا يتخبطون بأيديهم وارجلهم ويلعبون . ومضى الوقت وهـم يسبحون حتى نسيت وجودهم ، ثم سمعتهم يصيحـون ويولولون ، ويشيرون الى نقطة في البحر . اي علم الله كانوا يقوقئون مثل الدجاج ، ولا واحد منهم يجرؤ علـى انقـاذ الغريق . وانا ، يا عزيز السلامة ، بعيد ، ومع ذلك حملت الشبكة بيد ، وسلة السمك بيد ، ووضعت ثيابي تحت باطي . .

قاطعه الطروسي قائلا :

ــ الله لا يعطيك العافية على هذه الهمة . العمى ، اترك الشبكة واركض ، ولك الرجل يغرق وانت ناطر الشبكـة ؟ اي حاسبه سمكه او كلب بحر ؟

ــ ما راح كمل الحديث !؟

فضحك السامعون وقالوا :

ــ طيب ، طيب ، كمل الحديث .

ــ بلا طول سيرة . تركت الشبكة والسلة على الرمل، ونزلت اركض في البحر . كان الماء ضحلا حتى الركبة ، وان ما اعتدت السباحة في الماء الضحل ، لذلك تقدمت ماشيا ، ومع ذلك ظل الماء ضحلا ، فتأملوا ، بالله عليكم ، هل يمكن ان يغرق انسان في هذا الماء ؟ (وابدى الصيادون الدهشة وتابع هو قائلا :) الخلاصة كان الغريق ينزل ويطلع ، وانا اصيح : لا تخف ، لحقتك هه ، جلّس حالك ، جلس حالك ، وهـو يغطس ويعوم . . كان المسكين من حلب ،واهل حلب مـا شافوا البحر في حياتهم ما عندهم غير نهر قويق وانـا ، ياعزيز السلامة ، اصطدت في نهـر قويق ، صدقوني يـا

جماعة ما في نهـر في سورية ولبنان وفلسطين الا عرفتـه واصطدت فيه ، و . . . .

وتململ الطروسي في مقعده وقال :

ــ ولك يخرب بيتك يا عبيد ، اي وصلنا الى الفريق ، نحن اين وانت اين ، كنت في شيء وصرت في شيء ، خبرنا عن الرجل مات والا عاش ؟

ــ مات يا عزيز السلامة .

ــ الله لا يسلمك اذن ! ولك انت صياد انت ؟ قدامك رجل يغرق وانت واقف؟آخ على الرجال،كنت خلصته باسناني.

وضحك الحاضرون من جديد ، ونهض هو عن كرسيه لغير ما سبب . لقد اثارته القصة ، واستشعر حاجة الى الحركة فخرج من المقهى ومضى نحو الصخور . ثم عاد وجعل يفكر برجال الامن وقد استحال ظنه الى يقين ، فأسر فـي نفسه « هذه فعلته ! نعم فعلة ابي رشيد !»

لقد نسي الآن ، او كاد ، حادث ابن برو ، وامل ان يكف عنه ابو رشيد ، واعتزم ، بدوره، ان يقلل من تدخله في الميناء، ولكن ها هو مشكل آخر يعترضه ، وها هو ابو رشيد يثير المشاكـل في وجهه من جديد .

كان من دابه ان يثبت لمثل هذه المضايقات ، ولشد مـا جابه في حياته صنوفا منها ، فاذا اقبلت بادرها بمـا ملك من عزم ، واذا ادبرت نسيها وانصرف الى شأنه ، الا ان يكـون مغلوبا ، وعندئذ يكون للامر وجه آخر .

وفي معركته مع ابن برو كـان غالبا . يكفيه انه تحدى سكينه ومسدسه والقاه في البحر ، ولو شاء لالقى بنفسه وراءه ، وهناك ، في الماء ، ماذا يفعل ابن برو في الماء ، في البحر ، فـي مملكة الطروسي ؟

اذن لقد انتصر . اثبت وجوده ، وانتزع حق البقاء في البطرنة . وخيل اليه ان في استطاعته ان يقيم مطمئنا حيث هو فقال في نفسه « اذا لحقت بكل ساقط للثأر منه ،تنغص عيشـــي الى الابد . يكفي ان ابعدهم عن هذا المكان ، وليذهب ابـن برو وامثاله الى جهنـــم » .

وتنسم الهواء ملء رئتيه ، واطلقه زفرة حرى مديدة ، وما كاد يفعل ذلك حتى لاح له في باب المقهى سليم الرحموني، فنهض صائحـــا :

ــ اهلا بالريس سليم ..

وجاءت كف الرحموني على كتفه مصحوبة بهذا القسم:

ــ والله لا تتحرك .

ــ لاجل خاطرك ريسنا ..

ــ تسلم يا ابو زهدي ، حفظ الله خاطرك واعزك ؛هات بوسة من شواربك ، هه (وقبله) وصلت الآن مـــن السفر فسمعت القصة في الميناء ، وحلفت ان امر عليك وابوسك . قال لي البحارة :« الطروسي أدّب ابن برو على كيفك » فلم استغرب ، الريس ريس في البحر ام في البر .

ــ العفو ريسنا ، ابن برو لا يستحق الذكر،ولكنه يتعنتر في الميناء ، ويكفيهـــا ما تحملت منه ، نريد الخلاص ياريس.

ــ منه ام من الذي دفعه ؟

ــ الذي دفعه لن يخلد ، لكل ظالم نهاية .

ــ على كل انت بدات ، ضربتك شجعت البحارة ؛ولكنك ستتعرّض للمتاعب بعد اليوم .

ــ المتاعب بدات منذ اليوم .

ــ كيف ؟ قالها باشفاق واهتمام .

ــ رجال الامن يضايقونني .

ــ ولماذا ؟ هل اشتبهوا بشيء ؟

ــ عرفوا اننا نسمع برلين في الليل

ــ وماذا قالـــوا ؟

ــ جاءوا يجسون النبض ويسألون ..

ــ عنـــك ؟

ــ لا ، عن ابي حميد .

ــ وماذا تنـــوي ؟

ــ ارسلت اليه ابا محمد ، وسأخبره بالامر ليحتاط .

ــ وهل تحسبهم مدفوعين من احد ؟

ــ وهل يحتاج هذا الى سؤال ؟

١٤

كان سوق البازار عامرا في ساعات الصباح هذه . ففيه تلتقي المدينة بالقرية ، وفيه تحتال المدينة على القرية ، فتباع الخضار بالجملة الى البقالين والبائعين ، ويقوم هؤلاءبدورهم ببيعهـا بالمفرق الى السكان .

وعلى انه للخضر ، فهو لكل شيء ايضا . ساحته فقط للخضر ، اما الحوانيت عن جانبيه فحافلة بكل حاجـات الفلاحين . وبسبب من ضيق الساحة ووفرة الخضر ، وكون دواب وعربات النقل كثيرة ، والمتفرجين والمتشردين والحمالين يفوقون البائعين والشارين ، فقد كان الازدحام شديدا، وينبغي للمرء ان يبذل من الجهد لشق طريقه ما يفوق جهده لشراء اي من سلعه . وكان الازدحام يزيد الضجيج ، والضجيج يضاعف الازدحام، والمساومة تعرقل البيع والشراء، والذباب يلسع الناس ، والاصوات تتعالى مدفوعة بكل هـذه العوامل ، فتغدو الساحة ، من الصباح حتى الظهر ، ساحة معركة ، ولربمـا خدع بها الغريب المار في المدينة فحسبها اجتماعـا فوضويـا يعقد على مقربة من البلدية .

وكان سوق الحدادين يتفرع عن سوق الخضار ، وينزوي في زقاق ضيق قذر غاية القذارة ، تعلوه قناطر كهفية قديمة ، واطئة ، وتتخلله زوايـا موحلة معتمة ، وتقوم تحت القناطر دكاكين الحدادين واللحامين وباعة المقادم والكوارع والمعاليق والشحم واللحم والفضلات والنترات والدرنات والمصارين والكروش .

ان احدا لا يعرف من زرع اللحامين بين الحدادين . لعلها المصادفة ، او لعله التكون العفوي للمدينة ، او وجود القرويين في البازار ، ومهما يكن من امر فقد كان وجودهما شاذا ، ووضعهما شاذا كذلك ، كالاسواق القميئة المحيطة بالساحة ، وكالساحة نفسها . وكان سوق الحدادين ــ اللحامين بالغ السوء ، متعرجا ، موحلا ، موبوءا . فالسخام يعلو الجدران ويسود السقوف ، ويعشش العنكبوت تحت القناطر ، وينعقد الدخان الكثيف المتصاعد من اكوار الحدادين ومواقد اللحامين في جو الزقاق فتبدو ، اذا ما كانت الشمس مشرقة ، سحب ضبابية من غبار الحديد والصفوة ودخان الفحم واللحم ، تسد الزقاق سدا، ولا مندوحة لمن يجتازه من اختراق هذه السحب التي تنقلب حوالي الظهر الى غيوم سود قـذرة ، وتتخمر رائحة الشواء فتنفذ الى رئتي المار حادة كريهة تقزز النفس.

في هذا السوق ، كان ابو حميد يعمل حدادا .

وكان ابو محمد يسعى اليه لابلاغه ما قاله الطروسي ، وكلما صعد باتجاه البازار لعنه ولعن الساعة التي رأى فيها وجهه . كان يردد في نفسه « هذا رجل ما منه غير المتاعب» .

ووصل اخيرا الى البازار ، واستطاع بجهد النفاذ خلل الازدحام ، ثم اتجه الى زقاق الحدادين . وكان ابو سميرة بائع الخضار ينشر بضاعته امام دكان ابي حميد ، فيجادل ويصيح ويصفق ، وابو حميد يحتمـل ذلـك منـه لاسبـاب سياسية ! لقد سمح له ان يستعمل الدكان وما امامها دون مقابل سوى الموافقة على آرائه ، وقد وافق عليها ابو سميرة دون ان يخسر شيئـا .

وكانت آراء ابي حميد معروفة . فهـو لا يحب فرنسا ولا بريطانيا ، ويؤمن بالمثل القائل « عدو عدوك صديقك » وما دامت المانيا تحارب فرنسا وبريطانيا فانها صديقته ، وهـو صديقها ، ومن « سميّعة » اذاعة برلين المتحمسين .

كان طويلا ، عريض الالواح ،ذا انحناءة عند الكتفين .
وكان يلبس شروالا اسود ، وسترة قصيرة الذيل وطربوشا ممعجا ظاهر العتق . وكانت دكانه تؤمن له رزقه ورزق زوجته التي ما كان في بيته غيرها . وقد اشترك قديما في الثورة السورية على فرنسا ، واراد التسلل الى فلسطين للاشتراك في الجهاد ضد الانكليز ، فاضطرته اسباب طارئة الى التوقف في دمشق ، وعاد منها الى اللاذقية وقد استشعر انه جاهد فعلا لانه حاول الجهاد فعلا ،وكان يحقد على هاتين الدولتين حقدا صادقا مستمدا من ذات احساس الشعب ضدهما في البلدين وسائر العالم العربي، فلما ظهرت المانيا الهتلرية على المسرح قال ابو حميد في نفسه « وما من ظالم الا سيبلى بأظلم » ، وانضم الى المعجبين بهتلر ، المتحمسين لالمانيا ، الداعين لها ، الشاتمين فرنسا والانكليز في كل مجلس وكل ساعة من ساعات الليل والنهار .

ولما اندلعت الحرب اغتبط لها مدفوعا بعاطفة العداء التي تنشد الانتقام لذاتها عن اي سبيل .

ـ انتصار المانيا انتصار للعرب !

كذلك يقول وكذلك يؤمن . ثم عمد الى سماع اذاعة برلين ونشر اخبارها في الناس . الا ان الانكليز والديغوليين ما لبثوا ان دخلوا سورية وطردوا الفيشيين منها ، فأصبح الاستماع الى محطة برلين مشكلة ، وعندئذ لجأ الى مقهى الطروسي ، واصبح من زبائنه بعد ان ضمن فيه سماع برلين في كل ليلة .

وحين ابلغه ابو محمد ان رجال الامن جاءوا الى المقهى وسألوا عنه ترك المطرقة وسأل :

ـ عني انا ؟

ـ اي عنك انت .

ـ وماذا يريدون ؟

ـ وما ادراني ؟ اسأل الطروسي ، هو الذي ارسلني .

١٥

ارتدى ابو حميد ثيابه واسرع الى الطروسي بعد ان اوصى ابا سميرة بالدكان :

ـ خي ابو سمرة ، الدكان وحدها .

ـ رح ولا يهمك ، هات معك خبرية نظيفة عن الجماعة.

حدق فيه وفكر : « ربما ذهبت فداء الجماعة يا ابو سمرو ، ولكن هذا لا يهم ، هتلر مصبح او ممسي في سورية ... رومل اصبح في العلمين » .

قال ابو سميرة في نفسه « ابو حميد مزعوج ، ربما لم يسمع يونس امس » . وبعد ان سحب من الناركيلة سحبة قوية قرقر لها الماء طويلا ، ترك النربيش يسقط ارضا ليساوم عجوزا على كومة من البطاطا :

ـ السعر مقطوع يا اختي ، ما عندي روح لكثرة الكلام ... اذا استغليت اسعاري فالعربات قدامك .

كان يذكر الاسعار لا البضاعة عند المفاصلة ، وكان البازار يزدحم بعربات اليد المركومة بالخضر والمنتشرة من سوق البانستان الى ما وراء البلدية ، فاذا اشتد القيظ رفع اصحابها فوقها ظلالات من خيش على اوتاد اربعة ، ومضوا يبيعون بالمفرق ما اشتروه بالجملة ، حتى اذا وافى المساء ولم تنفد خضرهم ، اقبلوا على ابي سميرة يبيعونه ما تبقى منها خشية اهترائه الى الصباح ، فيشتريه ابو سميرة ويكدسه في سحاراته الخشبية خالطا الجديد بالقديم ، السليم بالمعطوب،

غير مكترث بالفساد يدب فيها جميعا ،لانها كلها فاسدة اصلا،
فما ان يطلع الضوء حتى ينشرها امام دكان ابي حميد ،يروح
ينادي عليها ، ويصفق ، ويغني ، ويقول لمن يتعزز او يماحك
في الشراء « هذا هو الموجود ، عجبك تفضل والا مع السلامة!»

انه يعرف نفسه وبضاعته وزبائنه ، وهذا هو انسر في
« قوته التجارية » وشهرته التي تملأ البازار . وهو يمن
على الزبائن لانه يوفر لهم خضارا « بسعر التراب »، وحين
يفرغ من البيع يسند ظهره الى عمود خشبي جعله متكأ
لسحاراته ويفكر على هذا النحو : « اذا مت يا ابو سميرة فمن
للفقراء بعدك ؟ » وكانت النساء الفقيرات المعيلات يعرفن قيمته
فيدعين له بطول العمر وحسن الخاتمة، ويأتي اليه بائعو
الخضار يعرضون النفايات قائلين باستسلام :

ـ زبائنك لا يعيفون كريهة يا عم !

فيجيبهم باعتداد :

ـ حلال على الشاطر ! انا واسطة خير لا اكثرولا اقل،
كما اشتري ابيع والرزق على الله! تكفيني مرضاته تعالى ،لولا
وجودي مات الفقراء ، اي العمى ! مالك اب مالك رب ! !»

كانت له لثغة ذات صيت بعيد ، وفم ينضم على اسنان
كأسنان الفأرة ، وذقن دقيقة تنبت فيها شعرات قلائل بسبب
من اصابتها بآكلة الشعر ، فكان يحلقها مساء الخميس من
كل اسبوع ، ويخلو منه البازار يوم الجمعة فحسب، حيث
يتوقف عن المناداة والصراخ، ويؤدي صلاة الجمعة في المسجد،
ويذهب الى المقهى فيشرب ناركيلته ،وقد يقصد ايام الصيف
شاطىء البحر ، حاملا ناركيلته وطعامه ، ووراءه ام سميرة
بملاءتها السوداء الطويلة ، وخلفها سميرة وبقية المحروسين .

اما سحاراته فمبيتها في دكان ابي حميد . وكان يحمل
مفتاحا خاصا به ،فيفتح في الصباح ، ويقفل في المساء ،

ويتصرف بالدكان كأنه مستأجرها ، مقابل « الايمان » بما
يقوله ابو حميد عن هتلر نقلا عن اذاعة برلين . وكثيرا ما
افتقده الزبائن فوجدوه في زاوية الدكان يتجمع على بعضه
كقنفذ وقد حاصره ابو حميد وسد عليه منافذ الهرب ، وطفق
يشير بيديه الطويلتين ، متحدثا عن المانيا وهتلر وتشرشل
و « هنا برلين » ، منسجما مع الحديث ، مستثارا بالانباء
التي يرويها هو نفسه ، يفور رغاؤه ويبدو في ملفميه كجمل
حقيقي .

على ان ابا حميد كان يضيق ذرعا ، رغم هذا كله ،
بصياح ابي سميرة الذي لا ينقطع ، وبخاصة اذا كان في
الدكان بعض الانصار، وعندئذ يمط رقبته من الباب ويصيح به:

ـ يا اخي ، يا ابو سمرو ، على مهلك .

فاذا لم يسمع ، او استفرقه الجدال ، اقترب منه ابو
حميد وقال :

ـ ابو سمرو عندنا اوادم امثالك ، بدنا نفهم عليهم ..

فيمتثل ويجيب :

ـ على راسي ابو حميد ، وحياة شواربك وشوارب
الاوادم ما راح صوتي يطلع ..

ويصمت بضع دقائق فعلا ، ثم لا يلبث ان ينفجر قائلا :
« العمى ! راح اختنق ، انت يا اختي ، كلمة واحدة ، انا
كلمتي كلمة ، لا تجادلي ، اسعاري محدودة، هذه الكومة
(ويضع يده عليها) بقرشين ، وهذه بثلاثة ، يا الله ادفعي
واحملي » . ثم يصفق ويصيح بأعلى صوته « يا الله ،نفقنا،
نفقنا يا هو ، الفواكه بالنظر ، الفواكه بالنظر ! »

ويظل كذلك حتى يخرج اليه ابو حميد من جديد، فيخفض
من صوته ، ويتظاهر بالنسيان، وقد ينتهر زبونا ما مشعرا ابا

حميد ان الزبون هو سبب رفع الصوت ومخالفة التعليمات .

والوقت الوحيد الذي يأخذ فيه حريته كاملة هو الذي يغادر فيه ابو حميد الدكان كما فعل الآن . وقد صفق من فوره وصاح بأعلى صوته :

ـ البطاطا ، البطاطا يا هو ، نفقنا هه ..

وقالت عجوز وهي ترسل يدها في سحارة البطاطا :

ـ الله يبهدلك يا ابو سميرة على هذه البطاطا ، ما فيها حبة سليمة .

فاستند الى العمود من ورائه واجاب :

ـ بطاطتي مثل وجهك يا ست الحسن ، ما فيه موضع يسر القلب !

١٦

عندما وقف ابو حميد في باب المقهى، كاد الطروسي يغرب في الضحك. فقد وضع ابو حميد طربوشه بالمقلوب، فجاءت الشرابة الى امام ، وسار في السوق دون ان ينتبه الى هيئته.

ـ يا ابو حميد وقعنا في الفخ . الشرطة درت بنا وما عدنا نسمع يونس في المقهى بعد اليوم .

ـ فشروا

لفظها « فسروا » مستبدلا السين بالشين بفعل لثغته .

وبعد ان تناول كرسيا وجلس قال :

ـ لا يهمك ابو زهدي ! كلاب ، وحياة شواربك كلاب ، رومل صار في العلمين يا عم .

ـ واذا صار رومل في العلمين ؟ المقهى مراقب فكيف نسمع الاخبار بعد اليوم ؟ فكر !

ـ وما رايك انت ؟

ـ هذه آخر ليلة من اخبار يونس، الراديو تحت تصرفك، ولكن المقهى ! اصبح لنا اعداء يا ابو حميد .

ـ الاستاذ كامل وجماعته !؟

ـ ما حزرت ، الاستاذ كامل لا يحب المانيا ولكنه ليس عدونا .

ـ انت لا تعرف هذا الصنف من الناس .

ـ بلى اعرف ، اعرف كل اصناف الناس في هذا المقهى ..
والافضل ان تدبر المسألة والا فلا يمكن سماع برلين بعد اليوم.

كانا يجلسان متجاورين ، وقد خلا المقهى الا من بعض

الزبائن،وابو محمد يقف وراء الوجاق، والراديو في مكانه من الجدار،داخل الطاقة التي نحتها له الطروسي في الصخر .

لقد جاء به قبل الحرب فيعربة خيل،اوقفها في حديقة المنشية،واحتضنه برفق ووضعه على الدكة وهو سعيد به غاية السعادة ، ثم استشار ابا محمد حول المكان الذي يضعه فيه .

كان من راي ابي محمد ان يوضع الراديو في المقهى،كي يراه الزبائن ويسمعوه فاستاء الطروسي وقال :

ـ الراديو لي وليس للزبائن !

ـ ضعه في الصندوق اذن .

فضحك لهذا الاقتراح وسأل :

ـ اتحسبه جهاز عروس ؟

ـ اذن دبره بمعرفتك .

ـ احسنت !

وقام الطروسي فدارفي المقهى،واختار مكانا وراءالدكة، وارتقى كرسيا وراح ينحت فيالصخر، ومنذ ذلك اليوم استقر الراديو في المكان ،ثم جاء بقطعة قماش مكشكشة البسه اياها وقال لابي محمد :

ـ ما ابن امراة يلمسه هه .. فهمت ؟

ومضت الايام ، فتساهل الطروسي بأمر الراديو واصبح يلمسه ويفتحه كل من يدخل المقهى،وجاء وقت كاد ينساه فيه، حتى اذا اعلنت الحرب، ودخل الانكليز والديفوليون سورية،شهد المقهى زبائن من نوع جديد ،« زبائن الليل » الذين يأتون لسماع اذاعة برلين فقط .

كانوا ينزلون الراديو ويضعونه على طاولة ويتحلقون حوله ، ويتولى ابن الجمال تحريك الابرة ، فاذا وقفت على محطة برلين وانطلق صوت يونس صائحا « حي العرب » شاعت الغبطة في الوجوه ، واصغوا باهتمام وصمت تام الى

كل كلمة يقولها ، ثم نهضوا وذهبكل منهم فيسبيله،وانطلق ابو حميد الى المقاهي يروي ما سمع ،ويزيد عليه من عندياته ما يخطر له . اما الان فقد اصبح سماع برلين في المقهى متعذرا ، ولا بد من ايجاد حل او التعرضلانتقام السلطات.

سأل ابو حميد بعد ان فكر مليا :

ـ الا يشتغل الراديو على البطارية ؟

ـ علمك علمي يا ابو حميد .. لماذا ؟

ـ عندي فكرة حلوة .. اتركني ادبر الامر .

ضحك الطروسي وتساءل « ما هذه الفكرة ؟ » ثم ترك لابي حميد تدبير الامر ، فلما جاء «زبائن الليل» ابلغهمان هذه آخر ليلة يسمعون فيهايونس،وانهم يسمعونه بفضل مراقبة ابي محمد وحماية الطروسي .

وفي ختام السهرة عرض فكرته فقال :

ـ عندي فكرة حلوة يا اخوان !

ـ ما هي ؟

ـ فكرة عظيمة !

ـ قلها لنرى

فتلفت حواليه وقال :

ـ هل في المقهى غريب ؟

ـ لا !

ومد يده الى جيبه فاخرج بعض النقود ، وقال وهو يضعها على الطاولة :

ـ كل واحد يدفع الذي معه ، وتعالوا مثل عادتكم والباقي علي . لا تسألوني كيف؟ انا ابو حميد والا لا ؟

وتطاير رذاذ من فمه رش الحاضرين فقالوا :

ـ نعم انت ابو حميد ، لكن فهمّنا .

ـ ادفعوا اولا .

ـ لا ، فهمّنا اولا .

نهض الطروسي فدار حول المقهى وعاد . كـان يجهـد لامساك لسانه عن قول ما لا يريد،ذلك ان الجماعة «افندية» وهو لا يطيق مماحكة هذا النوع من الناس « قال لكم ادفعوا فادفعوا ... لماذا كثرة اللت والعجن » ؟الا ان الافندية لـم يدفعوا ، فقال في سره « يلعن والدكم ما ابخلكم ! »، وخرج ثانية تاركا ابا حميد يتفاهم مع هؤلاء « الذيـن لا يفهم عليهم ولا يفهمـون عليه » .

وعاد ابو حميد يتوسل مع التهديد :

— ادفعوا هه ؟ لا تحرجوني ، اتركوا خطتـي مستورة وتعالـوا اسمعوا يونس .

ودفعوا اخيرا بغير سخاء ، الا ان مـا دفعوه يكفي.

١٧

ذهب ابو حميد في اليوم التالي فاشترى بطاريةللراديو برفقـة ابن الجمال . كان هذا ذا خبرة فيهذه الشئون ،وهو الذي ابلغ ابا حميد ان الراديو يعمل على البطارية اذا انقطع يوم التيار . ثم قام ابو حميد والطروسي فطافا بين الصخور ووقعا على كهف نظفه ابو حميد من الاقذار والحجارة ،وهيأ مكانا للراديو ، واسف لانه لا يملك راديو فيسمع يونس فـي بيتـه ويستريـح .

وفي المساء بكر بالمجيء الى المقهـى ، وجلس يشرب ناركيلته لـ « عيني الشباب » . كان يشعر بزهو من انتصر ، باعتداد من انجز عملا من اعمال العقيدة.وكانت لفحـة برد تلسع الوجوه ، والبحر الازرق يبدو نقيا وادعـا والسماء بلوريـة رغم السحب التي انتشرت على خط الافق وتلونت بحمرة المغيـب .

وبدأ « زبائن الليل » يتوافدون وهم يتساءلون عما اعد لهم ابو حميد ، واين ستكون الجلسة ؟ وما هي الخطة ؟ وهل تفاجئهم كبسة ام يسلمون ؟

كانوا اصنافا من الطلاب والموظفين وصغار الملاكين ، وكان سماع برلين نوعا من العمل السري في نظرهم وقد زادت هذه السرية في اجتذابهم الى المانيا نكاية بفرنسا والانكليز .

ولما جلسوا غمزوا يستعجلون فأومأ اليهم ان تمهلوا . كان في المقهى غرباء ، ويحب ،قبل تنفيذ الخطة ، ان يعرف

من هم هؤلاء الغرباء . انه لا يستطيع ان يطمئن الى كل قادم والا عرض مشروعه الى الفشل ، فالمخبرون يملأون البلد ، ومن المحتمل ان يكونوا قد اندسوا بين القادمين .

ولكي يتفادى المشاكل قرر ان يصطحب اولا الذين دفعوا باعتبارهم موثوقين ويعرفهم واحدا واحدا ، وفيمابعد، اذا حصلت لديه قناعة بأن القادمين الجدد ممن يركن اليهم، دلهم الى طريق الكهف ، وضمهم الى الجماعة .

وعلى هذا وقف باب المقهى واشار الى « زبائن الليل » فانسلوا واحدا بعد آخر وتبعوه .

سار الطروسي في المقدمة،وبعده ابوحميد ،ثم بقية « السميعة » . وكان ابو حميد يوصيهم قائلا « بلا سيكارات يا شباب » . وكان البحر راكدا والموج ينداح بتؤدة ويلطم الصخور ، والظلمة حالكة ترف على الماء كالسحب ، ورائحة حادة تنبعث من الشقوق ، بينما النتوءات تجرح الاكف وهم يتوكأون على الصخور تارة وعلى بعضهم طورا ، وابو حميد يتلمس الطريق بعصاهليوصلهم ويعود فيأخذ منتأخر منهم . لقد تعب هذه الليلة ، ولكن ما قيمة التعب ؟

جلس في الكهف القرفصاء ،مقابل الراديو الموضوععلى كرسي صغير،وتحلق الآخرون حوله، بينما جلس الطروسي على صخر خلف المذياع تماما ، فلما حان الوقت اشعل مفتاح الضوء ، وبدأ الجهاز يعمل .

جثا ابو حميد وادار الابرة . كان امام الراديو كقابلةامام حامل اشتد عليها المخاض وبانت علائم الوضع ، ولم يبق الا ان يسقط الوليد في يديها كتلة من لحم طري .

ورمقه الطروسي بحب . كان بوده ان يتولى هو ادارة الابرة ، لكن ابا حميد طلب منه، بكلمات متوسلة لا قبل له بردها ، ان يدع له ذلك.لم يقل له انه ادرى منه بالتقاط محطة

برلين ، فقول كهذا قمين بأن يثير الطروسي ويفسد ليلة ابي حميد ،ويفوت عليه « لذة سماع يونس بين هذا الجمع من الاوادم » ، لذلك خاطبه باكثر ما يمكن من الاستعطاف :

— ابو الزهد ! خل عنك خي ، انت اسمع فقط ، لا تتعب نفسك .

فابتسم الطروسي وقال :

— شوّفنا شطارتك .

وانحنى ابو حميد وراح يحرك الابرة . كان قد تعلم كيفية ضبطها من تجاربه السابقة ،ووضع اشارة بالحبر زيادة في الاحتياط ، لكن المحطة لم تكن صافية ، وسيكون الاستماع صعبا الليلة .

اطفأ الراديو واشعله . فعل ذلك عدة مرات فلم يخف « البرازيت » فمد اصابعه الطويلة بين الحجارة بحثا عن الانتين ، واذا به يكتشف ان احدهم داس عليه فافلت من مكانه . كان من الطبيعي ان يطلق شتيمة ما ، لكنه لم يفعل ، بل داخله سرور شأن من خاف على شيء فظهر ان خوفه في غير محله . ان الخلل في« الانتين » وليس في الجهاز ، وهذه رعاية من الله !

— رجلك يا حسن ، رجلك خي !

رفع حسن رجله ، فشد ابو حميد الانتين وحذرالباقين من الدوس عليه :

— رجلكم هه ، انتبهوا ، راح يطلع يونس .

ركز الابرة جيدا ، وحدق في اشارة الحبر وانتظر .. ومع ذلك لم يسمع « هنا برلين » ،فأخرج ،للمرة الثالثة ، ساعة الجيب الفوسفورية ونظر فيها .. ما باله يونس لا يطلع اليوم ؟ انخطته وكرامته وسعادته متوقفة كلها على هذا الصوت الذي ينتظر « فلماذا يصمت ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »

ثار لفط بين الرجال ،واشعل الطروسي سيكارة خارقا التعليمات ، وقال احدهم « المسألـــة فالصو يا شباب » !
فأحس ابو حميد،لشدة قهره، ان شيئا ما يحز في صدره . كان الوقت يمضي،ولا بد ان يكون يونس قد بدأ الان ، وقـد ينتهي بعد قليل ، ويتفرق الزائن ، ساخرين منه ومن خطته ومن برليـن نفسها .

ماذا يفعل ؟ لقد اعتاد ان يشتم او يسب الدين في مثل هذه المواقف ، او يأتي اية حركة تنفس الغيظ ،اما الآن فقد نسي حتى ان يشتم،حتى ان يسب الدين ، او يأتي اية حركة تبعث في نفسه الرجاء من يأس هذه الورطة التي فوتت عليه سماع يونس في الليلة الاولى لتنفيذ خطته .

ارتد ، بشعور من القهر ، عن المذياع وطفق جبينـه يتفصد بعرق خفيف ، وشاعت المرارة والجفاف في فمـه الكبير . لقد اسقط في يده ! يا لها من ليلة ، « يا ليتني لم آخذ النقود من « هؤلاء الاوباش » الذين يتضاحكون من حولي» .

اشعل احدهم سيكارة فأضاء الثقاب الارض ، وهتف ابو حميد كمن عثر في ساعة افلاس على مبلغ كبير من المال :
ـ يخرب بيتك يا حسون ، ولك داعس عن الانتين وانا اتعذب ؟!

وحطت كفه الخشنة فوق قدم حسون وانتزعتها بغلظة، واعاد الانتين الى مكانه فخفت « البرازيت » وسمعت المحطة فورا . بدت ضعيفة اولا ،ثم ارتفع الصوت واصبح مسموعا، فصفق ابو حميد على فخذيه وصاح :
ـ طلع يونس يا شباب .. طلع هه ، لا احد يحكي ، ارجوكم ، وانت يا حسون انتبه ،ارجع رجلك الى وراء .

وتكاكأ الجميع وارهفوا السمع ، لكن الصوت اختنـق بسبب من انحراف الابرة ، فلم يجرؤ ابو حميد على تحريكها

لئلا تضيع مرة اخرى ، فقال له الطروسي اضبط الابــرة ابـو حميـد » .
ـ امرك خي ، ما تكرم ابو زهدي !

حرك الابرة بحذر شديد ، وانتظر قليلا فاذا يونس يجأر بصوت خشن ، والكلمات تنطلق من فيه كرشاش . عندئذ اطمأن واخرج علبة التبغ فلف سيكارة وراح يطيّب ليونس:
ـ يا حبيبي ، يا حبيبي ، عليهم ، عليهـم يا هتلر ، تسرسل ، يا تسرسل (تشرشل يا تشرشل) اطلع بره ، اطلع من الززيرة (الجزيرة) اطلع يا عرص !

كان يجعل كلمة « اطلع » في مقطعين منفصليـن وممطوطين ، ويمد صوته ،وينثر لعابه في وجوه من حوله .
ـ اط ... لع يا تسرسل !

وقهقه الحاضرون وتحمسوا حتى اضطـر الى الصياح :
ـ اسكتوا يا شباب ، خلونا نسمع ، العمى ، نحن في مدرسة ؟ في حمام ؟ ابو زهدي ؟كيف شايف الخطة خي !؟
ـ عظيمة ، لو دروا بها لشنقوك في« الشيخ ضاهر »
ـ من ؟ الانكليز ؟ فرنسا ؟ فشروا ، وحياتك فشروا ، قواتهم تهرب قدام رومل مثل القطط .

وجاءت فترة الموسيقى فسمح الحاضرون لانفسهـم بالتعليق على الاخبار ، واستفاد ابو حميد من ذلك ليستوعب ما فاته من كلمات. صحيح انه « يفهم الفصحى احسن من اولاد المدارس » لكن يونس يستعجل احيانا في اللفظة ، او يستعمل اسماء اعجمية غريبة، ومصطلحات سياسية واسمـاء مـدن وعواصم لم يسمع بها من قبل،وهـو يأنف ان يستوضـح « الاولاد » خشية ظهور ضعفه في هذا المجال .
ثمة اسم كان يصعب عليه اكثر من جميع الاسمـاء هو «« تشيكوسلوفاكيا » فيقول « يلعن دين هذا الاسم ما اصعبه

يا ابو الزهد » واسم آخر تعذر عليه هو « يوغوسلافيا » لكنه استطاع مع الايام ان يحفظه ويلفظه كماتيسر،وكان يقول لمن يصححه له « ولك عفريتة » المهم ، اخذها هتلر ام لا » ؟

وقال الطروسي ممازحا :

ـ اذا انتصر هتلر لا بد ان يعينك رئيس شرطة يـا ابو حميـد .

ـ لا يا ابو الزهد ، لا اريد مدير شرطة ولا بطيخ ، الله اغناني عن الوظائف ، يكفي ان ينتصر هتلر، اللهم لا تقبض امانتك حتى ارى هذه السـاعـة . تقولـون شماتـة ، نعم شماتة ، انا شمتان وحبة !

كان يتكلم بحقد،شأن الذيـن ذاقوا من فرنسا وبريطانيا الامرين ،فترنم طالب مدرسة يقف وراءه بهذين البيتين :

ياسامر الحـي هل تعنيك شكوانا
رق الحديد وما رقـوا لبلوانـا

سمعت باريس تشكـو زهـو فاتحهـا
هلا تذكرت يا باريس شكوانا ؟

وصاح ابو حميد « حلو ياعم ! حلو ! اي والله ما رقوا لشكوانا » ـ لفظها سكوانا ـ فانقلب الجو من الجـد الـى المزاح ، وانتهت الموسيقى فعاد يونس الى الكـلام ، وساد الصمت مجددا ، فلما انتهت الاذاعة ، سأل معتدا« شفت ابو زهدي ؟ آمنتم يا اخوان » ؟

اجاب الجميع « آمنا والله ، لعينيك ابو حميد . وقال ابو حميد متملقا الطروسي « لعيني الطروسي » . فقاطعه هذا قائلا « لعيون الرجال ! هيا نخرج » .

وخرجوا ...

١٨

قصد ابو حميد ، بعد سماع يونس ،مقهى ابن آمنة في الشيخ ضاهر . كان الوقت متأخرا ، والمقهى قد خلا مـن رواده ، ولم يبق في الساحة الا حارس يسير ساهما ،ضاربا بعصاه على ساق جزمته ضرباً رتيبا آليا ، وكناسون يحملون مقشاتهم ويمضون الى الشوارع والاحياء ، وسيارات قليلة وقفت بحذاء الرصيف ، ومن حين الى حين يمر رجل تعتعه السكر ، او شغيل تأخر فيالعمل،او عربـة خضر مـن الضواحي ،فيما الليل البارد والسكينة القاتمـة والاسواق المقفرة تشكل لوحة قاسية الخطوط تتعارض كليـا مع نفسية ابي حميـد هذه الليلـة .

طلب ناركلية فلم يجب الى طلبه . كان المقهى على وشك الاغلاق ، والكراسي قد رفعت فوق الطاولات ،وشرع النادل يكنس الارض ، وخبت النار في الوجاق فهي لا تصلح لشيء.

« اذن تأخرنا ! الصباح رباح ، غدا نلتقي ان شاءالله، لنذهب الان الى البيت » .

انحدر من وراء جامع العجان الى البحر . ان طريقـه تمر بالشيخ ضاهر والعوينة فالقلعة فالشحادين ، لكنه سلك طريق جامع العجان فيدورة طويلة لا مبرر لها .ثمة مسافات يجتازها الانسان احيانا دون هدف . انهيتبع افكاره اوبصره او النشوة التي تستشعرها نفسه من التسيار كمتشرد حر .
ولم يكن ابو حميد متشردا ، الا انه لم يكن مرتبطا غدا باي عمل ، وقد يصادف من يقص عليه انباء برلين ، ثم انه يرغب

عن المرور بالاحياء العتيقة كالعوينة والقلعة ، فهذه الاحياء كثيفة السكان ، ظاهرة الفقر ، مغلقة ، اما الاحياء الاخرى فجديدة ، بهيجة ، شوارعها عريضة مضاءة . وكان الشارع الرئيسي الممتد من القلعة الى البحر يقسم المدينة الى قسمين ويأتي الشارع الطويل الممتد من مدخل المدينة في « عين ام ابراهيم » عبر الشيخ ضاهر حتى يتصالب مع شارع القلعة في حي النصارى عند ساحة صغيرة تسمى«نقطة البوليس» ، ومن هناك يتجه في خط مستقيم حتى مشارف البحر .وثمة شارع ثالث عريض يدور حول المدينة من مدخلها الى مرفأها، وتفضي هذه الشوارع الثلاثة الى البحر ، مباشرة او عن طريق جادات وازقة فرعية .

وكان ابو حميد يسكن حي الشحادين،ولا بد له للوصول الى بيته من المرور في ازقة ومنعطفات وقناطر اشبه بالسراديب تسودها العتمة حتى في ايام الصيف،وتفوح منها روائح تقبض النفس . وكان في وسع اي انسان يريد الهرب او الاختباء ان يجتاز الحي من اوله الى آخره دون ان ينزل الى الارض، بسبب من اتصال بيوته وتداخلها وكثرة القناطر وضيق الازقة، وهذا ما جعل حي الشحادين ملجأ لمهربي التبغ والملاحقين والحواة والمتكسبين من مهن غريبة لا تنهض في بدائيتها عن الارض . ورغم وجود بعض الوجهاء فيه ، فقد كان حي الفقراء الاول ، وله من اسمه واقع ذو مدلول ، ولم يكن يسكنه الغرباء ولا الموظفون ، لذلك حافظ على طابعه البلدي ،وظل متخلفا ابدا ، يقذف المدينة بانماط من طالبي الرزق، وتتألف غالبية سكانه من مزارعين صغار وحرفيين وعمال واصحاب سوابق .

ميزة واحدة كانت له على الاحياء الاخرى ، هي ان رجال الشرطة والجمارك وادارة حصر التبغ لا يستطيعون دخوله الا بشق النفس ، ولا يجرؤون على اي عمل فيه ما لم يوافق

المتنفذون . اما في وقت المظاهرات والمعارك الوطنية فقد كان مصدر الجماهير التي تنزل الى الشارع وتثبت وجودها. وفيما عدا ذلك، كان في نهاية السلم من حيث الترتيب الاجتماعي.

لهذا كله عزف ابو حميد عن العودة اليه مباشرة . سلك طريق جامع العجان ، وانحدر صوب البحر ، حتى اذا بلغ المنشية خطر له ان يعود الى الطروسي، ويتحدث اليه عن نجاح الخطة و « يسمع منه كلمة نظيفة » .

ولم يتردد في التنفيذ . اخترق الحديقة ، ودار بين الصخور ، ووقف امام المقهى ونقر الباب ، ثم دقه فاستيقظ ابو محمد وخرج من فراشه داخل الدكة وفتح الباب .سأله:

— اين الطروسي ؟

فعاد ابو محمد الى الداخل ، واشعل الضوء ،ونظر في الفراش فوجده ممهداً لم تمتد اليه يد،ومعنى هذا ان الطروسي ليس في المقهى، ولا احد يدري اين يكون في هذه الساعة . اجابه :

— الطروسي لم ينم في المقهى ، تفضل ، خير ؟

— سلامتك (وبعد تردد) هل انت نعسان ؟ لم يأتني نوم الليلة .

طلب فنجان قهوة « على الريحة » فلما ذهب ابو محمد لاعداده تبعه والقى عليه هذا السؤال :

— سمعت يونس اليوم ؟

— من اين ؟ اذا سمعتم يونس في المقهى اخرج انا للمراقبة ، واذا سمعتموه في الخارج اكون انا في المقهى .

— فاتتك هذه الليلة . والله ليلة بسنة ، كان يونس، يا ابو محمد ، يصرح مثل السبع الكاسر ،ويصف على كيفك . كلام عسل ، اي والله عسل، انا شبعت من يونس الليلة!

قالها بحرارة وجلس ، واضعا رجلا على رجل ، فتدلى اليه شرواله ، وخلع مداسه المعكوف ،وترشف رشفة من

القهوة وناول ابا محمد علبة التبغ :
– خف لف سيكارة .
فسايره ابو محمد قائلا في نفسه « لا بأس بسيكارة للتنفيـخ » .
وسالـــه :
– كيف شفت الدخانات ؟
– يا عيني ، شغل الجبل !؟
– معلوم ، عندي منه مشروبي الخاص .
ومضت فترة صمت قطعها ابو حميد قائلا :
– آه لو كنت معنا اليوم .
ولما لم يجبه بشيء ، بادره بهذا التنبيه :
– سامعني ابو محمد ؟!
– اللـه !
– قلت آه لو كنت معنا اليوم .
– جلسة حلوة !؟
– حلوة وبس ؟ شهد ، خطة محسوبك (قاطعـه ابو محمد قائلا : محسوب ربنا) وتابع ابو حميد : تركت يونس يأخذ حريته . قلت في نفسي يا ولد افتح الراديو على آخره، يعني في بعض الاوقات ينسى الانسان نفسه ،صحيح والا لأ؟
– اي نعم ، صحيح .
– وانا نسيت ..نسيت الخطر واولاد الكلب، وفتحت الراديو وقلت له اشتغل على كيفك يا حبوب ... واشتغل، بصراحة بيّض وجهي ، الحقيقة شيء على الكيف ، شي حلو، الالمان حرقوا قلب الانكليز ..
– وفرنسة ؟ هل صارت لالمانيا املا ؟
– صح النوم ! صارت من اول الحرب ، اخذها هتلر بقوة ذراعه،وسكان باريس قالوا للزعيم خذها فلا تعلن الحرب!
اطبق شفتيه على حرف الباء بقوة ، فتناثر اللعاب من

بينهما ، ومد يدا كالمدراة الى فنجان القهوة واضاف :
– والله لو كنا نحن آخذنا باريس ما فرحت اكثر مما فرحت يومها ، ياشماتة قلبي،الله اخذ بثأرنا يا ابو محمد ، لكـن قلبي لا يبرد حتى يأخذوا لندن .
تناول علبة التبغ ولف سيكارة لنفسه وعزم باخرى على ابي محمد فرفض ،فكرر العرض قائلا :
– خذ ابو محمد ، السيكارة حلوة في الليل (وبعـد وقفة) انت تعرف باريس ؟
– لا يا عـم .
– وما سمعت باسمها ؟
– نعم سمعت ، قالوا مدينة كبيرة ، اكبر من البحر.
لكن الطروسي قال :
– فشرت ، البحر اكبر
– لا يا ابو محمد ، باريس اكبر،اي العمى ! باريس لعبة؟
فسكت ابو محمد كانه لم يقتنع .
– ما صدقتني ؟
– والله ما صدقت ، عدم المؤاخذة ، الطروسي قال ..
فانزعج او حميد وقاطعه :
– اي الطروسي مهندس ؟ باش كاتب ؟ خلصنا ابـو محمد ، محسوبك ما قليل في هذه المسائل، اي عجنت الدنيا وخبزتهـا ، واخبارهـا كلها في صدري!
غير ان ابا محمد لم يتزحزح عن رايه « الطروسي قال البحر اكبر ، اذن فالبحر اكبر » فاسف ابوحميد لانه «اضطر ان يتحدث في السياسة الى بهيم هذه الليلة » وقرر في ذات نفسه « باريس اكبر ،وهذا ما يعرفه الجميع » وسيتحدث بما سمع الليلة في نص مقهى ابن آمنة في الشيخ ضاهر غدا .
نهض فورا فدفع ثمن القهوة وخرج ، وفي طريقه ،بعد ان اجتاز حديقة المنشية، مر بدار المندوب السامي الفرنسي

فبصق وتمتم « اذا كانت باريس نفسها يحكمها هتلر ، فلن يبقى هذا العرص في اللاذقية باذن الله » .

صعد من جديد نحو السراي،قاصدا حـي الموارنـــة فالصليبية والشحاذين . انها طريقه المعتادة ، يقطعها ذهابـا وايابا كل يوم تقريبا ،ويفضلها على سواها .

وكانت المدينة ، من حوله ،تنام ، والبحر وحده يسهر، يغني على هواه ،ويعزف بامواجه نشيده المختار . انه يغني لنفسه ، لليل ، للقمر ، للنجوم ، للسحب وصخور الشاطىء، ولا يبالي بمن يصغي ومن لا يصغي ، حسبه انه يغنـي .

وابو حميد يمضي متمهلا . انه ، كسكان الشاطيء ، يحب البحر ، ويحب الليل، والقمر ، وله مزاج رائق وذكريات خاصة .«لقد كانت ام حميد ، رحمها الله ، مثل غصنالزنبق» تلتف بملاءتها وتنظر اليه من وراء البابحتى قبلعقدالقران. ولكم اشتهي نظرة منها في ذلك الوقت! نظرة طويلة، طويلة لا لمحة عين ولا خطفة نظر او تخايل من وراء النافذة . لقـد اشتهى هذه النظرة بكل جوارحه ولم ينلهـا الا بعد الزواج، ومن ثم عاشا معا اياماحلوة هنيئة،حتىجاء الموت وفرقبينهما.

« ايه يا زينب ،يا ام حميد ، متى يكون اللقاء؟» كذلك هتف وهو قرب السراي ، واصغى الى تنفس الليل من حوله بخشوع وهيـام .

المدينة تنام ؟ كلا ، انها لا تنام . ثمة ، وراء النوافذ والابواب ، تجري اللعبة المعتادة.ان ساكني الاكواخ يعرفون ما يجري في الدور والقصور من اشياء. يتصورون ،في وهم الخيال ، النساء الجميلات ، العاريـات ، والاضواء الحمر ، والخمور والعطور ، وكل ما يجري في القصور في مثل هذه الساعـة .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل .

وكان الطروسي قد ترك ام حسن عائدا الى المقهى،يريد

معرفة ما اذا كان رجالالامن قد عادوا اليه ، او ان احدا يحوم حوله . ذلك انه يعرف ان صالح برو سيخرج من السجن يوما ، وسيلتقي به على نحـو ما ، كما يعرف ان له اعداء ، وان عليه الا يغفل عن المقهى .

وظلت ام حسن شبه نائمة . لم تفتح عينيها تمامـا ، ولكنها ، بين اليقظة والرقاد ، رأته يغادر البيت ، فتقلبت في فراشها وغمغمت مخمورة بنشوتها ، تعبة من شبق بذلتفي اروائـه كثيرا من قواها .

ولقد لاحظ الطروسي انها ، عقب كل ليلة كهذه ، تنام ملء جفونها حتى الضحى، واذ تصحو تكون موردة الخدين ، موفورة الصحة ، ريانة كفرسة سقيت في المساء ، واذ ذاك يشتهيها مرة اخرى ، وتكون هي متفتحة للحب ، يتصاعد من كل مسام جسدهاالابيض الرخص نداء الى استئناف الغيبوبة في لذة الامس ، فيحلو لـه ان يقبلهـا ، ان يعصرها ، ان يأخذهـا بين ذراعيه ، ان يحتويها كقطة اليفة معافاة ، وان تظل هكذا ، في قميص النوم ، بدون اغتسال ، بدون زينة، آثار الاحمر علىشفتيها،واختمارالنوم ينضحمن جسمهاالحار.

وكانت هي تحسن استثارته . تعطيه كتفها وتقول له « عض ، عض » وتضع فمها على اذنه وتهمس بكلمات تعرف انها ، من بين سائر الكلمات، هي الاكثر استثارة في مثل هذه المواقف ، وتحرص على مناداته باسماء محببة،وتأتي بحركات وايماءات انثى تنشد اللذة لنفسها ولصاحبها،ولا تتركـه الا وقد تلاشى ، وذابا معا،واصبح كل منهمـا بحاجة الىالراحة والنوم ، فتبسط له عندئذ ساعدها وتقول « نم ، نم يا قلبي، نم علـى زنـدي » .

وتمسح على شعره بكفها ، وتجفف العرق عن جبينه بمنديلها ، وتترك حالها علىنفس الوضع الذي كانت عليه ، نفس العري ، نفس تبعثر الشعر ، نفس تهـدل حمالتـــي

القميص الداخلي على الزندين .حتى اذا نامَ هو منكمشا ، منتهيا ، كانت هي متفتحة ما تزال ،تحس بدبيب النشوة ، وتغفو سعيدة ، تغمغم جوارحها باصداء الكلمات التي سمعتها وتتلمظ شفتاها بما تبقى عليهما من رحيق .

ويستيقظ هو قبل الفجر ويمضي ، اما هي فتظل نائمة حتى الضحى ، حتى قبيل الظهر، مستسلمة الى خدر لذيذ يسري في مفاصلها وعروقها مع الدم .

الشيء الوحيد الذي يقلق حياتها هو الوسواس. الخوف من ان يهجرها كما هجر غيرها،وبذلك تفقده وتعود سيرتها الاولى .

« اذا فقدته فقدت حياتي . سأنتحر بالقاء نفسي في البحر » ثم تقلع عن فكرة الموت قائلة « سابقى، لا بد ان يعود الي، انه يحتاجني لان امراة غيري لا تستطيع ان ترضيه كما ارضيه ولا ان تحبه كما احبه،يا ترى لماذا احبه بهذا المقدار ؟»

وتضحك لهذا السؤال ، فتقول لها زكية ، العجوز التي تعيش معها : « وهو ايضا يحبك .. هذا رجل لا كالرجال يا بنتي ، فحل وشجاع ، لا تحسبي للعمر اي حساب ، فالرجولة ليست في العمر . شباب اليوم لا خير فيهم ولانفع، من يوم رايته في طاقة السجن اشتهيته لك ، ولما ذهبت اليه ظل محتفظا بهدوئه وقال « سلمي عليها » انا يا ستي احببته كما لم احب اي رجل من قبل،انه رجل مهيب، نصف رجال البلد تحسب حسابه،ومن يوم دخل البيت ادركتنا الحماية ورحمة الله . كانوا يرشقون بيتنا بالحجارة ، ويسمعوننا الكلام ، ويتطاولون علينا،فكيف نحن اليوم؟ حتى الدرك في مخفر السجن يعاملوننا باحترام،والمساجين ينزلون عن الطاقة اذا رأوه في الشباك ،وكل جيراننا يسألون خاطرنا بحمدالله»

ـ ولكن لماذا لا ياتي كل ليلة ؟ لماذا يذهب في الليل ؟ هل سألت ؟ وماذا قال ابو محمد ؟

ـ سألته فقال انه لا يعرف . ينام احيانا في المقهى، وينام في غير المقهى ، ويذهب فلا يخبره الى اين،ويأتي فلا يقول له من اين .

ـ ولماذا لا يسأله ؟

ـ سأله ، لكن الطروسي لا يعطي اسراره للناس .

ـ وما رايك انت ؟ هل يحب غيري ؟

ـ ما اظن يا ست النسوان . ولنفرض انه حب غيرك فما قيمة ذلك ؟ الرجل يحب اكثر من امراة،الرجل لا يكتفي بامراة ، وهذه عادة الرجال، لكن الرجل مرجوعه الى بيته ، الى حبيبته . وبيت الطروسي وقلبه عندك فلا تشغلي افكارك ابدا ، ارضيه ، تجنبي كلما يزعله ،واكتبي له عند الشيخ ابراهيم ، وذوبي الورقة في كأس واسقيه . الشيخ ابراهيم يفعل الاعاجيب ، اي المطلقة ، الله يخليك ، يرجعها الى زوجها ، لكن انا مطمئنة انه لا يحب غيرك ، انا اعرف الرجال اكثر منك ، خبرتي فيهم تعجبك » .

وتسألها ضاحكة :

ـ من اين جمعت هذه الخبرة ؟

ـ لا تسألي

ـلا اسأل ؟ كم رجلا اخذت ؟ ومن الذي احببته اكثر ؟

وتقول زكية كل ما عندها . تحكي حكايتها الحافلة وتزيد فيها وقد تتعمد وسوستها فتقول « ما من امراة تشوف الطروسي يا بنتي الا وتشتهيه . المراة لا تحب الا الرجل،ومن في البحارة ، يا عيني ، ارجل منه ؟ الميناء كلها تحكي عن وقعة ابن برو » .

وتبعث كلمات العجوز اشد الخوف فيها ، فتعيش على نوع من قلق لا يتبدد الا وهي بين ذراعيه ، تذوب شوقا اليه كلما سعت الى اطفاء شوقها منه ، وترتعش بلذة لا تعرفها الا المراة التي تسعد بخضوعها العاطفي الى رجل قوي، تعبده

وتمنحه ، في محاولة للارتواء منه ، كل مـا في كيانهـا من حب ودفء .

لقد صغر الرجال الذين عرفتهم في ماضيها جميعا امام هذا الرجل . العمر لا دخل له كما قالت زكية . انها فحولة ناضجـة لرجل مستبد الهيبة ، اذا نظر كانت نظرته نداء لا يمكن للانثى ان تتجاهله طويلا ، فاما ان تهرب واما ان تقع ، ولكنه قلما كان ينظر ، فهو من هذه الناحية ، لا يكترث كثيرا ، ولا يأتي بحركة تساعد على حدوث مغامرة ما ، فعل الـذي عرف كثيرا واصبح قديم نعمة في عالم الهوى والحب .

وهذا بالذات : الهيبة ، وعدم الاكتراث ، والنظرة ذات الفتيل المشتعل ، هي التي اخضعتها بعد طول تمرد ، فاذا ذكرت ماضيها ، وعددت الذين عرفتهم ، شعرت انهم لـم يملأوا حياتها كما يملاها ، ووجدت انهم ، رغـم اختلاف اعمارهم ، لم يكونوا الا اطفالا مسلين ، او مملين ، او فـي الرجولة من الذيـن يمكـن ان يرضوا الجسد ، ولكنهـم عاجزون عن ان يستبدوا بالعاطفة ، ان يروضوها ويخضعوها لسلطانهـم .

ومع انهـا تأبى الخضوع بسهولة ، وتنفر من التضييقات والوصاية ، فانهـا تستجيب للرجل القوي ، وتنقاد لرايه ، بل تجد لذة في معاشرته ، وتبرر ذلك بما سمعته من حق الرجل على المراة . ولربمـا كان استسلامها الحاضر تكفيرا عن تمردها السابق ، فبقدر ما كانت « عفريتة » في صغرها ، طائشة ، عابثة بكل شيء ، اضحت صابرة ، قانعة ، راضية بالقليل . لقد اصبحت فتاة الامس امراة اليوم . صحيح ان جمالها ما يزال محتفظا بروائه ، فالجسم البض ، الرشيق ، ما برح بضا رشيقا وان امتلأ ، والصدر الناهد ، علـى مـا اصابه ، ظل ناهدا مثيرا ، والبشرة البيضاء الوردية ، والعينان الشهلاوان ، الضاحكتان ، والوجه البيضاوي ، كلها تحتفظ

بملاحتها ، بل وتتألق بسبب من نضج الانوثة ، الا ان الافكـار تغيرت ، والطبع سلس ، وعفرتة الصغر استحالت الى شيء من تقدير العواقب . ولو كان ذلك كذلك في ايام المراهقة لما خدعت بذلك السمان الذي استدرجها الى حانوته ، وغرهـا بشبابه ، ثم مناها بوعوده وبعض الطيبات ، فاذا طيباتـه طعم ، واذا هي فريسة . كان السمان ربع القامة ، جميلا ، انيسا ، لم تشعر حياله بايمـا قلق او خوف . وكان حانوته احسن حانوت في حيها القديم ، وقد مرت به كثيرا ، ولعبت الى جواره صغيرة ، وارسلتها امها اليه لشراء الحاجات منذ ما اصبحت قادرة على ذلك .

وهي لا تدري متى وكيف بدأت علاقاتهما بالضبط . كانت عائلتها تستدين من السمان ، وكانت تتأخر احيانا في سداد الدين ، فاذا ما اضطرت الى دين جديد ، لوت عنقها وتحملت المنة . وكان هو يهش لها اذا جاءت الحانوت فـي طلب او شراء ، ويعطيها ما تطلب ، وينظر في عينيها نظرة تشجيـع ، ويحادثها ، بل يمسكهـا من يدها اذا انفرد بها . ثم دعاهـا الى السينما ، واشترى خاتما لبسته خفية ، ثم لبسته علنا زاعمة انها عثرت عليه في الطريق . وتطورت العلاقة بينهما ، وانتقلت الى حب ، واحست والدتها بذلك فمنعتها من الذهاب اليه ، ونهتها عن محادثته ، وحظرت عليها الخروج وحدها ، ولكن شيئا من ذلك لم يجد ، ولم يجد التهديد ولا الوعيد ، بل ولا الضرب نفسه ، وكان اللقاء يتم في مستودع الحانوت ، وهناك احتواها بيـن ذراعيه لاول مرة ، وقبلها ، وقال لهـا احبك ، واشعرهـا الدفء واللذة ، ثم لعب لعبته ، ووعدها بالزواج ، واتخذ منها الهية لعام كامل ، فلمـا اعلنته انها حامل تخلى عنها ، واقلع عن مواعدتها ، وتنكر لعهوده ، وكل ما صنعه انه اخذها الى طبيب اجهضها ، ثم عرفهـا على عائلة استخدمتها بعد ان افتضح امرهـا وهربت من ذويها .

وكان سيدها لسنا ، دمثا ، كريما ولكن فاسقا ، وقد يكون السمان هو الذي زين له امر استخدامها ، واغراه بها ، فلم تمض فترة حتى اخذ يغازلها ، وطفق يراودها ، ويرهبها ، ويرغبها ، ويقتحم عليها غرفتها .

ولم يتأخر امرها ان انكشف . . عرفت سيدتها حقيقتها فطردتها . وخرجت من هذا البيت باسوأ مما دخلته ، وعادت الى السمان باضعف مما غادرته . لم تطالبه كالسابق باصلاح الخطأ ، ولم تحاسبه على فعلته ،بل رجته ان يسمح لها بالمبيت في مستودعه ، ريثما تهتدي الى بيت يؤويها ، او عمل تعتاش منه . وقبل السمان ، وضاجعها ، وفرض نفسه عليها ، واحتملت ذلك على مضض ،نامت معه وهي تستشعر الكره له ،والرغبة في ان تخنقه ،في ان تمزقه او تفقأ عينيه، انما كانت عاجزة شريدة ، وكان لديه المستودع ، واللقمة ، وفي وسعه ان يطردها ساعة يشاء .

هكذا سقطت قبل اثنتي عشرة سنة ولم تستطع ان تنهض ، وربما لم تسع الى ذلك ،او لم تعرف سبيله ، وظلت تهوي درجة درجة ،الى ادنى السلم، وظلت تنتقل ، من يد الى يد ، ومن بلاء الى بلاء حتى سئمت الحياة . عاشت في الزوايا المخمورة ، ورات الوجوه المسيخة ،ومضغت شقاءها وحقدها طوال تلك السنين . لقد خطب ودها كثير من الرجال ، وحاول بعضهم اصطفاءها ، بل منهم من اقسم على الزواج منها ، لكنها ما كانت تحسن الظن بأحد ، ولا تصدق وعدا . انها تعرف ما وراء الكلمات اللطيفة ، وتدرك الاشياء بالتجربة ، وتذكر ايام شقائها ، وترتعش اذ تستعرض وقائعها ، وترتعد فرائصها حين تتراءى لها الوجوه التي عرفتها ، وتشعر بخوف حقيقي اذ تذكر « البلطجي » الذي وضعها تحت حمايته ، وفرض عليها وصايته ، وتاجر بها وابتز اموالها ، فلما هربت منه لاحقها ، ولما قاومته ضربها ،

وتنقلت من مكان الى مكان ، ومن بلد الى بلد ، حتى وصلت اللاذقية وظهر الطروسي في حياتها . كان تعارفهما عاديا ، جسديا بحتا ، ثم تكرر اللقاء ، وتكرر الحديث ، ونمت العاطفة وتآلفا ، ووجدا من الوحدة والشقاء جامعا ، واقترح عليها ان تكون عشيرته ، فرضيت ، وانتقلت الى البيت الصغير الذي فتحه لها ، ونعمت الى قربه بفرحتين : فرحة المرأة التي اصبح لها رجل ومبيت ، وفرحة الطريدة التي امنت شر مطاردها . لقد كان على «البلطجي» ان يدعها وشأنها او يجب استخلاصها من الطروسي . ومع ان الطروسي لم يحدثها بشيء عما وقع بينهما ، ولم يمن او يسأل عن الماضي ، فانها عرفت عن طريق زكية بما جرى بينهما . رآه يوما يحوم حول البيت فخرج اليه . وسأله عما يريد ، وافهمه ان الماضي مضى ،وان المرأة اصبحت في بيته،وان التحرش بها يعني التحرش به بل اكثر من ذلك : الاعتداء على حرمته ،وخيّره بين ان يكف او يرغمه على ذلك ، وتركه يفكر . وادرك الرجل ان فريسته افلتت ولا فائدة من ملاحقتها ، فغادر المدينة ليبحث عن غيرها ، واقبل الطروسي عليها يقول « انت لي بعد اليوم ، ومعنى هذا ان انسانا لن يمسك ، فاطمئني » .

واطمأنت ، واحبت ، واخلصت . لقد وجدت اخيرا رجلها ، ووجد الطروسي امرأته . وكان قد مل التشرد ،ونزع الى بيت وقلب ، ووجد فيها ضالته . ولما اختار لها اسم « ام حسن » ضحكت قائلة : «اسم صبية ام عجوز هذا ؟»قال: « انا لا يهمني الاسم ، ولكنني افضله على نجوى »وفهمت انه يريدها ان تنسى ماضيها كله ، بما فيه اسمها ، فوافقت . وسعدت باسمها الجديد وحياتها الجديدة، وبات همها الوحيد ان يبقى الطروسي لها ، وان تحتفظ به لنفسها ، وكانت تتساءل : « هل استطيع ذلك ؟ وكيف ؟» .

١٩

لم يصادف الطروسي احدا حول المقهى . ولم يعد اليه رجال الامن ، فنام في مقهاه بقية الليل . وداعب ابو حميد ذكرياته واغفى عليها ، فلما افاق باكرا خرج الـى السوق ليستمع الى مصطفى خادم الجامع يتحدث عن ميزان النوم.

فقد زعم مصطفى ان الانسان يحتاج الى رطل من النوم في اليوم الواحد . وقد استقر الراي بينه وبين الحاج محمد السيد على هذا . وكان قد ثار قبل ذلك جدل طويل بينهما حول هذا الموضوع، فالحاج محمد السيد يقول ان النوم لا يوزن ، وان المدة الكافية للانسان منه تتفاوت بين خمس وست ساعات ، وانه يعرف هذا قياسا الى نفسه ، بينما يؤكد مصطفى ، وكان مفرما بالجدل ،انه قرأ في مجلة او كتاب – لم يعد يذكر – ان النوم يوزن ، وان حاجة الانسان منه تقدر برطل ، وقد ينام الانسان يوما كاملا ولا يحصل على الرطل ، بينما قد ينام ساعة واحدة ويزيد نومه على ذلك ، وزعم انه اختبر ذلك بنفسه فوجده صحيحا .

وقال ابو حميد وهو يسمع الى هذا الكلام «ياسبحان الله،حتى ميزان النوم اخترعوه، يمكن هتلر هو الذي اخترعه».

فانكر مصطفى هذا الزعم ، واكد ان الذي اخترعه ليس هتلر ولا المانيا ، وهو يذكر ان المجلة التي قرا فيها الخبر لم تأت على ذكرهما مطلقا .

– يمكن نسيت .

– لا يا ابو حميد ، ذاكرتي قوية والحمد لله . هتلرعنده

اختراعات اقوى ، ولكن رطل النوم ليس من اختراعه .

– اذن من اختراع الانكليز !

– ولا من الانكليز

– كيف ؟ لا من الانكليز ولا من الالمان ، اي معقول ؟ ممن اذن ؟

فضحك مصطفى وقال :

– اي الدنيا ما فيها غير الالمان والانكليز ؟ انت يا ابو حميد ، ولا مؤاخذة ،حصرت الدنيا كلها في الدولتين ، فكل مسألة اما ان تكون المانية او انكليزية ولا ثالث لهما ، قراءاتك خفيفة .

فتدخل اسماعيل كوسا قائلا :

– بل معدومة .. ابو حميد لا يكتب ولا يقرا اصلا .

فاعترف :

– اي نعم ، من هذه الناحية فالصو ، لا افرق بين الالف والمئذنة ، ومع ذلك افهم .. كيف خي اسماعيل ؟

– وفهماتك خفاف ، لا تشد يدك !

فاعترض مصطفى :

– لا والله ، ابو حميد يعجبني ، الكلمة عنده كلمة .

قال اسماعيل :

– كلمتك انت يا شيخ مصطفى هي الكلمة،لا كلمته هو ..

فقال ابو حميد مستثارا :

– اي نعم، كلمة الشيخ مصطفى يا سيدي ، انعم واكرم، خوجايتنا عالم والحمد لله ،ما مثل ..لا تجبرني احكي هه !

فضحك اسماعيل كوسا من قلبه . لقد استطاع ان ينرفز ابا حميد ، وان يعكر مزاجه من الصباح . ودخل الشيخ مصطفى الى الكتاب لتعليم الاولاد ،وتوجه ابو حميد الى مقهى ابي زكور ، بعد جلسته الصباحية امام دكان علي الخياط .

كان الضحى يرتفع .. واولاد حفاة ، مشعثون، يلعبون

وسط الشارع ، وجمال وحمير تمر ، ونساء بالملاءات يسرن ذاهبات آيبات ، والكنيسة المعلقة في نهاية الشارع تنتصب في منتصف الساحة بجدرانها الاثرية وقوسها المتهدم ،والحي قد خلا الا ممن لا عمل لهم ، ومقهى ابي زكور ، على مقربة من الكنيسة ،يستأنف حياته المعتادة ، ومن جوفه تنبعث رائحة التبغ والتنباك ، وتتعالى ضربات احجار النرد ، وفي صدره وزواياه يتجمع بعض شاربي النراكيل .

لقد نام ابو حميد نوما قليلا ، حصل فيه على رطل من النوم ، وهذا هو المهم . ذلك انه من بين سائر اقوال مصطفى خادم الجامع اغرم بمسألة « رطل النوم » فصدر يكثر السهر اعتمادا منه على ثقل نومه ، وكان يفكر قائلا :« لو عملنا مصطفى من جماعة يونس لحصل لنا نفع عظيم ! » وكان ،في هذا ، يحسب حساب نفعه الخاص ، لانه سيتمكن بواسطته من فهم بعض الكلمات التي تفوته فيتحسر عليها ، لان فواتها كثيرا ما قلب المعنى المقصود ، وافقد اخباره قيمتها . اما بالنسبة الى المانيا فان الربحهائل ولا شك،لان حي الشحادين لم يكن يعرف من الكتب والمجلات الا القليل النادر ، وكان الذين يقرأون اندر ، وبحكم هذا اصبحت لمصطفى مكانة محترمة ، وقد تعرض الى بعض الانتقادات ، وخاصة من الحاج محمد السيد الذي رآه يقرأ فيكتاب « الموجز في الكيمياء » معتزلا الناس،لا يترك القراءة الا في اوقاتالصلاة.

ولم يكن مصطفى يفهم شيئا من هذا الكتاب الذيوجده عند علي الخياط ، ومع ذلك ثابر على قراءته ، وكل غايته ان يأتي بجديد من امثال نظرية النوم . وقد قال لابي حميد يوما « اذا وجد من يفك هذه الطلاسم فانه يستطيع صنع الذهب من النحاس » فقام ابو حميد وحمل هذا القول الى الحاج محمد السيد والى كل من رآهم ،وزاد عليه ان مصطفى نفسه سيصنع اكسير الذهب،وعندئذ ازدادت النقمة عليه ،

وقالوا ان خوجايتنا فسد وربما جن،الا انه عرف كيف يبدد هذه الاقوال ، ورد على الحاج محمد قائلا « اطلب العلم ولو في الصين ، ونحن نطلبه في حينا والتوفيق من الله !»

ومضى في القراءة وفي طلب العلم ، وكان معجبا بالمتحررين من العلماء اشد الاعجاب ، ويستشهد بالشيخ محمد عبده وغيره ، ولا يبالي بما يقال ولا بما قد يتعرض له .لقد أصبح من احرارالفكر،بل من شهدائه في نظرنفسه، وبات يتطلع فيخروجه عن المألوف الى سيرة كسيرةطهحسين «هذا ايضا كان شيخا ازهريا ثم صار دكتورا ، المعطي هو الله » لكنه كان يتساءل في ذات نفسه « هل تحتمل البلاد العربية اثنين من هذا الطراز : انا في سورية وطه حسين في مصر ؟ ومن الذي سيتفوق على الاخر في النهاية ؟ »

ثم ان مصطفى كان خطيبا ذرب اللسان ، وله مواقف خطابية تذكر ، الا ان ابا حميد استحسن من كل ارائه ما سمعه عن« رطل النوم » ،ورغمسهرته الطويلة امس ، شعر هذا الصباح انه نام رطلا وزيادة . وعلى هذا غادر البيت منشرحا مسرورا ، فلما مر بدكان علي الخياط كاد اسماعيل كوسا ان يفسد عليه صباحه ، لكنه ما لبث ان عاد الى صفائه بعد ان ترشف قهوته عند ابي زكور ، فرفع عصاه باتجاه الكنيسة المعلقة التي بناها الرومان وقال :

— سبحان مغيرالاحوال (والتفت الى من حولهواضاف) اذا كان الرومان انقلعوا من هذه البلاد فهل تبقى فرنسا ؟

فرد عليه او زكور قائلا :

— فشرت وحياتك ، لولا الحرب ما بقيت يوما .

وقال ابو حميد :

— وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم . الحرب ! اي اسألوني انا اين صارت الحرب ؟ هتلر عاد الى الهجوم في روسيا !

ـ ومن اخبرك ؟
فابتسم ابتسامة العارف بالاسرار وقال :
ـ لا ، الاخبار نعم ، اما من ايـن تأتيني فـلا .. لا تورطوني وتورطوا انفسكم ، السر اذا تعدى اثنين شاع ،وانا رجل كتوم لان المجالس بالامانات ، يكفي ان تسمعوا ،اخباري صحيحـة مئة بالمئة ، هل كذبت عليكم يومـا ؟
ـ باطـل !
ـ اذن اسمعوا اليوم هذه الخبرية الجديدة ، الانكليز يطلبـون الصلح .

حاولوا استيضاحه ومعرفة التفاصيل، الا انه امسك عن ذكر اي شيء،ولعله نديم لانه قال ما قال ، فمثل هـذا الخبر مكانه مقهى ابن آمنة في الشيخ ضاهر لا مقهى ابي زكور فـي الشحادين .

انه يسمع الاخبارفي البطرنة ،ثم يقسمها حسب اهميتها ويخص كل مقهى بما يتلاءم معمكانته وزبائنه، فاذا كانتلديه اخبار هامة لا يذهب الىالشغل،ولا يجلس في مقهى الحي، بل يتوجه الى الشيخ ضاهر ،الى حيث « الاوادم الذيـن يسمعون ويفهمون .. ما مثل اولاد الشحادين الذين تدخل الكلمة رؤوسهم من طرف وتخرج من طرف » .

ثمة اوقات كان يرتد فيها الى الحي ارتدادا مفاجئا ، ذلك حين يعاكسه « الاوادم » في مقهى ابن آمنة ، او حين يشتاق الى « الدراويش » الذين يسمعونويصدقون وينقلون الاخبار حتى تسبقه الى مقهى ابن آمنة نفسه ، فيضحك اذ ذاك ويقول لمن يريد تسجيل ظفر عليـه « هـذه من بعض منسياتنا يا عم ، هات غيرها » فاذا اعياهم الاتيان بخبـر جديد ، قذفهم هو بآخر اخباره ، فاذا لم يكن من الاخبـار الخارجية كان من الاخبار الداخلية ،واسنده فورا الى يونس: « سمعته امس، من الفم للاذن » فاذا لم يصدقه الحاضرون

اغتاظ وقال «طيب، انتظروا تروا ، اعمال السياسة شـيء واكل الهواء شيء،لا بد ما يأخذ الخبر حقـه ومستحقه ثم يذاع على الناس ، رجلي في اكبر سياسي ، انا رب السياسة، راح تضطروني اصرح اكثر من اللازم هه » ويتناثر لعابه في وجوه من حوله فيسكتون ، فاذا تمادوا في استفزازه انقطـع عن مقهى ابن آمنة واستقر في مقهى ابي زكور حتى يحصل على خبر كبير ، خبر لا يستطيع احـد المناقشة فيـه او التشكيـك في صحته .

وانتهى شرب القهوة ، واحترق راس الناكيلة كله ،فلف ابو حميد النربيش ، وقطع الطريق الى الرصيف الاخر ،وحلق ذقنه عند ابن المز ، واخذ الدرب الى الشيخ ضاهر ، ودلف الى مقهى ابن آمنة راسا :
ـ السلام عليكم ياشباب !

كان الشباب يلعبون الورق والنرد ، فانتحى ركنا قصيا وطلب فنجان قهوة .ثم جاء اسماعيل كوسا وجلس معـه يحاول مصالحته،وجاءآخرون حتى زادت الحلقة عنالمألوف، ورغـم ذلك لم يتكلم .
سألوه : ـ ما هي الاخبار اليوم ؟
ـ سلامتكم ، ما عندي شيء !
ـ ما صحيح ، على لسانك كلام
ـ لا كلام ولا ما يحزنون ..
ـ خلصنـا
ـ ما عندي شيء ، صدقوني
ـ ما صحيح ، انت ابو الاخبار .
ـ ولك ابني للاخبار مواسم ، مثل صيد السمك ، اي في كل يوم يوجد صيد ؟ لا والاخبار كذلك .
ـ واين سهرت البارحة ؟
ـ لا تسألـوا .

قال اسماعيل كوسا مازحا :
ــ سهر مع احدى الستات
ــ لا اسماعيل ، انت غلطان ، من هذه الناحية راحت علينا ، سهرة الرجال مع الرجال ما مع الحريم ، كنت مع جماعة « زكرتية » مثل افضالكم ، اتركوها مستورة ولا تحرجوني .
ــ اي خلصنا .
ــ ما عندي شيء .
ــ طيب وكيف الحالة ؟
ــ مليحة .
ــ سمعت اين وصل الالمان ؟
ــ لا .
كان الذين حوله ادنى مقاما من الاخبار التي عنده، فنظر في المقهى نظرة مطرب او صاحب جوقة ، ووازن بين اخباره والجالسين فأخذته العزة فياخباره،ورفض ان يتكلم باصرار
قال رجل معروف بانه يبيع التبغ المهرب على « عينك يا تاجر » :
ــ ما من عادتك ابو الحمد ، هات من عندك .
ــ هات من عندك انت .
ــ اخباري معروقة ، البارحة كبسوا بين النعنوع .
ــ وضبطوا شيئا ؟
ــ ضبطوا هذا (وبسط كفه فوق الطاولة مرفوعة الاصبع الوسطى في ضربة قوية)
ــ يعني مثل العادة .
ــ واكثر ، اكلوها بهدلة ، بيت السبع لا تدخله الكلاب ابو الحمد .
ــ والدخانات ؟
ــ تهربوا ، الحريم وحدها عملت الشغلة ، وحياة

شواربك الرجال ما تدخلوا.كنا منتظرين حتى تحمى الحديدة، لكنهم انصرفوا بسلامة . قلنا لهم انتم اولاد عرب مثلنا ، ما راح نؤذيكم ، ابعثوا الفرنسيين .. اذا كان فيهم رجال خليهم يدوسوا الشحادين .
ــ وماذا قالوا ؟
ــ لفوا ذنبهم ومشوا .
ــ آه يا سباع !
ــ انت السبع هات من عندك ، اي نشفت ريقنا ، خلصنا !
ــ والله ما عندي شيء. كانت الدنيا « فرتونة » (١) البارحة ما طلعت معي برلين .
ــ وانت يا عم اسماعيل ؟
ــ انا اخباري داخلية . سمعت في البازار ان الجماعة في الشام سيقومون بحركة .

قالها باهتمام وخطورة فاشرابت اليه اعناق الحاضرين، وتجمعوا اكثر حواليه ، ولم يستطع ابو حميد نفسه ان يبقى لا مباليا .
ــ حركة ؟
ــ اي نعم ، ويمكن ان تقوم في الشام وحلب وحماة وحمص واللاذقية بوقت واحد .

اسماعيل كوسا ملاك متوسط ، يعيش من املاكه ،وهو لا يهتم بالسياسة عادة ، ثم ظهر الان وهو غارق فيها حتى اذنيه ، فمن اين هبطت عليه هذه الحماسة؟ وما هي هذه الحركة التي ستقوم في الشام ؟

(١) « الفرتونة » و « النوية » تعبيران بحريان مستعملان لدى كل بحارة الساحل السوري واللبناني ، والمقصود بهما : « النوء » .

قال اسماعيـل :

ـ انا هكذا سمعت ، وما سمعته صحيح ، الحركـة لاجل الاستقلال .

وتعجب الحاضرون فقال ابو حميد :

ـ لا تتعجبوا ، لا حركة ولا من يحزنون .. الكتلة راح تتسلم الحكم .

ـ كما تسلمته عام ١٩٣٦ ؟

ـ وارذل !

ـ يا حبيبي !

وضحك الحاضرون ...

وشاء اسماعيل كوسا ان يرد على ابي حميد ، الا ان هذا قال كلمته ونهض ، ثم اختفى كأنما ابتلعته الارض . فقد ابصر ابا محمد يشير اليه من باب المقهى ،فادرك من فوره ان الامر يتعلق به شخصيا ، وان الطروسي لم يبعث في طلبه لو لم يكن ثمة ما يستدعي ذلك ، فنهض وغمز ابا محمد الى الداخل ، وسار به الى زاوية وسأله ملهوفا :

ـ ماذا جرى ؟ سألوا عني من جديد ؟

ـ سألوا وبس ؟ يبحثون عنك في كل مكـان ، فاسرع واختبىء ، لا تبق في المقهى لحظة واحدة .

ـ الى هذه الدرجـة ؟

ـ واكثر ، اعتقلوا جماعة الالمان كلهم .

ـ يالطيف ! ومن قال هـذا ؟ الطروسـي؟ اما اوصاك ايـن اختبىء ؟

كان من الارتباك بحيث فقد الصبر على توجيه السؤال وانتظار جوابه ، وفقد القدرة على تدبير اموره بنفسه، وبدا كمن يريد ان يعرف كل شيء دفعة واحدة ، ويضع يده في يد اي انسان يقوده الى الخلاص من ورطته ،ويرشده الى طريق الهرب ويشجعه عليه .

قال ابو محمـد :

ـ عرف الطروسي الخبر من نديم مظهر ، وعاد رجال التحري الى المقهى يسألون عنك ، والظاهر انهم يريـدون توقيفك ، لانهم يبحثون عنك من الصباح ، وقـد شاغلهـم الطروسي بالقهوة والنراكيل ، وبعثني في عربة حنطور اليك. اذهب الى حي الشحادين ولا تخرج منه ، فلا يستطيع احد ان يطالك هناك .. هكذا قال الطروسي .

وافترق الرجلان : رجع ابو محمد الى المقهى، ودخل ابو حميد المرحاض ، ثم تسلل من باب خلفي وقصد الشحادين على عجل ، مجتازا الازقة ، متجنبا الشوارع العامة . كان يسير مهرولا ، ويخب بحذائه البلدي ، وينحني بجذعه الطويل الى امام ، فاذا ما علت وراءه حركة او صوت ، اضطرب وتوهـم انه المقصود فتلفت واسرع .

وتابع الجالسون في المقهى نقاشهم .كان اسماعيل كوسا مسرورا الى درجة ان كلمات ابي حميد لم تبلغ ان تعكر صفوه انما لم يرتح الى هذا الهجوم السافر على الكتلة، ولا الى هذا التعريض الساخر بها ،وفهم ان الخطوة الاولى تحتاج الـى تمهيد ، وانه لا بد من الرد على الخصوم ، والتعليق على مـا قاله ابو حميد الذي تبخر ولم يعـد الى الحلقة.

قال :

ـ تعصب ابي حميد لهتلر انساه مصلحة البلاد ، انظروا (واشار الى الشارع حيث كـان اربعـة مـن حرس المرشد يسيرون ببنادقهم وكوفياتهم التـي عليهـا شعار الشمس، واضاف) : هؤلاء هم اعداؤنا ، هل نسيتم مـا فعلوا ؟ هل نسيتم كم فتكوا وسلبوا وقطعوا الطرقات ؟ لقد شجعت فرنسا المرشد على الانفصال ، وجعلت من محافظة اللاذقية دولة ، ورتبت للمرشد الحرس والقضاء ، وعينـت محافظا يأتمر بأمره ، فهل تريدون ان يستمر كل هذا ؟

كانت ذكريات المرشد ندية ما تزال ،بل كانت بعض مظاهرها ماثلة للعيان ، وكان حرسه موضع كره وبغض، فاذا مر في الشارع شتمه الناس وشتموا فرنسا معه ، وتحركت احقادهم ، وتمنوا ان يمد في آجالهم حتى يروا المرشد معلقا على المشنقة . وقد لامس اسماعيل كوسا وترا حساسا في نفوسهم فسالوه :

— وكيف نتخلص من المرشد ؟

— بعودة الحكم الوطني ورجوع الدستور ومجلس النواب وتوحيد البلاد . لقد تعهد بهذا كله الجنرال كاترو باسم فرنسا الحرة .

— وممن سمعت هذه الاخبار ؟

— من الكبار .

علت اصوات الحاضرين :

— حط في الخرج .

وقالوا :

— لا تصدقوا فرنسا ، ياما وعدت وياما اخلفت ، هذه وعود حرب لا اكثر ، وقت الفصة يفكرون فينا ويتملقوننا لنمشي معهم ، حتى اذا انتصروا لحسوا وعودهم ونكلوا .

— فرنسا غدارة .

— والانكليز اغدر .

وسألهم اسماعيل كوسا بعد ان اصغى الى كل هذه الاقوال :

— وايطاليا ؟ اما قتلت عمر المختار ؟

— نحن لا نحب ايطاليا ، جربنا فرنسا وبريطانيا ويجب ان نجرب المانيا .الحلفاء يلاطفوننا اليوم لانهم في ورطة ، فاذا خلصوا منها غدا علقوا مشانقنا . الاستقلال يؤخذ ولا يعطى ونحن لا نؤمن بالوعود .

ازاء هذه الاعتراضات والحجج القوية غيّر اسماعيل

كوسا لهجته . وكان مكلفا بجس النبض والتمهيد للجو ، وكان كثيرون غيره يقومون بهذه المهمة ،وقد دعي الوجهاء والمخاتير للاجتماع ، ووصل موفد من دمشق لهذه الغاية ، وقال انصار الكتلة :« البلاد ستمشي مع الحلفاء طالما انهم يحتلونها، فاذا لم تمش بالرضى مشت بالاكراه ،ومن الانسب ان نتفاهم ونحصل على الاستقلال ويعود الدستور والحياة النيابية ويقوم حكم وطني وتجري انتخابات حسب الاصول » .

وقال آخرون « المسألة ليست مسألة اكراه ،بل مسألة واجب ومصلحة وطنية . النازية افظع خطر عرفه العالم ، وعلينا ان نقاومه ، والصحيح ان نأخذ الاستقلال وندافع عنه» .

وصاح انصار المانيا : بلا خلط ، ليس هناك واجب ولا مصلحة .

واتكأ اسماعيل كوسا على كرسي قربه ، وسأل المتحمسين لالمانيا :

— وما رايكم بالمرشد ؟ هل تريدون ان نبقى تحت رحمته ورحمة المحافظ الكراكوز الذي اقامه في السراي ؟ اذا قام الحكم الوطني ، ولو بوجود فرنسا موقتا ، تسلمنا الدرك والشرطة ، وانضمت اللاذقية وجبل الدروز الى الشام،وجاءنا محافظ وطني ، وحاصرنا المرشد في « جوبة برغال » حتى نصفي حسابه .

وقال الاستاذ كامل ، معلم التجهيز الذي انضم الى الحلقة :

— اقوالكم صحيحة ولكن عندي بعض الملاحظات . .

وسر اسماعيل كوسا لوجود الاستاذ في الحلقة فقال مشجعا :

— تفضل استاذ ، ما هي ملاحظاتك ؟

— ملاحظاتي بسيطة . قلت انت ان الحكم الوطني

سينقذنا من فرنسا والمرشد ، وهذا صحيح ، وقال الاخوان اننا نشك في وعود فرنسا وبريطانيا وهذا صحيح ،وقالوا ايضا ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى وهذا حق ، ولكن المسألة ان فرنسا وبريطانيا لن يعطيانا الاستقلال بل نحن الذين سنأخذه . اننا ننسى كفاحنا وشهداءنا ، ننسى ان فرنسا تسلم باستقلالنا مرغمة لانها تعرف اننا سنحصل عليه بالقوة . الدنيا تغيرت يا اخوان ، وروسيا الى جانبنا . لقد وعد الحلفاء الحسين ولحسوا وعودهم ، ولكن ذلك كان قبل ٣٠ سنة ، وخلال هذه الاعوام تبدلت الدنيا واصبح من الصعب عليهم ، اذا حزمنا امرنا ، ان يخدعونا مرة اخرى . ومن جهتي لا ادري لماذا نعلق آمالنا على المانيا . هتلر صنف العرب في آخر قائمة الشعوب ، وسيحتل بلادنا اذا انتصر ، ويفرض علينا حكمه النازي ، وهل تعرفون ما هي النازية ؟انها اللعنة.

قاطعه رجل يجلس قبالته وقد ارسل يده في الهواء علامة الرفض :

ـ بلاها استاذ ! هذه الفلسفة نقرأها في الجرايد كل يوم . جربنا فرنسا ولازم نجرب الالمان .

لم يتراجع الاستاذ ولم يحتد ، قال :

ـ لو كانت المسألة وجبة طعام قلنا معك حق ، ووافقنا على التجربة ، ولكن حياة البلاد لا تسمح بالتجارب . هتلر احتل اوروبا كلها تقريبا ، ولم نسمع انه اعطى الاستقلال لاحد ، وشعوب هذه البلدان تئن من الظلم وتموت من الجوع وتكافح في السر والعلن وتسأل الله الخلاص .

ـ الحرب لا ترحم .

ـ وما ذنب الناس حتى تشعل المانيا الحرب كل كم سنة مرة ؟

ـ بلادها ضيقة .

ـ اتفقنا اذن ، هتلر يريد التوسع ، يريد احتلال العالم!

ـ وفرنسا والانكليز ؟ صاروا اوادم ؟ صاروا من الابرار الاخيار ؟ اين فهمك يا استاذ ،والا الوظيفة ؟

تدخل اسماعيل كوسا وقال :

ـ احسموها يا شباب ، نحن نتبادل الراي فلا تدخلوا المسائل الشخصية في النقاش .

وعاد الاستاذ الى الكلام قائلا :

ـ فرنسا وبريطانيا دولتان استعماريتان ، وهماعدوتان لدودتان لنا ، ولكن المانيا دولة مستعمرة ، وعدوة ايضا ، فلماذا نريد انتصارها وهي لن تنتصر ، ومن الخير الاتنتصر؟

ـ الالمان سينتصرون من كل يد ، ومن سيقف في وجههم؟ الروس ؟ غدا تسمع باستسلامهم ، هذا هتلر استاذ !

قال الاستاذ :

ـ دخول الالمان الى روسيا لا يعني احتلالها ، قبل هتلر دخل نابليون ، فماذا كانت النتيجة ؟ هذه موسكو وليست باريس .

لم يجب الرجل المتحمس لالمانيا وهتلر . ويبدو انه لا يعرف نابليون ولا قصته في روسيا ، او انه آثر الصمت لدخول احد الغرباء ، فاكتفى بوضع رجل على رجل وقال :

ـ الايام بيننا ...

وابتسم الاستاذ وقال :

ـ هذا احسن جواب ..

القسم الثاني

١

تصرّم عامان ونصف العام ..

وجلس نديم مظهر في مرآب الشيخ ضاهر الكبيـر وحوله بعض وجهاء الحي ، وامامه ساحة المدينة الرئيسية .

الساحة شبه مستديرة ، تقوم المقاهي على الارصفة الثلاثة المحيطة بها، وتقف في جوانبها ووسطها بعض السيارات وعربات الحنطور ، ومنها تتفرع الشوارع والازقة ، وعبرها تمر الطريق الرئيسية الآتية من مدخل المدينة ، وفي مواجهة المرآب يقع مخفر الشرطة ، وثمة حديقة صغيرة عمومية محاطة بسياج حديدي ، ومدرسة تجهيز البنين ، وبعض المطاعم ، ومحطة للبنزين .

كانت الانتخابات النيابية قد جرت منذ عامين، وتسلمت « الكتلة » الحكم ، وقام في البلاد اول برلمان بعد الاستقلال واول رئيس للجمهورية ، واصبح في يد الحكومة الوطنية الدرك والشرطة ، وظل الجيش وبعض المؤسسات في يد السلطات الفرنسية، كما ظل لها جهاز استخبارات خاص بها، ومثله للقوات العسكرية الانكليزية الموجودة في البلاد ،واصبحت السلطة ، على هذا النحو ، ثلاثية الاطراف ، وان كانت ، ظاهريا ، في يد الحكومة الوطنية، وخاصة من الناحية الادارية، وظل جلاء القوات الفرنسية والانكليزية رهنا بانتهاء الحرب.

وبسبب من ذلك كانت البلاد تعيش في ترقب وقلق . لقد تمزقت الجيوش الالمانية في روسيا وانحسر ظل الحرب

فلم يعد ثمة تشديد على خنق الانوار ، ولم تعد الجموع تزدحم على الافران ، واصبح الكاز موفورا الى حـد ما ، وازدادت الحركة في الميناء ، وقوي نفوذ ابي رشيد بسبب نجـاح « الكتلة » في الانتخابات وتسلمها لمقاليد الحكم .

كانت اللاذقية ، كسائر المدن السورية ، فرحة بالحكم الوطني، متحمسة له ، الا انها تتطلع، كغيرها الى استكماله ، واستخلاص ما تبقى في يد فرنسا من مؤسسات، وفي مقدمتها الجيش . ثم انها ، اضافة الى ذلك، تعاني مشكلة خاصة ؛ هي مشكلة المرشد الذي يهددها صباح مساء .

لقد تسلمت « الكتلة » الحكم وسط معارضة الذين مع المحور ، وانتقادات الذين يريدون الاستقلال فوريا ناجزا ، وكانت ترتكز في حكمها على بعض عناصر الاقطاع ، فاستغل هؤلاء الحكم لمصلحة طبقتهم ، وبدات الحكومة تتقاعس ، وتتناحر ، وتتلكأ، فاتحة بذلك ثغرات واسعة للهجوم عليها ، وقيام معارضة برلمانية وشعبية ضدها .

وكان وجود الفرنسيين والانكليز في البلاد يضطر الحكومة والمعارضة الى اتخاذ مواقف متقاربة في القضايا الخارجية ، الا انهما ، في الشئون الداخلية ، كانتا على خلاف يصل الى حد التضارب في البرلمان . ولم تكن المعارضة فئة واحدة، كان بعضها من كبار الاقطاع ، وبعضها من صغار المزارعين والتجار ، ولها شعبية غير قليلة ، وتهدف الى زحزحة « الكتلة » وتسلم الحكم .

وكان المستعمرون ينشطون ليل نهار : يتصلون ببعض الحاكمين ، ويتصلون ببعض المعارضين ، ويؤلبون فئة على فئة ، ويجهدون لبعثرة الصفوف ، ويفرون بواد الحريات ، ويدفعون الى مكافحة اليسار ، ويروجون لمشاريع « الاتحاد »، ويخلقون المزيد من الصعوبات .

وكانت فرنسا تعمل لحساب الاستقلال ، وبريطانيا تنشط لطرد فرنسا والحلول محلها ، ودعاة الملكية يسعون لنسف الجمهورية ، والجماهير تطالب بالجيش والجلاء ، وكان الكفاح يتسع ، والمناقشات تحتدم في كل مكان .

وراح نديم مظهر يتحدث الى جلسائه في المرآب فقال :

ـ سمعت ان بعض المعتقلين في « المية ومية » سيفرج عنهم قريبا .

ـ اذن تدخلت الحكومة لاجلهم اخيرا .

ـ نعم تدخلت ، ولكن لابقائهم لا لاخلاء سبيلهم !

ـ وكيف سيفرج عنهم اذن !؟

ـ انا قلت سيفرج عن بعضهم ، عن الذين كانوا مع المانيا وتابوا ، اما الوطنيون الذين هم ضد فرنسا والانكليز و ... (نظر الى الصورة وراءه) ضد الجماعة ، فلن يطلق سراحهم .

ـ والدكتور صبحي ؟

ـ ما اظن ، الانكليز يعذبونه ، ولن يتركوه بأي حال ولكنه سيخرج ويعود بالرغم عنهم ، الدكتور امل البلاد ، ويكفيه فخرا انه جاهد في فلسطين ، وترك عائلته وعيادته وذهب يقاتل الاعداء .

قال رجل من الحاضرين :

ـ والله صحيح ، الدكتور مفخرة ، وقد سمعت انه في الطب يفعل المعجزات ، فقد اصيبت بنت احدى العائلات بالهزال حتى خشوا عليها السل ، وعجز الاطباء عن فهم مرضها ، فاخذوها اليه ، ونظرا لان اهلها متعصبون ، ويفضلون ان تموت ابنتهم من ان تنكشف على طبيب ، طلب منهم ان يربطوا بطنها بخيط ، ووضع نهاية الخيط في اذنه تحت السماعة ، فعرف مرضها . كانت البنت حبلى .

احدثت القصة دهشة في الحاضرين ،وبان السرور على وجه نديم مظهر فقال :

– هذه معجزة ، ولو اراد الغنى عن طريق الطب لاصبح اغنى اغنياء المدينة ، لكنه فضل ان يذهب ويقاتل في فلسطين، بينما الجماعة يتربعون على الكراسي في دمشق ولا يفعلون لاجله شيئا . انهم معذورون لان اشغالهم في تعيين المحاسيب وتنفيع الزلم والاقرباء لا تترك لهم وقتا يهتمون فيه برجالات البلاد . وقد بداوا يهتمون ، مثلا ، بتطويب المدينة باسمهم واسماء زلمهم ، وامس سمعت انهم يدفعون احد اصحاب السيارات لفتح « كراج » في الشيخ ضاهر بقصد التحرش بنا ، فتأملوا !

وصاح الحاضرون :

– خسئوا .

وقالوا :

– يدهم وما تطول ، اذا كانوا قد استولوا على الميناء، فلن يستولوا على الشيخ ضاهر .

– اهذا ما كنا ننتظره منهم ؟

قال نديم :

– وماذا تنتظرون اذن ؟ ان يقبضوا على المرشد ؟

– وماذا يفعل المحافظ ؟

– يتلقى تعليمات النواب .

– والنواب ؟

– ينامون في المجلس ! هل سمعتم صوتهم ؟ ابدا ، اقراوا الجرايد تعرفوا كيف يتكلم نواب حلب وحماه وحمص، وكيف يدافعون عن حقوق محافظاتهم ، هكذا يكون النواب ، اما عندنا فانهم يقضون مصالحهم الخاصة ، ولا يهتمون الا بتطويب الاراضي ، وتسليط فلان على فلان ،والسفر الى دمشق .. والعودة منها .

– اما تربّوا من سنة ١٩٣٦ ؟

– لا ، ظنوا انهم وصلوا ، وغدا يتحرك المرشد وتبدا حركات الانفصال من جديد ، فمن يقف في وجهه ،دولة بدون جيش ، عمركم سمعتم هذا ؟

– ومتى يتسلمون الجيش ؟

– حتى تفي فرنسا بوعدها !

– ومتى تفي فرنسا بوعدها ؟

– مرحبا وعد ، هي اعطته وهي تلحسه ،كنت البارحة عند خيري بك فقال : «المعارضة لن تسكت بعد اليوم ، فاذا كانت الحكومة ضعيفة فنحن اقوياء ، نحن نعمل ..»

– وهم يعملون ، ولكن ..!

قال نديم :

– نعم ، نعم ، يحاولون الاستيلاء على الشيخ ضاهر ، اليس هذا عملا ؟

رن جرس الهاتف . كان المتكلم احد العاملين في المرآب، وهو يشكو تأخير تحميل الشاحنات في المرفأ ، فوضع السماعة وقال :

– وهذه من اشغال نوابنا ايضا . السيارات تنتظر في المرفأ وزلم ابو رشيد يعرقلون تحميلها ،فاذا اشتكينا قالوا الحق علينا،واذا قاومنا تدخل النواب والمحافظ وهددونا .. سأذهب وارى بنفسي .

تناول خيزرانته من الزاوية وصعد الى سيارة شحن فركب بجانب السائق وهو مغضب ، ونهض الجالسون فغادروا المكتب ، وعلت الجلبة في الساحة لان طلاب التجهيز قد انصرفوا ، وظهر شرطيان يقودان رجلا الى المخفر ويضربانه ، وهفت رائحة عطرية من امراة تحنجل في مشيتها، وحدقت بها عيون ، وقيلت كلمات !

٢

عرت الاستاذ كامل رعشة لاشعورية وهو يستيقظ من نومه . كان قد عاد من المدرسة فتغدى ونام ،ورأى فيما يرى النائم انه يسير وابنة الجيران في طريق تحف بها الاشجار . لقد اقبلت نحوه من حيث لا يدري ، ونظرت اليه نظرة تشجيع فلم يصدق عينيه ، وتساءل : هل احلم ؟ وقبل ان يجيب على سؤاله كانت قد اقتربت منه والتصقت به حتى احس بأنفاسها على صفحة وجهه وشعر بنشوة غريبة ارتعش لها جسمه وخفق قلبه. فلما اراد امساكها افلتت منه ، وتبعها فلم يلحق بها ، وشاء ان يركض وراءها فلم يستطع ،وجاهد فما افلح ، ثم ابصر بها تطير ، وابصر نفسه يطير وراءها ،ويرتفع قليلا قليلا عن الارض ، ويعجب كيف يرتفع عن الارض ،وبعد ذلك سقط وارتطم وفتح عينيه في غرفته المسدلة الستائر ، فلم تقعا الا على خيوط من نور تتسرب من الباب والنوافذ،واذ ذاك شبه له انه في الصباح ، وان النوم غلبه فتأخر عن ميعاد المدرسة ، فلما صحا تماما تذكر انه في الاصيل،وان هذا وقت راحته ، وسمع اصواتا انسانية صادرة عن غرفة شقيقته ، فتمطى وابتسم واطبق جفنيه يريد الاحتفاظ ببقايا حلمه اللذيذ .

مضت دقائق وهو على حاله ، يستعيد وقائع الحلم ، ويستجمع شتات صوره ، ويتذكر التفاصيل الدقيقة للوجه والعنق ، ويأسف لان ذلك كله كان حلما ، ولان الاحلام تهاويل رغائب ليس الا .

ولكنه كان فرحا ، منتشيا برغم كل شيء. وكان عليه ان ينهض فلا يجد رغبة في النهوض ، وعجب لهذا الاحساس الحلو الغامر ، ولهذه المتعة الروحية السابغة ، ولم يدر الام يردها : الى الحلم ؟ لقد صادف احلاما اكثر اغراء فلم يحدث معه ما حدث اليوم : الى اصوات النساء ؟ انه يسمعها دائما فلا يتأثر بها كما تأثر الان : الى الوقت ؟ يجوز ، كل هذه تعاونت على امتاعه كما يبدو ، يضاف اليها انه نام نوما عميقا قلما يصيب مثله في فترات القيلولة .

اطبق جفنيه وفتحهما ، واطبقهما وفتحهما ،حتى تلاشى الحلم كله ، وحلت اليقظة كلها ، وسعد سعادة غير قليلة ، شأن الانسان المحروم امام اول نفحة من عطاء . ولما كان لا بد له من النهوض فقد مد يده الى ستارة النافذة وسحبها بعنف لينبه امه الى انه افاق ، ولبث كذلك قليلا فاذا بها تدخل عليه حاملة القهوة ، وسألها عمن في البيت فأخبرته خبر النساء الخائطات لدى شقيقتيه ، ولم تذكر ابنة الجيران بينهن ، ولم يلح في السؤال لئلا يثير ريبتها ، وانصرف الى قهوته وسيكارته وانصرفت هي الى عملها .

وحلا له التأمل ففعل ، ولعله ان يكون قد انساق الى ذلك بدافع من فرحته ذاتها ، فثمة اشياء كثيرة تحمله على الفرح : الانتصار القريب على المانيا ، وانفضاح مهزلة النازية، وتحول افكار الناس ، وتحقق الاقوال التي كان يحاج بها خصومه ، واقبال الكثيرين على فهم الجديد الطارىء على الدنيا ، وتوطد صداقاته ، وتعزز علاقته بالطروسي .

ثم ذكر الساعات السوداء التي مرت به : كان هتلر يتقدم ، وانصاره لا تسعهم ارض ، وقد صاح احدهم : « انتهى الامر ، انتصرت المانيا » فاجابه :« لم ينته شيء ،لا تشمروا قبل الوصول الى النهر » واحتد الرجل وصاح :

اكلتها روسيا حتى هنا (واشار بيده الى امتداد اليد الاخرى)
وضحك الحاضرون ، فاستشعر لذلك الما وبغضا ، الا انـــه
حافظ على رباطة جأشه . فأين ذلك الرجل الان ؟ هل غيـــر
رايه يا تـــرى ؟

عادت اصوات النساء وضحكاتهن ترن في اذنيه وتصرفه
عن متابعة افكاره . وهاجته غنة الصوت بشكل ارغمه علـى
الاصغاء ، فتصور الاوضاع التي تتخذها الخائطات عند تجارب
الثياب ، وود لو كان خياطا للنساء ، وتساءل : الا يرى الخياط
كل هذه المفاتن بشكل من الاشكال ؟

وقال في ذات نفسه : « ان ذلك لا يقع في مدينتنا هذه »
ذلك ان المراة لا تظهر للرجل بكامل ثيابها ، فكيف بهـا اذا
تخففت منها للتجربة ؟ ثم ان الخياط لا يفكر على هذا النحو ،
لان حواسه تتركز في العمل ، وربما حملته الثرثرة والمماحكة
وصعوبة ارضاء الاذواق على الكفر بكل ملاحات الوجــــوه
والاجسام ، وانه ليعرف ذلك قياسا الى مـا يسمع من تبرم
شقيقتيه وشكواهمـا المستمرة من هذه المزعجات .

اما بالنسبة اليه فقد اعتاد الجو ، واصبح لا ينتبه الى
الاصوات الا لماما . ولو خير في الامر لاختار الاستقلال في
البيت ، لكنه كان مضطرا الى السكوت لعجزه عن كفاية عائلته
بمفـرده . لقد تمنى طويلا ان تتزوج شقيقتاه كسائر الفتيات
وتغادراه ، ثم تواضعت امانيه فأصبح يأمل بزواج صغراهما
فحسب ، غير ان هذا الامل لم يتحقق حتى الان ، وانه ليأسف
اذ يفكـر في هذا ، لان فقـر عائلته قضى بعنوسة شقيقتـه
الكبرى التي ضحت بمستقبلها في سبيل دراسته ، ثم كبرت
الشقيقة الصغرى ، وتوفي الاب ، وازدادت نفقات الاسرة ، فكان
على الفتاتين ان تعملا ليل نهار للقيام بكل تلـك المتطلبات ،
وعليه الان ان يضحي لاجلهمـا كما ضحتا لاجله .

ان التبعة ثقيلة : ثلاث نساء ورجل واحد ! يا لها من
مسئولية ! ويا لهذا المجتمع الذي اضطر هذه العائلة الى هذا
المصير . لقد فكر في امر عائلته ، وفكر في امر جيرانـه ،
وقارن بين حاله وحالهم فتعزى . وانتقل بتفكيره الى حيه ، ثم
الى مدينته ووطنه ، وخرج بذلك الى رحـــاب الانسانية .
واتصلت اسبابه بأسباب العالم ، وادرك معنى العدالة الاجتماعية
والحاجة اليهـا .

بهذا الشكل اهتدى الى مفهومه السياسي والتزمه ،
واختلف اهله في موقفهم منه : اشبعته والدته تحذيـــرا
وتنبيها ، وقيدته بحبها واشفاقها ، وحبذت اخته الصغرى
فكرته وشكت في نجاحها ، وناصرتها الكبرى بغيـر تردد ،
ورات فيها بارقـة رجاء ، فقد كانت ، كما كان ، على احساس
بالظلم الاجتماعي تتمنى لو تضطرب الدنيـا وتتغير الحيـاة
الرتيبة القاتلـة من حولها .

عادت امه الى الغرفة وبادرته من فورها :
ــ سنسهر الليلة عند خالتك ، فهل تذهب معنا أو تلحق
بنـا ؟
ــ وماذا عند خالتي ، الا يطيب لك السهر الا عندها ؟
خطر له الجيران : لماذا لا تسهر امه عند الجيران ؟ على
انه لم يفاتحها بالامر ، فطالمـا لن يتاح له ان يـرى فتاتـه
فالامر سيان ، ثم هو على موعد مع بعض البحارة في مقهـى
الطروسي ، وسيمكث ثمـة حتى منتصف الليل ، وقد اعتاد
السهر الى ذلك الوقت في اكثر لياليه ، وتعرف امه انه لن
يذهب معها ولن يلحق بها ، ولكنها سألته لتعلم ايـن سيسهر
الليلة ، وهل هناك اجتماع ايضا .
قالت تستدرجـه :
ــ اذا لم نسهر عند خالتك فأين نسهر يا عيـن امك ؟
دلنا على بيت لنسرع اليه (وغمزته ضاحكة) ..

ـ قريبا ان شاء اللـه .
ـ لا اصدق !
ـ نعم ، قررت ان احب .
ـ من فمك الى ابواب السماء ..
ـ ولماذا ترغبين كل هذه الرغبة في ان احب ؟
ـ ليفرح قلبـي !
ـ ليفرح قلبك ، ام لانشغل عن الاجتماعات ؟
قالت ضاحكـة :
ـ لاجل الاثنين .
ـ عظيم ، غدا سأحب ، وسنرى اذا كنت ترضين بالتي احبهـا !
ـ افعل ، حب ، وسأضع التي تحبها في عيوني .
ـ والذين احبهم ؟
ـ في عيوني ايضا ، ولكن ..
ـ ولكن ماذا ؟ الا تعرفين انني احب ؟..
وضحك وفكر : اليس الكفاح نوعا من الحب ؟ لماذا لا تفهم امه عواطفه ؟ وكيف السبيل الى شرحها ؟

٣

لم يدم اجتماع عمال الميناء في مقهى الطروسي الا ساعة وبعض الساعة ، وقد حضر الاستاذ كامل قسما منه ، وبحث مع الحاضرين ـ وكانوا قلة ـ بعض مواد قانـــون العمل ، وشرح لهم مضمونها . فلمـا انصرفوا بقي في الزاوية يقرأ صحيفـة محلية حينا ، ويستعيد ما قاله العمال حينا آخر.

كان طويلا في غير افراط ، ذا وجه اميل الى الطول ، وشعـر أسود ، وبشرة بيضاء ، وعينين صافيتين نفاذتين. وكان صبورا ، يألف الاجواء الجديدة بسرعة ،ويحب المقاهي الشعبية ، ويصغي جيداً ، ولا يضيق بالنقاش مهما تفرع او طـــال .

وكان الطروسي لا يفتأ يراقبه من وراء دكـة المقهى ، ويعجب لحماسته كما عجب لحماسة ابي حميد ، ويتساءل في ذات نفسه عن سر هذا الولع بالسياسة عند الناس ، وكيف يطيقون كثرة الكلام حول موضوع بعينه ، ولمـاذا يتعصبون لارائهم هذا التعصب ، واي شيء هذا الذي حركهم واخرجهم عن طورهم ودفعهم الى ترك قضاياهم الشخصية والتعلـق بأشياء لم يكن يسمع بها من قبل .

فلما عاد ابو محمد الى المقهى ، اقبل الطروسي علـى زاويـة الاستاذ وسأله :
ـ اين صرنـا ؟
ـ على الدرب .

ـ ومتى نصل ؟
ـ من سار على الدرب وصل ..
ـ ولكننا لا نسير ، الجماعة لا يسيرون .
ـ يسيرون ببطء ، هناك بعض التقدم .
ـ هنيئا للصابرين ..
ـ والعقبى للعاملين (وضحك) .
وتطلع اليه الطروسي وضحك بدوره :
ـ لا اصدق انك مقتنع بما تقول . انت تضغط على اعصابك كيلا تنفجر .
ـ ربما .. في الماضي كانت اعصابي تنفجر بسرعة .. اما الان .. هناك بعض التقدم فيهذه الناحية ايضا ، ما هي الاخبار ؟
ـ الاخبار عندك ، ماذا قالوا عن الميناء وابي رشيد ؟
ـ ابو رشيد يعرف انهم يجتمعون في المقهى ..
ـ ومن يشك في هذا ، دعه يعرف ، وليرسل ابن برو آخر اذا اراد .
وشاعت الغبطة في وجه الاستاذ ، فشد على يد الطروسي وقال :
ـ لا عدمناك يا ابو زهدي . اذا اجتمع عمال الميناء وتوحدوا فانت صاحب الفضل الاول في ذلك .
ـ انا لا اتفضل على احد (وبعد وقفة) هل نسيت انني بحار ايضا ؟
ـ هذا صحيح .
ـ اذن اخبرني عن كل شيء بالتفصيل . اريد معرفة ما يجري وما يقال في الميناء .هذا الحديث لا يثير حماستكم كما تثيرها السياسة فلماذا ؟هات ، اخبرني ..

قص عليه ما سمع ، وتحدث عن اهمية تأليف نقابة لعمال الميناء ، والتمهيد لذلك بالاتصالات والاجتماعات .

واصغى الطروسي بانتباه . كان يهز رأسه ويستعجل الحديث، حتى اذا بلغ الكلام نقطة مثيرة ، كواقعة بين العمال وزلم ابي رشيد ، او ملاسنة بين العمال والبحارة ، تدخل ، واستقصى ، وعلق ، وأفضى بما لديه من معلومات ، وخلص الى احد » نتيجتين : الفرح للمقاومة والصمود ، والغضب للاستخذاء والميوعة ، واطلاق الشتائم من حين الى حين ، تشجيعا او استنكارا .
ومازحه الاستاذ كامل قائلا :
ـ شفت ! انت ايضا تتحمس ، فلا تستغرب حماسة الناس بعد اليوم !
ـ الناس يتحمسون للسياسة ، وانا اتحمس للميناء .
ـ وما الفرق ؟ لكل رايه ، وكل رأي هو سياسة ، والاشياء مترابطة ، فلو لم يناضل الشعب ما تحقق الاستقلال، ولولا الاستقلال ما استطاع الناس المطالبة بحقوقهم والحصول عليها .
ـ هذا صحيح ، ولا انتقص من حماسة احد في سبيل الوطن ، ولا اتأخر انا نفسي ، لكنني استغرب حماسة الناس لالمانيا وروسيا ومشاكل العالم .
ـ مشاكل العالم تؤثر في مشاكلنا يا ابو زهدي . لو انتصرت المانيا لاصبحنا في مرتبة العبيد . النازية : كيف اشرحها ؟ طاعون ، اتعرف الطاعون ؟ لقد انهزمت المانيا الان، ولكن الانكليز والفرنسيين يلعبون علينا ، يريدون سلبنا الاستقلال بكل وقاحة ، ولكنهم عاجزون ، عاجزون تماما ، الدنيا تغيرت ، واصبح لنا صديق قوي .

وقال الطروسي :
ـ ومن هو هذا الصديق ؟ واضاف مبتسما ، اعرفه ، ولكن لو سمع ابو حميد ؟
ـ لا بد ان يتغير راي ابي حميد يوما ،سيفهم الحقيقة .

ــ رأيه لا يتغير ، لا اصدق انه يتغير .

ــ كيف ؟ ابوحميد طيب ، وسيعرف الحقيقة ويغير رايه .

قالها واسر في نفسه « سيغير رايه كما غيرت رايك . كنت مأخوذا باقواله عن المانيا ، وكنت تهزأ بكل حديث عن تنظيم عمال الميناء ، وها هم يجتمعون في مقهاك ، وها انت تقف في صفنا » .

ودخل نديم مظهر في هذه اللحظة فنهض الطروسي للقائه ، وجلسا على طاولة قرب الباب ، وتناول الاستاذ صحيفته واستأنف قراءتها ، ثم انصرف بتفكيره الى نديم مظهر وابي رشيد والطروسي وعمال الميناء .

٤

انفق نديم والطروسي وقتا غير قصير وهما يتحدثان . كان نديم محنقا مغيظا ، وقد ادرك الطروسي ان ثمة حادثا جديدا ، ومع ذلك لم يسأله . ترك الامر حتى فاتحه هو به واعلنه انه عائد لتوه من الميناء .

كان نديم ينشد الثأر ، ويفتش عن كل وسيلة لاضعاف ابي رشيد وتحطيم نفوذه، وقد تطور الخلاف بينهما الى درجة تنذر بالانفجار ، ولو التقاه اليوم لوقع المحذور، الا ان ابا رشيد لم يكن في الميناء، او كان ولم يره، لذلك انهى مهمته وصعد باتجاه شركة الامبريال (١) قاصدا البطرنة .

ولم ينتظر تحميل الشاحنات ، فهذا العمل ليس من مقامه ولا صبر له عليه . انه يحرص ،في كل الظروف على الظهور بالمظهر اللائق ، ولا يتخلى عن اناقته ، وهذا بالذات ما اضفى عليه سيماء الوجاهة ، بعكس ابي رشيد الذي لا يأبه لمظهره ، ولا يحمل في جيبه مالا ، يسلك الى هدفه طريقا مغايرة ،قوامها المسايرة ثم المسايرة ثم البطش في الوقت المناسب .

لقد زعم المسئول عن تحميل الشاحنات انه اضطر الى تحميل بضاعة موضوعة في الخلاء ومعرضة للتلف فيما لو هطلت الامطار ، وان العمل جار وليس من تأخير مطلقا. وهو يكذب، فالشاحنات التي ستسير ليلا يجب ان تحمّل قبل غيرها، وقد

(١) شركة اجنبية لشراء التبغ وتسويقه .

هتف نديم بذلك واوصى ، واوشك الليل ان يهبط ولم تحمل شاحناته ، ومعنى هذا انها ستتأخر الى الغد ، وهذا تعطيل مقصود لا يبرره فقدان الحمالين، فهؤلاء موفورون ، ولو شاء ابو رشيد لتم كل شيء ،ولكنه لا يشاء ، ويتعمد عرقلة العمل ليشكو التجار بطء حركة الشحن ، فيتخذ المنافسون من الشكوى ذريعة لادخال شاحنات غريبة تضارب على شاحنات آل مظهر ، فاذا عارضوا جابهوهم بأن شاحناتهم لا تؤمن الحركة ، والبوا عليهم التجار والسلطة .

« هذه هي الخطة ، ايظن ابو رشيد انني لا اعرف ماذا يبيت لنا ؟ انه واهم ، فالشاحنة التي تدخل المدينة ولا تمر بكراجنا ستتحطم، وهذه الميناء يا ابو رشيد لن تطوب باسمك، والسلطة التي تحميك اليوم لن تحميك غدا ، انها ستتغير ، فالكتلة الشعبية (١) هي التي ستحكم » .

كانت يداه وراء ظهره ، وخيزرانته تنجر خلفه راسمة خطا متعرجا صاعدا من الميناء . وقد بدا في سيره مغضبا شأنه حين يخفق في الوصول الى غريم او طلب . لقد حسب انه سيصطدم بأبي رشيد ، ولكم ود ان يحدث هذا ، وان يقع الامر معه بالذات ، الا انه قال في نفسه حين فكر في ذلك « من غير الممكن ان اضربه ،انه كهل ،وضعيف ولا يليق بي ان ارفع يدي عليه، لا لانه اكبر سنا ،بل لانني اخجل ان اضرب من هو اضعف مني بهذا المقدار » .

وفكر في سر قوة هذا الكهل « اهي رجولته ؟ جراته ؟ دهاؤه ؟ انه بسيطر على الميناء ، ويخضع كل من فيها لارادته ، والسلطة تسانده ، وجميع المواعين ملكه، والحركة كلها بين يديه ،فكيف يمكن زحزحته بدون معركة ؟ واذا ما

(١) « الكتلة الشعبية » تجمع اقطاعي بورجوازي عارض الكتلة الوطنية وتحول الى حزب سياسي فيما بعد .

نشبت معركة فالام ينتهي امرها ؟سيذهب قتلى من الطرفين، وربما قتل هو بالذات ، وسيظل ابو رشيد حيا ، لانه يدفع رجاله وينأى بنفسه ، وحين تتدخل الشرطة يتظاهر بأنه لا يعرف شيئا مما جرى ، بل ويستنكره ، وايا ما كانت الاسباب فنتيجة التحقيق الى جانبه ما دامت السلطة الى جانبه، والحل الوحيد هو الاستمرار في العمل مع المعارضة ، وتحريض العمال ومناصرتهم ، ودعم كل من يريد انزال مواعين لمضاربته، ولكن اين الرجل الذي يقدم على هذا ؟»

خطر له الطروسي فورا : هذه هي الورقة الجيدة، فلو كانت في يده للعب بها فورا ، اما وانها ليست في يده، وان الطروسي لا يقدم على عمل الا بدافع من ذاته ، فلا بد من انتظار الفرصة .

وهكذا قصد الى البطرنة ..

والتفت الى الطروسي الجالس قربه وقال :

« تعطلت الشاحنات اليوم ، وستتعطل حينا بعد حين، وهذا كله محتمل اذا لم يضارب احد على شاحناتنا ، فاذا وقع ذلك انتهى وقت الصبر واصبح الانتظار وخيما ، وعندئذ لن يفيد ابا رشيد تظاهره بالكياسة ، ولن يفيدني ان اقابل تمثيله بتمثيل من نوعه ، فأنا لا اطيق هذا ولا اجيده ،ويحسن بنا ان نحسم الموقف .. يا ليته خرج الي منذ قليل ، ياليته قال اي شيء ، لقد زعقت في الميناء ، وكان هو يسمع بغير شك ، ثم هدأت وانصرفت ،ولا بد انه برز بعد انصرافي وتساءل عن سبب صياحي ،وهدد بحسم يوميات الذين تسببوا في التأخير ، فهل يظن انه يخدعني بذلك ، مهلا يا ابا رشيد مهلا » .

واوغل في الحديث على غير عادته . وكان الطروسي يصغي اليه بقلب مفتوح ورغبة حقيقية في المساعدة. وكان ، من حين لآخر ، يعود به التفكير الى الاستاذ فيذكر قوله

« الكتلة الوطنية والكتلة الشعبية من طينة واحدة ، ونديم وابو رشيد يقتتلان لمصلحة شخصية » وكان الطروسي يعرف ذلك ، ويعرف ان الخصومة بين الرجلين ذات صلة بالخصومة بين الكتلتين ، ولا علاقة له بها ،الا انه يعز نديما ، ويريد له الخير ، ومع ايثاره لغو الحديث مع البحارة على كل فصاحة الدنيا ، فانه ما كان يضيق بكلام صديقه قط ، بل يجد فيه مبعثا للحماسة وسببا للاهتمام والمشاركة. وكان لقاؤهما ينتهي غالبا ببعض وجوه اللذة : طعام وشراب يذهب ابو محمد او احمد او خليل لاحضارهما ، او يوصي عليها نديم قبل مجيئه، فاذا لم يكن مزمعا المكوث في المقهى ، اصطحب الطروسي الى احد البيوت التي تنفتح له كلما رغب في ذلك ،ويقدم اليه فيها الخمر واشياء أخرى .

وكان الطروسي ، في اول تعارفهما ،يرفض ان يدفع نديم ثمن الطعام او الشراب ، ويحس هذا ان صاحبه يتكبد ما لا طاقة له به من مصروف ،فجعل يتحايل على ذلك ، ويتوسل بأنهما مدعوان كلاهما ، او انه اوصى على الاغراض قبل ان يحضر،ثم قال له بعد زوال الكلفة « اسمع يا ابو زهدي ! حين احضر الى المقهى لا امد يدي الى جيبي ، فهذا مقهاي ، وثمن فنجان القهوة ،مع انه لا يذكر ، هو كبير عندي، لانك تقدمه من استطاعتك،وحين اوصي على بعض الاغراض، وهي لا تذكر ايضا ، اقدم من استطاعتي ، ولهذا فنحن متعادلان ، واحب ان تصارحني فيما اذا كنت ترتاح الى هذا ، فاذا رفضت ذهبت ولم أعد ، فماذا تقول ؟ »

وابتسم الطروسي وقال في ذاته « نديم يفهمني »وقامت، من ثم، علاقاتهما على اساس من التكافؤ ، ورغم هذا كان الطروسي نادرا ما يسعى الى نديم ، وكان يؤثر ان تأتي الدعوة منه ، فاذا لم يأت اليه ويخرجه من مقهاه ، لزم الشاطىء لا يغادره . ان المدينة لا تجتذبه ، او انها تفعل

ولكن جاذبية البحر اقوى،فهو يرتاح الى مسارة الموج، والى هدهدة اغاني البحارة الآتية من بعيد ، تلك الاغاني التي لا يسمعها الا وحده . كان يجلس على الكرسي بصورة جانبية ، ويتكيء الى الجدار ،ويضع ابطه الايمن على مسند الكرسي ، ويرسل ابصاره عبر الباب الى الماء الازرق المنبسط امامه ، ويستغرق في تأمل متعبد ، ينشطر خلاله الى روح تهيم فيما وراء المدى المترامي، وجسم قعيد المقهى ، لا يصله به الا انه موجود فيه .

وحين جهز لهما أبو محمد القهوة والنركيلتين خرجا وجلسا عند طرف الصخرة . كانت الشمس توشك ان تغيب، والامسية دافئة ، كأنها ليست من اماسي الشتاء ، وكان تكسر الموج تحتهما على حوافي الصخور يلامس المشاعر ولا يستثيرها ، واطراف السماء تشير الى صحو الطقس ،وبخار خفيف يتصاعد من فنجاني القهوة ، وفي ذات نديم يعتلج حنق يمسك به عن التفجر لئلا يظن به الطروسي الظنون . كان يريد ان ينأى بالحديث عن الميناء وأبي رشيد كي لا يبدو عليه المقت ولا يخطر في بال سامعه انه يحرضه ،او يوقع الملل في نفسه .

وكان ابو محمد ، وراء الدكة ، فرحا بلقاء الرجلين. ففي كل زيارة له عطاء يجعله سعيدا لعدة ايام ،ثم ان وجود نديم في المقهى يعني شيئا بالنسبة اليه،فهو اكثر اطمئنانا واوفر ثقة ، ولقد حرص وهو يقدم المشروب ان يسمع طرفا من الحديث،ثم طاف على من بقي في المقهى مزهوا لغير ماسبب، وقال للفتى احمد « لا تتحرك من المقهى ، يمكن يرسلك الطروسي لاحضار حنطور او سيارة او بعض الاغراض، سأعطيك من الحلوان ، لا تخف ،ديناتك انشطبوا اليوم باذن الله ، وغدا ، اذا عاد الطروسي للبحر ،يأخذك معه،واذا اردت ان تتعلم سوق السيارات يشغلك نديم عنده ، اليس

هذا افضل من العفرتة في الميناء ؟قل ! » واشاح أحمد عنه هازئا . انه لا يحتاج الى ترغيب لتلبية اي طلب للطروسي، فهو مفتون بالريس وشجاعته ومهارته ، وقد أثلج صدره انه ضرب ابن برو وازاحه من الميناء ، فقال في نفسه « لا بد ان يزيح الطروسي ابا رشيد يوما ، وعندئـذ يستطيع الانسان ان يسترزق »

واستفسر نديم عن الشغل ، وعما اذا كان رجال الامـن والجمرك وزلم الميناء مـا زالوا يضايقون المقهى ، فقـال الطروسي « انهم يفعلون ، يأتون من حين الى حين ، ولكنني لا احفل بهم .. وماذا عندي لاخاف ؟

الاستماع الى برلين اصبح حرا ، لان برلين نفسها لا تذيع الآن ، والتهريب ممنوع ، وهم يعرفون ذلك ، ويأتـون لان ابا رشيد يريدهم ان يأتوا ، وأنا لا ابالـي بمجيئهم او ذهابهـم ، ولا انهض لهم عن الكرسي » .

ـ اذا جاءوا من جديد فلا تسمح لهم بالدخول ، ومن يجرؤ على فعل اي شيء ابلغني اسمه لاحرمـه من المرور « بالشيخ ضاهر » .

ـ لا داعي لذلك، خيزرانتي في يدي دائما ، فاذا اعتدوا فلست اجهل رؤساءهم ، وسأقوم بزيارة الى الميناء عندئذ.

طرب نديم مظهر للجواب : رؤساؤهم ؟ جميل هذا ، جميل والله ، فأبو رشيد هو الذي يدفعهم لتنفيذ رغائبه في توقيف فلان ،وضرب فلان ، واذا ما تجرأ الطروسي على زلم الميناء فسيتجرأ عليهم العمال والبحارة ويفقـد أبو رشيد كثيرا من هيبتـه .

ـ الا تزور الميـناء ؟

ـ ازورها ، ومن يمنعني ؟ اصحاب المراكب يرحبون بي، والبحارة يكرمونني ، ورئيس الميناء يدعوني الى مكتبه ، وابو رشيد يلقاني مرحبا ، فأبادله التحيـة بمثلهـا ولا ازيـد ،

وعندئذ يروزني بنظراته ويسألني عن الاحوال .. انه يريد ان يعرف مـا اذا كنت انوي العودة الى البحر .

ـ وهل ستعـود ؟

ـ نعـم .

ـ ومتى ؟

ـ عندمـا يؤون الاوان .

ـ ما رأيك في المواعين ؟

ـ لا ارغب في هذه الشغلة .

ـ الا تريد منافسته ؟

ـ لا تهمني المنافسة ولا ما ينتج عنها . ان عدت الـى البحر فسأعود ريسا كما كنت ، انا اهوى البحر لا الانتفاع فـي الميـنـاء .

كف نديم عن الاسئلة.وقال فيذاته « لو اراد الطروسي المساعدة لبذلتها له فورا ، ولبعت بناية واقترضت واشتريت لـه المواعين ، اما ان يصبح صاحب مركب ويسافر فهذا لا يزعج ابا رشيد ولا ينازعه السلطة في الميناء »

ولكي يغير الحديث اقترح :

ـ ما رايك في سهرة عند يوركو ؟

ـ فـي الخمارة ؟

ـ لا ، فوق الخمارة ، (قالها وغمز باحدى عينيه)

ـ كما تريـد ...

واسرع احمد لاحضار الحنطور ، وجاء ابو محمد فرفع صينية المشروب ونال العطاء المعتاد ، وسار الرجلان عبـر المنشية لينتظرا العربة عند رصيف الشارع ، وفي الطريق سأل نديم عن ابي حميد ولماذا لا يأتي الى الشيخ ضاهـر ، فقـال الطروسـي :

ـ لم اره منذ مدة ، اظن انه ملاحق .

ـ ولماذا يلاحقونه ؟

— لا ادري ! الذين كانوا مع المانيا اطلقوا سراحهم ، اما هو فما زالوا يسألون عنه ويلاحقونه .

— واين هو الآن ؟

— في الشحادين .

— ارسل وراءه وابعث به الي . قل له لا تخف من احد، فقد سمعت انه يشتم الكتلة ، واظن ان الكتلويين هم الذين يحرضون عليه .

— معقول ؟ اسماعيل كوسا صاحبه ، فهل يعملها معه؟

— ما في امساكه عن الخروج من بأس على اسماعيل؟ يتسلى معه من جهة ، ويحول بينه وبين شتم الكتلة من جهة ثانية .

— ولماذا تريده ان يخرج انت ؟

— لاتصبب عليه ! (وضرب على كتف الطروسي ضاحكا واضاف) اما سمعت ؟ يريدون السيطرة على الشيخ ضاهر ايضا . هذه ضربة جديدة من الكتلة ، وسنرى من نصيب في النهاية .

ترجلا من العربة ودخلا زقاقا ضيقا ، ثم عبرا بابا واسعا وصعدا « عليّة » اعدها الخمار لمثل هذه الخلوات ، وحين جلسا الى طاولة الشراب نسي كل منهما افكاره ، وراق مزاجه ، واصبحا نشيطين مرحين، واقبل الخمار يخدمهما ، واعد لهما مائدة عامرة ، وصف لهما زجاجات الشراب ، وظل يذهب ويجيء ويفرك يديه امامهما معلنا استعداده لتلبية اي طلب ، حتى سمعت ضحكة نسائية وعلا نقر على الباب، ففتحه وادخل امرأتين جميلتين متبرجتين ، وسأل عما اذا كانت لهما حاجة به بعد ، فلما اجيب بالنفي غادر الغرفة لان مهمته انتهت ، وستبدأ ، منذ اللحظة ، مهمة المراتين ، وكانت احداهما قد باشرت مهمتها بالتخفف من ثيابها ، ورفعت فستانها لتفصم العروة بين جوربها والمشد ، وبانت استدارة فخذها بيضاء وردية مكتنزة باللحم .

٥

شكا خليل العريان في اليوم التالي من اعتداء وقع عليه وهو يصطاد في الميناء . فقد جاء بعض المقربين من ابي رشيد وامروه بأن يخرج من حوض الميناء ولا يعود اليه قط. وحسب انهم يمازحونه باديء الامر ، لانه ما اعتاد ان يؤذي احدا ولا ان يلقى السوء من احد ، غير ان الذين تحرشوا به جدّوا في طرده ، وقالوا له انهم سيرمونه في البحر اذا عاد ثانية الى الميناء . ولما سألهم عن سبب ذلك وهددهم بالشكوى الى ابي رشيد شتموه وقالوا له اذهب واشك الى من تشاء ، فالذي يعمل في المقهى لا يصطاد في الميناء .

وهزّ الطروسي راسه ولم يقل شيئا . لقد فهم ما وراء الحادث فورا ، وتأكد انه السبب في قطع رزق خليل من الميناء ، ومع ذلك آثر عدم التعليق ، وقال لخليل « تعال واصطد في البطرنة غدا ، وسأساعدك بقدر ما استطيع ».

وصعد خليل باتجاه المدينة ليبيع صيده ، وغابت الشمس وهو يطوف حتى باع سمكاته القلائل ، ثم قصد ، في طريقه الى البيت ، خمارة توفيق ، وطلب كأسا من العرق كرعها دفعة واحدة ، فلما انحدرت من حلقة شعر بلذع النار في جوفه ، فأعاد الكأس فارغة وقال محتجا :

— الذي يغشني في المشروب لم يخلق بعد .. هذا عرق تين يا توفيق !

قال توفيق غير مكترث :

— فشرت ، عرق عنب مثلث .

ـ برحمة بطرس ..
ـ لا تحلف ، انا لا ابيع عرق تين .
ـ قلت لك برحمة بطرس .
ـ طيب بطرس اله ؟ اقول لك انا لا ابيع عرق تين فتقول برحمة بطرس،تأملوا هذا الزبون الذكر يا جماعة !

التفت خليل الى وراء فراى بضعة رؤوس تنظر اليه وتضحك . وثمة ، في الزاوية ، رجل يجلس الى طاولةصغيرة فارغة الا من كأس ، يعصب راسه بكوفية عتيقة ، ويشكل قميصه بدبوس ، وقد خلا فكه الاعلى الا من سن واحدة ، طويلة ، صفراء . قال :

ـ اين سمكاتك يا خليل ؟
ـ نفقنا .
ـ بيت السبع لا يخلو من عظام .
ـ السمكات قلال اليوم لذلك بعتهم كلهم .
ـ مد يدك الى جيبك .
ـ اي جيبي نهر ؟
ـ احسبه كما تريد ، هات ..
ـ ما معي يا ابو خضر ..
ـ هات كم فرخ ..
ـ برحمة بطرس .

قال توفيق الخمار :
ـ عدنا الى بطرس ورحمته ؟ اين « بطحتك »؟
ـ هات كأس على الواقف .
ـ وليش على الواقف ، الا تعجبك القعدة معنا ؟
ـ هذه العادة بطلناها .
ـ بطلتها ؟ ما شاء الله ، ومتى ؟

قال ابو خضر :
ـ بطلها بعد وفاة المرحوم .. خليل حادد يا شباب ،

لا يسكر الا على الواقف
ـ على الواقف ام على القاعد ،عادة الشرب في الخمارات بطلناها .
ـ والكأس التي في يدك ؟
ـ زوادة طريق (ضحك في الخمارة) لا تضحكوا،زوادة طريق حتى نصل البيت .

قالها وافرغ كأسه الثانية ، ومد اصبعه الى المملحة فلحس قليلا واضاف :

ـ هات البطحة يا توفيق ! عرقك اليوم .. (وغمز بعينه)
ـ عرقي مثل المسك ، عنب مثلث .
ـ عنب صحيح ، ولكن يانسونه قليل ..
ـ يانسونه قليل ؟ خذ بطحتك وبلا كثرة كلام ، توفيق لا يبيع العرق قبل ما يشرب منه،والشرّيبة امامك فأسألهم .

قال الحاضرون :
ـ خليل لا يفهم بالعرق ، ذوق يوق » (١)
ـ العرق الطيب ينعقد حوله جنزير .

فامسك توفيق بالزجاجة وخضها وقال :
ـ وهذا الجنزير ؟ ما قولك فيه ؟ انا لا اغش زبائني ولا ابيع عرق التين .

فاحتج ابو خضر :
ـ اذكروا محاسن موتاكم يا جماعة، لا تذموا عرق التين .

وقال توفيق :
ـ عرق التين لا يضر : وبعضهم يفضله على عرق العنب، اما انا فلا اتعاطاه ، رائحته كريهة .
ـ كريهة ام غير كريهة ، الا يسكر ؟

---

(١) « يوق » كلمة تركية تعني « لا يوجد »

— ولكن السكر ليس كل شيء ..
فصاح ابو خضر :
— لا تتظاهروا بالآدمية ، المهم هو السكر .
— الا تخاف ان تحترق من السكر ؟
— المكتوب ما منه مهروب ، كل يوم اسكر وكل يوم اسهر ولا يحدث شيء .

كان ابو خضر وقادا في حمام عمومي، وكان يسكر وينام في القميم ، وحدث ان غلبه السكر فحرق فراشه وكاد يحرق نفسه .

قال خليل :
— انتبه يا ابو خضر ، ما كل مرة تسلم الجرة .
— انا منتبه،اما انت فحافظ على بيضك من كلب البحر.
وضحك الحاضرون في الزوايا وقال احدهم :
— اذن انتبه يا خليل، المثل يقول « اذا راحت بيضاتك طلقتك مراتك » .
وقهقه ابو خضر مسرورا وقال :
— كل شيء ولا هذا ، خليل ببيضات ما مقبول ، فكيف اذا فقدها ؟
— من جهتي لا يكون لكم فكر ، آنا في البحر العن من كلب البحر .
وقال صاحب الخمارة :
— هذه لا يجادلك فيها احد ، انت صياد كفوء ؛ اما مسألة العرق فلا تؤاخذنا .
— ذوق « يوق »
فوضع خليل بطحته في جيبه وقال :
— ذق « وار » اما « باراه » (*) يوق .. قيد يا توفيق على الحساب .

(*) « وار » يوجد ، « باراه » نقود ، والكلمتان تركيتان .

فصاح توفيق منتهرا :
— عرق .. وبالدين ؟ ولك اخت هذه الصنعة ، هذه آخر مرة يا خليل ، اكثر السمكات غدا ، سمعت ؟
— انا سمعت ، بقي ان يسمع الذي فوق (قالها واشار الى السماء) .

كان الليل قد انسدل ، والناس يسرعون الى بيوتهم هربا من برد المساء ، فمضى خليل في زقاق « العنابة » الى البازار ، ومن هناك الى سوق البالستان ، وانعطف الى جادة مغلقة تنتهي بدرج يفضي الى فسحة كبيرة تقوم على جوانبها غرف حجرية وخشبية قديمة بشكل دائرة ، تقطنها عشرات العائلات ، ويسكن احداها خليل منذ تزوج .

وكانت زوجته قد اشعلت الفحم ، وجهزت له السمكة وطعام العشاء ، وانصرف اولاده الى دروسهم او الى النوم ، فلما دخل هبوا اليه يسألونه عما يحمل معه ، فأرسل يده في جيبه وراح يوزع عليهم الحمص الاصفر !

ولما اقتربت منه زوجته وشمت رائحة العرق نفرت وقالت :
— شربت اليوم ايضا ؟
اخرج الزجاجة التي انقصها عمدا وقال :
— لا انكر ان رائحتي عرق ، فقد شربت من بطحتي مقدار اصبعين بسبب البرد .
تطلعت الى شفته السفلى فاذا هي تلتمع وقد ارتخت قليلا ، ورات بداية احمرار في عينيه فقالت :
— مقدار اصبعين لا يغير هيئتك ، انت شربت في الخمارة .
— برحمة بطرس ما قعدت في الخمارة .
— ولماذا تأخرت ؟
— حتى بعت السمكات . درت السوق كله حتى جاءني

سعر مناسب ، الا يكفي انهم لا يستأهلون حتى ابيعهم كيفما كان ؟ هاتي العشاء وابعدي النار ، مهما يكن البرد ضارا فالنار اضر ، انـا لا اطيقها .

جاءته بطبق من قش وعليه السمكة والعشاء ، وساد السكون الا من طقطقة الحمص تحت اضراس الاطفال، فأخرج زجاجة العرق وشرب منها جرعة وقدمها لزوجته قائلا « خذي ! » فلما رفضت تجشأ وقال « لولا العرق لمت ، لا ينفض البرد غيره ، خذي بلعة » .

ورفضت ان تأخذ وظلت ترمقه بنظرات الاستنكار . وتحاشى هو نظراتها ما استطاع ، لعلمه انها ستنسى بعد قليل ، وتصبح كيسة ، وعندئذ يمكنه ان يتباسط معها ويلكزها مداعبا مستثيرا شهيتها الخامدة ، فاذا لم يفلح ، ولم يلعب الورق،ذهب الى السهرة ولم يعد الا بعد منتصف الليل.

ولم تكن تحاسبه على سهراته وتصرفاته . لقد عاتبته حتى ملت العتاب فتركته ليقينها انه لن يتخلى عن البحر والسكر . ثم انها خبرت طباعه ، وعرفت انه يتركها ولا يترك الصيد ، فلماذا تعارضه؟ الصيد مهنته ، والبيت حافل بالشباك والمطارين والاقصاب والصنارات والاصداف والاسفنج، وانها لتذكر انه نهض من فراشها في اليوم الثالث لزواجهما وهو يقول « غلينة ! غلينة » وركض الى المطبخ فتناول عدة الصيد وذهب فأيقظ زميلا له وقطعا مسافة خمسة كيلومترات او اكثر في طلب الصيد ، فلما توفقا ، وكان الصبح قد أوشك ، اقترح عليه زميله ان يشعلا نارا ويستدفئا ، فأجابه وهو يرتجف « الحقني ، لا يدفئنا الا خلع السراويل !» وجاء من فوره واندس الى جانبها عريانا في الفراش .

وقد عرفت منه بعد ذلك كثيرا من امثال هذه التصرفات ، فعارضتها اولا ، واستسلمت لها اخيرا ، ثم

افتتنت بأحاديثه وقصصه عن البحر والصيد ، ولم يعد شيء من ذلك غريبا عليها .

واخذ يأكل ويتحدث قائلا « لو لم يخرجوني اليوم من الميناء لاصطدت ١٠ كيلوات ، السمك في الميناء كثير ومعلوف، ولكن اولاد الحرام كثيرون ، وابو رشيد هذا ..

قاطعته قائلة :

ــ دائما لو ، منذ اخذتك وانت تقول لو ، وكل الصيادين يقولون لو ..

ــ برحمة بطرس يا حرمة ..

ــ لا تحلف ، اترك بطرس الى رحمة الله ، لقد حفظت كلماتك من كثرة ما رددتها .

ــ انت لا تصدقين ، وسأريك بعينك . الطروسي قال لي : اصطد غدا في البطرنة ، فاذا فتحها الله في وجهي عوضت خسارة الميناء وتخلصت من المضايقات ، المهم ان يستمر صحو الطقس .

وطرق الباب في هذه اللحظة ، فدلف صياد وزوجته وطفلهما ، ثم جاء آخر ،وبعض الجيران ،فخلعوا نعالهم عند العتبة وجلسوا على الطراريح ،وكلما دخل قادم جديد بادره خليل والموجودون بتحية المساء ، فيردها هذا لهم، ويستأنفون ما كانوا فيه من حديث .

وكان حديث خليل يدور حول الصيد كعادته ، حتى ضاقت زوجته به فقالت « اما لك من هم غيره ؟» قال «بلى! عندي هم آخر هو انت ، انت احسن صيد حصلت عليه في حياتي ، وبعدها نشفها الله في وجهي » وضحك الحاضرون فقالت الزوجة « ليت الذي علمك هذه الصنعة مات قبل ان يراك » فأجاب « لقد مات المسكين منذ رآني ، فورثت امرأته فراشه ، وورثت أنا صنعته » .

صاح احد الجيران « اعفونا من قصص الصيد ، هاتوا الورق ، اقعد يا خليل قبالي » فتمنع الحاضرون قائلين « خليل لا يلعب معه ، اما ان يفش او يسب الدين » قال خليل : « اذا لعب شريكي على الاصول لا افتح فمي » فقال شريكه « ستفتح فمك كيفما كان ، فخذ حريتك » وضحكوا، فنهض خليل على ركبتيه وقبل صلعة شريكه قائلا « وهذه بوسة على الحساب ! » عندئذ انتهره قائلا « هذه العادة النجسة اتركها ، الف مرة قلت لك لا تقرب علي ، رائحة العرق تقتلني ، الله يساعد زوجتك » فضربت زوجته على صدرها ولم تزد ، وصاح هو :

— فتوا الورق .

ودار اللعب ..

وبعد اللعب تحدث خليل عن ذكرياته في الجندية : كان قد تطوع في جيش الشرق في اوائل الحرب العالمية الثانية، وسئل عن مهمته فزعم انه « طباخ » وكان احد الضباط الفرنسيين بحاجة الى طاه فطلبه للعمل عنده . ولكي يرضي رئيسه ولا يترك البحر، استغل وقت الراحة واصطاد كمية من السمك كانت كافية لتغطية تقصيره في الطهي ، وكان الضابط يأكل من السمك ويوزع ، ومقابل ذلك يتساهل مع خليل اذا ما ضبطه سكرانا ، وقد اغتاظ منه يوما فأرسله الى الرماية ، وهناك اثبت موجودية حملت الضابط على اعادته الى البيت .

سألوه « وما هي هذه الموجودية ؟» قال : كلما صاح الضابط Feu قلت Prêt ، فضحك الجنود ، وضحك الضابط وقال : كفى ، ارجع الى البيت ، انت تصلح للبحر لا للجندية .

قال احد الحاضرين :

— يا لك من عفريت !

فقال خليل :

— عفرتتي في مسألة الارانب العن .. فقد دعا الضابط بعض أصحابه الى الغداء ، وجاءني بأرنبين لطبخهما ، فذبحتهما وسلختهما ووضعتهما في صحن كبير وذهبت الى السوق ، ولما عدت وجدت القطط قد اكلتهما . كان موعد الغداء قد اقترب ، ولم يكن السوق قريبا ، وخفت العاقبة، ففتحت النافذة ودعوت القطط بعد ان وضعت لها نفايات السمك ، فلما اقبلت امسكت قطين وذبحتهما وقدمتهما للضابط وضيوفه ، ولما انتهى الغداء وانصرفوا شكرت الله وقلت « سترها ربك يا خليل » .

— والضابط ، الم يعرف ؟

— حلمكم علي . جاء الضابط في اليوم التالي وسأل « اين الارانب يا خليل ؟ »

ماذا اقول له ؟ اعترفت بالحقيقة وانا خائف ،فضحك وقال « بون ! بون ! » لقد عرف القطط من عظامها . واوصاني باصطيادها دائما ، فقلت في نفسي « وهذه شغلة ثانية يا خليل ، اصبحت صياد قطط ايضا !»

وضحك الحاضرون وقالوا :

— خليل له مئة كار ..

ودقت زوجته على صدرها للمرة الرابعة وقالت :

— خليل كثير الكارات قليل « البارات »

وفتح خليل عينيه الحمراوين وقال :

— لو كان حظي مثل لسان امراتي لاغتنيت ..

٦

امتد صحو الطقس بضعة ايام اخر . كان شباط يوشك ان ينتهي ، وكانت الدنيا صباحا ، وقد جلس الطروسي في الفلوكة الصغيرة « ام السعد » على مقربة من المقهى، وراح الموج يداعب دفتها ويتكسر على جانبيها فتهتز تحته وتميل وتستقيم ، وكانت الشمس تملأ الفضاء بأشعة دافئة يستحم بها البحر،وحيوانات الماء الصغيرة تتحرك في شقوق الصخور لاحساسها بأن فصل العواصف مضى ، وبامكانها الآن ان تخرج الى وجه القمر ، وتنتقل ، في الجذور المعشوشبة ، نقلة او نقلتين .

كان يرتدي صدارا مزركشا فوق شروال اسود ضيق الساقين ، ويلف خصره بزنار صوفي ترك طرفه بارزا من وراء ،ينتهي بخيوط كخصلات الشعر ، ويفتح صدره لنسيم ويراقب شيئا ما يدب في القاع . وكان ابو محمد يجلس على الصخور يتناول فطوره مع كوب من الشاي ، ويراقب الطروسي متابعا حركاته بعينين تطوف فيهما نظرة حب وحنان . انه ليذكر الحكايات التي سمعها عنه من البحارة ، ويذكر قولهم « كانت لنا ايام وكان لنا ريس » يقولونها وينفخون متحسرين بغير طائل . البحر هو البحر ، لكن الرجال تغيروا ، عصرهم الذهبي مضى ، زمن الشراع ولى وفات ! وكان الطروسي يظل ، امام هذا الفيض النابع من اعماق الشعور في نفوس البحارة والصيادين ، سادرا لا يتكلم ، متماسكا لا يسمح لنفسه بأن تتلاعب به عاطفة تخرجه

عن الصورة التي عرفه بها بحارته . صورة الريس الذي يقف على الدفة في مصطخب الانواء ، هازئا بالموت ، صامدا للريح، باعثا الثقة في نفوس الذين معه ، صائحا بهم ابدا « هورسا يا شباب ! »

وكان الماء ، اليوم صافيا شفافا من تحته، يتداح عن دوائر وفقاقيع ، بفعل تيار جوفي ، او بسبب خروج الهواء من الماء . واسراب السمك تمر بالفلوكة آمنة مطمئنة ، وهو يفتت لها الخبز ، فتنقلب في سيرها ، وتنجدل على بعضها ، وتتهادى . وتتجمع ، وتتفرق ، مشكلة مئات الدوائر، راسمة آلاف الحلقات اللولبية ، عائمة بتيه ، غاطسة كسهم ، منزلقة في يسر .

وعلى نحو ما ينفتح المندل لفتى طاهر القلب ، وتنشق رقعته ليرى فيها المنجم ما لا يراه الآخرون ، كان قعر البحر ينفتح امام الطروسي عن رؤى ذات آوان وألوان، تعكسها السماء ، وتطرزها الاسماك، وتجملها مخيلة بحار قديم تختزن الكثير من صور الماء والاسماك .

وراح ابو محمد يتابع الطروسي مشوقا الى حركاته التي لم تذهب برشاقتها الاعوام . الجسم الاسمر الضامر بغير هزال . والوجه النحيل البيضوي ، بذقنه المستديرة ،ونظرته الجارحة . وانفه الاقنى ، وهذا الجرح الذي يشطر الخد الايمن ويترك اثره عليه ، وهاتان الكتفان المجمعتان ، المتحفزتان ابدا لمواجهة خطر مجهول ، كل ذلك جعل للريس سيماء رجل صلب مشبوب النزوات ، نزق الطباع ، لا تنال منه السنون الا ما يناله الموج من صخرة الشاطيء، يخرش بعض جوانبها ، لكنه يعجز ان ينال من شموخها وصلابتها .

فرغ ابو محمد من فطوره فوقف وتنحنح ليلفت نظر الطروسي اليه . كان يرتدي معطفا عتيقا اسود، فوق شروال

قصير الكمين ، وكانت ذقنه طويلة ، وشعراته الباقيات قد تفرقت في ام راسه، وحاجباه الكثان يتهدلان فوق جفنيه تهدل شاربيه فوق فمه ، وفي رجليه « شحاطة » يبرز منهـا ابهام قدمه اليمنى ، والصخر من تحته مرتفع عن البحر، والى يمينه ياطر مكسور ومجذاف ملقى وكومة من حبال .

تنحنح من جديد فلم يلتفت اليه . ربما كانت نحنحته ضعيفة لم تبلـغ مسامع الطروسي المستفرق في رقعة المندل! وكانت الشمس الدافئة من حولهما تشتد كلما ازدادت ارتفاعا في صفحة السماء ، وابو محمد يتشاءم من شمس شباط هذه ويقول عنها « شمس شباط مثل المخباط » ويهرب من حرها او يضع على راسه خرقة لاتقاء الزكام .

صاح بالطروسي بعد ان يئس من جذب انتباهـــه بالنحنحة وحدها :

ـ ابو زهــدي !

فنظر اليه وغمزه غمزة مؤداها « ماذا تريد ؟ »

قال ابو محمد :

ـ اذا سأل عنك احد فماذا اقول ؟

ـ غير موجود .

اهتزت الفلوكة اهتزازات غير عادية . ما معنى هذا ؟ هل تغيرت الريح؟ استدار الطروسي ونظر صوب الغرب ، ثم رفع كفه في مسرى الريح وقال « لا يمكن ان يكذب ظني، شبـاط غدار » .

ونادى ابا محمد قبل ان يبتعد :

ـ اذا كان البحارة في المقهى فقل لهم لا تتعمقوا اليوم، الليلـة نـوء .

واضاف يحدث نفسه « هزة الفلوكة لا تعجبني ، الدنيا غيار والريح متقلبة » .

وضع قدمه في الماء ، وانتظر ، ثم عاد ينظر الى الغرب فراى سحابة رقيقة في طرف الافق،ترتفع وتنتشر باستمرار، وعندئذ هز براسه هزة يقين ، وشد الحبل الـــذي يربط الفلوكة بالصخر ، فاقتربت من الشاطىء ، وقفز منها الـى الصخر ، ووقف عليه . كان يريد العودة الى المقهى ، لكنـه صرف النظر اذ تذكر المركب الجديد الذي سينزل اليوم ، وهكذا سار على الشاطىء .

وكان الشاطىء حافـــلا بالناس : الصيادون ينشرون شباكهم على الصخور ، والفلائك قيد الاصلاح ، يطليهـــا اصحابها بالقار ، او يجددون ما بلي من اخشابها في الماء ، والى ابعد مركب كبير الى جانبه نار ، وبحارة يدفعون المركب الجديد لانزاله في البحر ، وبعضهم يشد عزائم بعض،وينتخون بصيحات كخوار الثيران :« هيلا ، هيلا ، هيلا » .

صاح رجل يقف في مقدمة المركب :

ـ بس ، هاتوا لاطة .

احضر البحارة لوحا خشبيا سميكا وضعوه تحت المركب من امام ، وصاح هو بالرجال الاقوياء الذين يشدون الحبال :

ـ خذوا عليكم يا شباب ، شدوا الى اليمين ، لا تتركوا المركب ينحرف عن النزلة ، ركزوا المساند من الخلف .

فتقدم بحار مسن وابدى هذه الملاحظة :

ـ انتبه يا ريس الى التوازن ، اذا شدوا اكثر فقــد المركب توازنه ومال الى جانبه الايمـن .. جلسوا المقدمـة اولا حتى يستقيم النزول .

نظر الريس في وجه البحار المسن وقال :

ـ يا ابو حسن معك حق ، ولكن المساند قويـة مـن اليمين ، وسنقويها اكثر ، هاتوا لاطه يا شباب !

ولكن ابا الحسن اصر على رايه :

ــ المساند لا تكفي وحدها ، المركب ينزلق بسرعة ،وهو، ما شاء الله ، مثل جبل ، واذا اختل التوازن ولو شعرة صعب عليكم تجليسه ، اقرصوه بدون شد .

رفض الرئيس مرة اخرى نصيحة البحار ، وتظاهر بانه غير مقتنع بها ، الا انه امر الرجال :

ــ لا تنتروا الحبال من اليمين. زيدوا الضغط من اليسار ، شدوا ، شدوا .

واضاف :

ــ جلسوا ، جلسوا ، يا عبد ، يا مصطفى ، يا محمد، اقرصوا من عند الدفة .

ابتسم ابو الحسن في ذات نفسه : الريس سلم برايه، وسيعود المركب الان الى التوازن ، وينزل باذن الله سالما الى الماء .

والقى ، وهو مطمئن ، نظرة عاشق الى البحر ، لقد كان هو ايضا ، بحارا ذات يوم . كان يقف على الدفة ، ويتلقى التعليمات ، ويقبل النصح بغير ضيق « انما ليس كل الناس على خلق واحد » قال ذلك في نفسه ولم يبرح مكانه .

كان المركب مبنيا على منحدر رملي، وقد اسند ، من خاصرتيه ، بأعمدة خشبية قوية ، ووضعت تحته لاطات مشحمة لينزلق عليها ، وشد من جانبيه بحبال قوية ربطت الى اوتاد حديدية ، وشد الى اعلى التل بسلسلة حديدية ثخينة ملفوفة على بكرة من حديد يديرها رجلان ، اخذ يحلان السلسلة حلقة حلقة ، حسب تعليمات الريس الذي ما انفك يصيح « بيرا ، بيرا ، ستوب ! يا الله يا رجال !» فيأتيه جواب الرجال « يا الله ! » تخرج من اعماقهم مرعدة هادرة وهم يضعون اكفهم على بطن المركب ومؤخرته ويدفعون . وعلى

الجانبين ، في دائرة كبيرة ، تحلق الصيادون والمتفرجون والاولاد ، وفزع البحارة كلهم للمساعدة في انزال المركب « التوفيق » الى البحر .

وعلى الجانب الايمن للمركب ، وفي مقدمته ، طبعت بالدم كف بحار عملاق ، ذلك ان صاحبه ذبح خروفا فدية عن مركبه وتذكارا ، فغمس بحار كفه بالدم ودمغ الخشب وهو يقول « باسم الله مجراك ومرساك .. اللهم احفظه من الحرق والغرق وتعهده بعنايتك ورعايتك يا ارحم الراحمين ، امين » فاطلق البحارة همهمة يمازجها الخشوع : « امين يا رب العالمين » ، وزغردت النساء ، وتقدم الفقراء من صاحب المركب فمد يده الى جيب شرواله الجوخ المقصب واخرج حفنة من النقود الفضية وشرع يوزعها ، واعلن ان لحم الخروف سيوزع كذلك بعد سلخه وتقطيعه ، وقال بصوت عال « ادعوا لنا بالتوفيق » فدعا له الجميع بالتوفيق والخير ، وشرع « اللنش » الذي وصل رافعا العلم السوري يزمجر في الماء ويهدر كأن في جوفه رجلا اتخذ من البحر ناركيلة وهو يسحب نفسا مديدا مديدا لا ينتهي ، وراح الماء يفور ويرغي، واللنش يتراقص بين مجموعة الفلائك المنتشرة حوله، والريس يصيح « ليوا ياشباب ، ليوا ، ارموا الحبل لنقطر المركب ، قولوا باسم الله » .

ووقف بحار اسمر يلبس سروالا من الشيت الازرق ذي المربعات ، وعلى راسه لبادة ، وامسك بالحبل ولوح به في الفضاء عدة مرات ثم رماه الى الشاطيء ، فسقط على الرمل المبتل ، بين اليابسة والماء ، وترك اثاره عليه ، ثم جاء الموج ومحا الاثر ، واسرع البحارة والتقطوا الحبل وناولوه الى البحار الواقف على مقدمة المركب ليربطه « الشكارمو » وتقدم الريس ليراقب عملية قطر المركب ويعطي تعليماته .

في هذه اللحظة وصل الطروسي واضعا يديه وراء ظهره، متمهلا ، مفكرا . كان يرفع راسه وينظر الى الغرب ،فيرى السحابة الرقيقة التي عند الافق تميل شيئا فشيئا الى السواد !

وصاح الريس مرحبا به :

ـ اهلا ابو زهدي ، بارك لنا !

ـ مبارك ، تشوفون الخير على وجهه ، اللهم احرسه.

قالها واشار الى بعض البحارة الواقفين :

ـ يا الله يا شباب ! اين فزعتكم ؟ العرس لنا ام للجيران ؟ هاتوا ايديكم ، اسمعوني اصواتكم ، ادفعوا بقوة ، بقوة ، بقوة اكثر .. اكثر ، ولك اكثر ، هيلا هيلا ..

اندفع عدد كبير من الحاضرين ووضعوا اكفهم على بطن المركب وصاحوا ملء حناجرهم : هيلا هيلا !

توقف الطروسي فخلع سترته والقاها على الرمل وصاح:

ـ ما سمعت

ـ هيلا هيلا (ثم بصوت جماعي اعلى) هيلا ، هيلا .

ـ ما سمعت !

ـ هيلا ، هيلا ، هيلا

ـ والله ما سمعت (قالها وقد اتخذ صوته لهجة الحداء ، واصبحت نبرته عنيفة قاسية)

ـ هيلا ، هيلا ، هيلا

رفع سبابته في الفضاء وصاح بنفس النبرة ولكن بصوت اسرع واعنف :

ـ المركب مركبنا ..

وردد الجميع :

ـ المركب مركبنا (قالوها بنفس النبرة وبنفس العنف وقد نفرت العروق زرقاء في رقابهم ، وشمخوا كأنهم يتحدون القوة بقوتهم)

كرر بعنف اكبر وانفعال اعظم :

ـ المركب مركبنا

وراحوا يرددون معه :

ـ المركب مركبنا

ـ والخام جوانحنا

ـ والخام جوانحنا

ـ والريح بتدفعنا

ـ والريح بتدفعنا

ـ والبحر بيحملنا

ـ والبحر بيحملنا

ـ والمولى حارسنا

ـ والمولى حارسنا

ـ والمركب فرسنا

ـ والمركب فرسنا

ـ ونحن الخيالة

ـ ونحن الخيالة

ـ هيلا !

ـ هيلا !

ـ ما سمعت ..

ـ هيلا ، هيلا ، هيلا ..

تحرك المركب فوق اللاطات المشحمة ، وانحدر ضخما كجبل نحو البحر ، وتراقص « اللنش » وازداد هديره ، وتصاعد الزبد اغبر كأن المحرك قد مس القاع ونبشه ،وتوتر الحبل الذي يقطر المركب وانشد نحو البحر ، وكرت البكرة الحديدية من وراء معطية للسلسلة التي تقوم مقام الكابح المدى اللازم للانزلاق ، وركض الريس الى امام والى وراء منفعلا بحماسة الجو ، ثم صعد الى ظهر المركب ، وفتح ذراعيه وحركهما موزعا تعليماته بصوت متهدج ، وشمل كل

ما حوله بنظرة واحدة ، ووازن بين الجميع ، وسيطر ، كقائد فرقة موسيقية ، على الجميع .

لقد نسي كل شيء الا انه الريس ، القائد ، وعلى الجميع ان ينظروا اليه ، ان يسمعوه بدون أن يتكلم ، ان يروا الى حركات يديه التي تقول لهم ما يجب ان يفعلوا . ان وجهه ويديه وعضلاته كلها تتكلم في هذه الساعة ، وارادته تتجمع في نظراته ، واهتزازات الية شرواله تتوافق ايقاعيا مع جسمه الذي ينتفض من رأسه الى اخمص قدميه .

الشمس ما تزال ساطعة ، والغيمة تكبر عند الافــق ، والدفء يغمر الدنيا بحرارة شال صوفي ، وبعض الفتيان قد خلعوا ثيابهم وسبحوا الى الزورق الذي امتلأ ظهره بالناس، وصيادو السمك هرعوا من كل ناحية، والطروسي يدفـع بكفيه بطـن المركب ، واضعا وجهه عليه ، مستنشقا رائحة الخشب التي تفعم رئتيه ، حتى اذا مست شفتاه الخشب احس بنشوة غريبة ، نشوة بحار قديم يحتضن مركبا جديدا ينـزل الى البحـر .

المركب ينزلق : والزورق يشد به ، وبكرة الحديد تكر وراءه ، والرجال يدفعون ويحفظون التوازن من على الجانبين، واللاطات المشحمة التي خلفها وراءه تنقل وتوضع امامه ليتابع عليهـا ما تبقى من الطريق ،والريس يقود جوقة العمل من على ظهر المركب ذاهلا عن كل شيء الا انسجام اللحن العظيم: لحن المركب المنحدر بعظمة وجلال الى البحر .

وارتفع صوت الريس من مقدمة المركب في صيحة حارة « ستوب » وقطعت ذراعاه الفضاء قطعـا حاسما ايضـا ، فتوقف كل شيء : شدت البكرة الحديدية من وراء وتراخـى الحبل الذي يقطر المركب من امام ، وتراجع الرجال من على الجانبين ، وداعبت اول موجة مقدمة المركب في تحية حارة،

ومدت المياه السنتها ولثمت عارضيه ، وقبل الزبد جوانبه قبلـة اللقـاء .

لقد دنت الهنيهة الحاسمة : دنيا البحر ، ذراعـــاه الكبيرتان ، صدره الرحب ، موجه ذو الذوائب ، اعماقه ذات الاسرار ، ستتلقى كلها مولودا جديدا بعـد طول مخاض ، مولودا جديدا سيذهب ويجيء ويستقر ويضطـرب ويعيش ويكبر ويهرم ثم ينتهي ، وسيعرف ، بين بدايته ونهايته ، اشياء كثيرة واسرارا كثيرة، سيتعلم الكفاح والصبر ،ويتذوق حلاوة الانتصار ومرارة الانكسار ، وسيجربه البحر ويلطمه بقبضتيه الجبارتين ، وعليه ان يكون قويا ليسلم ، مكافحـا لينتصر ، والا ضاع ابتلعته الاعماق ، فالبحـــر ، كالفرس الشموس ، لا يعتلي سرجها الا الفارس المغوار .

قفز الريس عن ظهر المركب ومضى بخفة الى وراء، الى راس المنحدر ، ليعرف ما اذا كان التوازن تاما .

فكر في ان يصيح بالطروسي ويأخذ رايه ، وكان هــذا ينتظر ذلك ويتوقعه ، انما كان يعرف ، كريس قديم ، ان التدخل بغير تكليف أمر غير مستحب ،وحتى لو فعله سواه فلن يفعله هو . حسبه انه يشارك في الفرجة ، انه يفزع الى المعاونة ، كما تقضي اخلاق بحار ، والمهم ، قبل هـذا ، ان ينزل المركب الى البحر ، وان يطمئن الى نزوله ، وان يكحل عينيه بمرآه وهـو يشق صدر الماء بحده المسنون .

صرف الريس النظر عن استشارة الطروسي . كان يحبه، ويتمنى لو سافر مرة معه ، وهناك، في البحر ، سيطلب منه ان يقود المركب فيرى الى مهارته التي يتحدثون عنها ،ويعرف ما اذا كـان حقا كمـا يقولون ، اما هنا ، امام هذا الجمع ، فلن يفعل ذلك ، ولن يسلم براي الطروسي فيما اذا عارضه ، واذا قال الطروسي كلمة ولم تسمع كانت تلـك نهاية الصداقة بينهمـــا .

هبت نسمة باردة ارتعشت لها جسوم العراة من الرجال، وبدأت الوجوه المنداة بحمرة الحماسة والجهد ، والعروق النافرة في السواعد والاعناق ، تتمدد في استرخاء بفعل الراحة . وتقدم البحار الذي سبق واعطى ملاحظة عن توازن المركب وهمس باذن الريس كلاما لم يسمعه الاخرون .

كانت الارض رملية ، عن يمين المركب، تميل قليلا الى الانخفاض ، وفي حال كهذه يجب ان يزداد الشد من يسار ، وان تزاد المساند من الجانب الاخر كتدبير احتياطي .

وفهم الطروسي من اشارة البحار انه ينبه الريس الى ذلك ، وكان يود ان يأخذ الريس بهذه الملاحظة ، وبسرعة ، قبل ان تبترد جسوم الرجال ، لكن الريس راوغ ولم يوافق موافقة صريحة . وكان ذلك حريا بان يغضب الطروسي لولا ان عالمه الداخلي كان على درجة من الانسجام والصفاء كبيرة، لا تعكرها امثال هذه التصرفات . وقد حكم في ذاته على الريس عبدالحميد بانه عنيد اكثر من اللازم ، ولا يعرف كيف يستفيد من بحارته ، ولا كيف يتعاون معهم .

وقال الريس عبدالحميد وهو يصعد الى المركب مجددا:

ــ همتكم يا رجال !

وقبل ان يبدأ باعطاء التعليمات ، مال الى جانب المركب وقال :

ــ يا ابو زهدي ، شرف لعندي خي ، خلينا على الظهر مع بعضنا ، بدانا ننزل في البحر .

استقبل الطروسي هذه اللفتة بالرضى . لقد جاءت متأخرة ، ولكن ما قيمة ذلك ، يكفي انها جاءت وان الريس حيّاه ، وعليه ان يرد التحية بأحسن منها. ثم ان البحر اصبح تحت المركب ، وسيقف على المقدمة كما كان يفعل من زمان، وسيحظى ، مرة اخرى ، بفرصة نزول البحر على مركب

جديد ، وسيستطيع ان يحكم عليه لمجرد انه على ظهره وهو يلامس الماء يتهادى عليه .

ومع ذلك اعتذر ، واصر على البقاء بين البحارة ، وكان راضيا بذلك ، وقد ازداد رضاه حين اصدر الريس تعليماته التي تنطبق ، ولو قليلا ، على ملاحظات البحار ، فزاد المساند من يمين ، وشد الحبال من يسار .

وعاد ينخي الرجال :

ــ خلصنا هه ، همتكم يا شباب ، قولوا يا ميسر .

هدر ازورق وزمجر مخرجا الرمل من قاع البحر . وتقلص ارتخاء الحبل الذي يقطر المركب ، ثم اشتد وتوتر واستعد الجميع ، ونظر الريس حوله : كل شيء جاهز: شمس شباط ساطعة ما تزال ، والرمال تبتسم ، والفلائك تتجمع ، ولم يبق الا ان يعطي الاشارة ليبدأ العمل ، ويقطع المركب المسافة الصغيرة الكبيرة الفاصلة بين عالمين : عالم الارض وعالم الماء .

.. واعطى الريس ، اخيرا ، هذه الاشارة ..

وصر شيء ما صريرا حادا فوق اللاطات . وانحدرت الكتلة الخشبية الجبارة فانشق لها صدر الماء وتلقاها. وضرب الطروسي مؤخرة المركب بكفه ضربة فارس على كفل حصانه وهو يبعث به وحيدا لاداء رسالته . ومخر الزورق قاطرا المركب وراءه ، وتقدمت الفلائك بمجاذيفها تحف به من جانبيه، وصفرت سفينة في الماء صفيرا مديدا تحية له ، وتراكض البحارة ونزلوا في الفلائك ، وصاح صاحب المركب « الغداء عندي يا شباب ! »

كان خط عريض ازرق يرتسم خلف المركب ، وصيادون يقتربون من الشاطيء ، وعشرة منهم يسحبون الشباك ، والحبال على شكل حدوة حصان ، طرفاها الى البر وقنطرتها

الى البحر ، ولها عقد يتمسك بها الصيادون وهم يسحبون متراجعين واقدامهم تغرز في الرمل ، وافواههم تنشدباجماع وبطء :« شد حبالك شد ، شد » والحبال تتكوم على الرمل، وقطع الفلين العائمة تقترب ، والمسافة بين طرفي الحبل المسحوب تضيق ، والساحبون يتجاورون ، والغناء يتواتر وينداح بنفس البطء ونفس العمق : « شد حبالك شد ،شد!»

وانتهى ، بعد طول عناء ، شد الحبال ، وخرجت الشبكة وفي داخلها السمك ، فاشرقت اسارير الصيادين ، وركضوا نحوها بالسلال . لقد توفقوا اليوم ، ان سهرهم وشدهم لم يذهبا سدى كما حدث امس ، ومعنى هذا ان قوت عيالهم قد تأمن . وكانت الاسماك ، باحجامها المختلفة فضية اللون ، تلمع حراشفها تحت الشمس وهي تنط وتحاول الافلات من الشبكة ، وقد اعطى خروجها جانبا اخر مضيئا للوحة الشاطيء البهية في هذا اليوم المشرق ، فبدا كل شيء يضحك للحياة ، يضحك لهذا الوجود المتفتح كأزهار اللوز .

رجل واحد لم يضحك ولم يعبس . كان لا مباليا بما حوله ، يسير وكأنه مكلف بنوبة حراسة يؤديها على الساحل.

هذا الرجل هو الطروسي الذي توقف قرب صياد القى صنارته في الماء وراح ينتظر ، فشرب معه سيكارة وتابع طريقه الى امام .

المركب الجديد يبتعد ، وعلى ظهره خلق كثير ،وسيقوم الان بجولة قصيرة ثم يعود الى الميناء ، فيترك فيها حتى تمتص اخشابه الماء وتلتحم ، وتقام على ظهره الصواري ، ويجهز جهاز عرسه ، ويزف بعد ذلك الى البحر ليقوم بأولى رحلاته في دنيا الماء .

وكان الطروسي ، يفكر في امر نفسه ، وهو يسير ، ويفكر في مركبه الذي ضاع منه ، ويسائل نفسه مقهورا : « الن اصبح صاحب مركب مرة اخرى ؟ »

واجاب على سؤاله فورا : « بلى ! ! سيكون لي مركب، ساعود ريسا كما كنت ، وسأسافر الى بعيد ، الى قبرص والاسكندرية ورومانيا وكل شواطيء المتوسط ، وسانزل في جميع المرافىء : سازور مرفا كونستانزا وارى « ماريا » ، وسألقى في كل مرفأ بحارة يشربون نخبي ، واصحابا كنت اعرفهم ، واصحابا اتعرف اليهم . فقط لتنته الحرب ، وسأبيع المقهى ، لا ، لن ابيعه ، ساهبه لابي محمد ، ولكن اذا اصر على اللحاق بي ؟ على السفر معي !؟ »

وقرر في ذات نفسه حاسما الموضوع : « سآخذه معي ، لن اتركه مقطوعا على الشاطىء » .

وتابع مسيره الى حي الرمل ، فقد كان موعد خلوته بام حسن قد ازف منذ وقت طويل .

٧

علا الصياح بين بحارة قدري الجانودي فجأة في مقهى الطروسي .

كانوا يجلسون في الزاوية ويقتسمون الغلة بهدوء ، ثم اختلفوا وهكذا بدأت المعركة .

لم يتحرك ابو محمد من مكانه وراء الدكة . ذلك انه لا يستطيع تفريقهم ، وليس مستعدا ان يتلقى ضربة على راسه او كتفيه ، ثم ان الطروسي ، وهذا هو المهم ، اوصاه الا يتدخل ، لان هذه المشاجرات يومية ، فالبحارة يبدأون باقتسام الغلة في البحر ، ثم يكملون الحساب على الشاطىء ، ويصفّونه في المقهى ، ويتعاركون لاتفه الاسباب ، ثم يتصافون ويعودون الى الصيد والعراك مرة اخرى .

وكانت مشاجرات البحارة تقع في غياب رياسهم غالبا ، اما بالنسبة لقدري الجانودي فان غيابه وحضوره سيان ، فهو يحب عراك البحارة ، ويعتبر عراكهم ، في غير اوقات الصيد ، ضربا من تزجية الوقت ، وهو الى هذا ، يعلم ان الزعيق والشتائم هي بضاعة مثل هذه المناسبات ، وحين توضع امامه الناركيلة ويمسك بالنربيش يستسلم الى بلادة جسدية يصعب عليه معها ان يقلق او يثور ، ثم انه يرغب في ان تعلو الضجة حوله وان يتصايح الاخرون ، فهذا يتيح له ان يعلق ، بين سحبتين من الناركيلة ، على المشكلة موضوع الخصام ، وحين يفعل ذلك لا يحسم الخلاف ، بل يطلق كلاما لا يعطي فيه الحق لاحد ، ويبدو متفرجا اكثر منه ريسا يتعارك بحارته امامه .

على ان معركة اليوم كانت حامية ، وقد تطورت حتى لم يعد يستطيع السكوت ، فهم باثبات وجوده فعليا ، ولكن الموقف كان قد افلت تماما ، وجعل البحارة يتضاربون ، وتدخل احمد في المعركة دونما سبب ، فصاح به ابو محمد :

ـ يا احمد ، يا حيوان اتركه ، اتركوا بعضكم ، اطلعوا من المقهى ، اوباش !

ولم يتلق جوابا على صيحاته كلها .

كانت الكراسي قد انقلبت ، وناركيلة قد انكسرت وانسفح ماؤها على الارض ، وتحطمت بضعة فناجين ، ووقف الزبائن فتدخلوا ما بين مخلّص وناصح ، وبجهد استطاعوا اخراج المتعاركين من المقهى ، وارسل ابو محمد وراءهم جملته المعتادة :

ـ روحوا بداهية ، لا ردكم الله .

وتكاثر الرجال ، وتراكض البحارة ففرقوهم ، وعاد الجميع الى المقهى لتصفية الخلاف وابو محمد يقول مهددا :

ـ اتركوا كل شيء على حاله ، اتركوه حتى يرجع الطروسي ويتحاسب معكم .

قال بحار كبير السن محترم المقام :

ـ لا داعي لذلك يا ابا محمد ، افرطها ، يلعن الشيطان وساعته ، كل شيء راح يرجع الى موضعه والخسارة علي .

ـ الخسارة كبيرة ، كل ما معهم لا يعوضها (وهو يخرج من وراء الدكة) وانا لا اتدخل ، سأحكي الذي صار للطروسي وهو يدبر الموضوع .

صرخ احمد الذي كان وجهه قد ازرق بفعل الكلمات :

ـ شف هذه الآلة المزفتة ، شف !

فسحب ابو محمد ملقط النار وهجم عليه :

ـ يا ابن الجرو ، اذا لم اخبر الطروسي اضربني بنعلك .

ـ طيب اخبره !!

فاحتد ابو محمد وهز الملقط مهددا ، وتضاحك البحارة، وبدا المتشاجرون بالتفاهم . قلما ان هدا كل شيء، قال ابو محمد متابعا تحذيراته :

ـ يا اوباش ، لا اشتهي الا ان تعملوها والطروسي داخل .

ثم وجه اليهم هذا السؤال :

ـ لماذا لا تجربون رجولتكم امامه ؟

واجابه ايبسهم رأسا :

ـ اذا داس انسان على رجلي طبقت اضلاعه ولو كان ابن السماء !

ـ فشرت !

ـ انا ؟

ـ اي انت ، طظ . . .

سحب الملقط ثانية ، فضحك الجميع وقام اليه البحار فاحتضنه ورفعه عن الارض ، وهلل احمد لهذه الحركة وراح ابو محمد يصيح :

ـ اتركني هه ، اتركني والا شويت نعمتك من الضرب .

ولكن البحار حمله الى موضعه من الدكة ، وظل الجميع يمازحونه ويسمعون الى شتائمه كأنها مدائح !

واستمر يصيح :

ـ انا قلت لكم الف مرة لا تقسموا الغلة في المقهى ، لا يأتيني وجع الراس الا من وراء حساباتكم ، هاتوا دينكم وروحوا عني ، بحارتك ياريس قدري لا يأتيني منهم الا البلاء .

ـ وبحارة غيري ؟ اغتنيتم من ورائهم ؟ (ملتفتا الى بحارته) اسمعوا ما يقوله ابو محمد ، انا ما عدت اتساهل يا شباب ! لا اريد ان يعيرني احد فيكم ، سأقسم الغلة في السوق ، وكل واحد يذهب في حال سبيله بعد اليوم .

ـ هذا هو الصحيح ، بحارتك ما اوادم .

فصاح البحارة هازئين وقد جلسوا يلعبون الورق :

« هات ركب (١) .. خلصنا »

ـ لا اركب ، هاتوا ، ادفعوا ! ديونكم وصلت للسقف .

ـ منتك على حالك ، ركب !

ـ هذه اخر مرة هه ، كل واحد يمد يده الى جيبه .

ـ قلنا لك ركب ، اي العمى ما خلصنا !؟

ـ انا لا اركب الا للذي يكفله ريسه او يدفع عنه ، القهوة لها ثمن مـا من عند امي .

ـ اف كلامك كثير ابو محمد اليوم ، بالع فنوغراف ؟

قالها احمد وهو يهرش براسه ، فشتمه ابو محمد ، وركب له مع ذلك ، ثم شده من اذنه وقال :

ـ لا فائدة ، ابن كلب !

وصفق الريس قدري الجانودي طالبا « بصّة » للناركيلة ثم قـال :

ـ اتركونا من لعنة اللعب ياه ، خبرونا الى اي جهة راح الاولاد اليوم .

قال ابو فضل :

ـ الله اعلم ، الرحموني راح الى صيد « المرمور » والاولاد « جونوا » ، سيقضون اليوم في البحر ، الدنيا « غلينة » .

جاء صوت ابو محمد من وراء الدكة :

ـ لا تغركم غلينة شباط ، الطروسي قال : الدنيا « فرتونة » والريح « شلوق » بعد العصر .

قال الجانودي :

ـ ما اظن ، الطقس حلو .

فرد ابو محمد :

ـ الطقس حلو صحيح، ولكن شباط غدار، الطروسي . .

---

(١) التركيب في لغة رواد المقاهي الشعبية يعني تقديم مشروب جديد يدفع ثمنه اللي يخسر اللعب .

فانبرى له الجانودي :

– يعني كلمة الطروسي نزلت من السما!؟

– نزلت واكثر ؟!

– استغفر الله ، هذا كفر يا عم ابو محمد .

– كفر او غير كفر ، انا لا اعرف بالطقس ، مثل ما سمعت قلت ..

فنزع الجانودي نربيش الناركيلة من فمه وقال :

– كلامك على راسي ، ولكن لا تجادل بالمحسوس ، الطقس حلو اليوم ، شف الشمس .

وعلق بحار على هذا الكلام وقد التفت الى المتحدثين ريثما يتم خلط الورق :

– صحو او مطر ، هذه حياة البحر ، المسلم هو الله.

واجمع البحارة على تصويب رايه :

– لا شك ، المسلم هو الله .

وعلا صوت احمد صائحا :

– ابو محمد ركب ، صار ثلاثة !

قال ابو محمد :

– خلاص هاتوا مصاري ، مدوا ايديكم الى جيوبكم (موجها الكلام الى احمد) وانت يا حيوان ، قم فاشتر الناركيلة التي كسرتها قبل ما يرجع الطروسي ، اللعب لا ينتهي ، لكن الطروسي راح يكون في المقهى بعد الظهر .

وقال ابو فضل ناصحا ومتمنيا الخلاص من ضجة اللعب:

– قم يا احمد ، لا تجلب لنا وجع الراس يا ابني .

فتمتم احمد بكلمات غير مسموعة ولم يتحرك ، وقال في نفسه : « الطروسي الآن في البحر ، ولن يعود قبل المساء ، والى المساء يفرجها المولى » .

الا ان ابا محمد جاء وهمس في اذنه قائلا « قم هات الناركيلة ، الطروسي في حي الرمل وليس في البحر » .

٨

كان حي الرمل في الجهة الشمالية الشرقية من اللاذقية، وفي هذا الحي قرب السجن ، كانت تسكن ام حسن ، والى جانب بيتها بيوت قليلة متناثرة ، بناها اناس جريئون ، فكانت النواة الاولى للحي الكبير فيما بعد .

وفي منطقة الرمل هذه يقوم مبنيان متميزان ومكروهان من سكان المدينة الذين يتنزهون على الشاطىء . كانوا يصلون في نزهاتهم الى هذه النقطة ويعودون ، كانها الحد الفاصل بين المدينة والريف ، ويقول الطلاب وهم يمضغون المبادىء الاولى لدروس الاخلاق والاجتماع : (انظروا المتناقضات ، هنا العبودية .. وهناك الحرية) يقولونها ويشيرون باصابعهم الى السجن والى المبغى العام ، ويتركون، بعد ذلك ، لمخيلاتهم ان ترسم صورة الحياة في المكانين .

وكان السجناء يتعلقون بالنوافذ العالية في القواويش ، ويضعون وجوههم على قضبان الحديد وينظرون الى بيت البنات الاحمر نظرات شرهة تومض بالشهوة والحسرة معا ، فاذا خرجت بنت الى السطح صفروا لها او لوحوا بالمناديل مطلقين في اثرها كلمات داعرة ، فتجيبهم البنت بكلمات اكثر دعارة ، او تهرب منهم الى الداخل .

وكانت موسيقى صاخبة واغان بلدية تتصاعد من الفونوغرافات ، وتسمع احيانا بعض الاغاني التركية . اما الاغنية المفضلة فكانت لفريد الاطرش « يا ريتني طير لاطير

حواليك » وقد تعلو الاصوات المعربدة مرافقةللفونوغرافات ، وتظهر البنات في النوافذ بالثياب الداخلية ،او يتخطرن امام الابواب ، وتهف رائحة الخمر على السجن فيتنشقها السجناء ويعلقون قائلين « اذا خرجنا غدا فلا بد ان نزور جاراتنازيارة تعارف وسلام !»

فيقول المحكومون منهم لمدد طويلة :

ـ اذكرونا اذن وانتم تتنعمون !

ويجيب الذين انتهت احكامهم :

ـ لا تفتكروا ، دفعة الحساب الاولى على اسمكم ، ويا بخت التي تقع بين ايدينا ،نحن ياعم لنا ثارات .. ارسلوا حريصا ولا توصوه .

وكثيرا ما تعالت ، في انصاف الليالي ، اصوات المعارك في المبغى ، فيفيق السجناء من نومهم صائحين :

ـ علقت عند جاراتنا يا شباب ، لن يتركونا ننام . في النهار عذاب وفي الليل عذاب ، من هو الشيطان الذي بنى السجن بجانب المبغى ؟ يبدو انه ابن زنى ! من الخير انالبيوت بعيدة ، والا كانت النساء فحشت اكثر من الرجال .

وكانت البيوت تقع وراء السجن ، نحو الشمال ، فلا تطل على هذا المحل ولا تراه ، ورغم هذا كان السكن قليلا في المنطقة ، يزحف اليها ببطء .

ولقد فكرت ام حسن كثيرا « لماذا اسكنني الطروسي هنا ؟ هل لانني لست زوجته ؟ هل يريد ان يخفي علاقته بي عن الناس ؟»

وصارحته بذلك مرة فأجابها :

ـ كلما ابتعد الانسان عن المدينة كان ذلك افضل . لا احب البيوت المتلاصقة وكثرة الازدحام .

كان يريد ان يعيش على هواه فيكل شيء ، حتى في

نوع البيت والمراة ، وقد اعتادت ام حسن طباعه هذه ، واطمأنت الى ان المسألة مسألة مزاج ، واستشارت زكية فقالت لها :

ـ الوحدة عبادة . ابتعدي عن الناس بقدر ما استطعت. يكفيك الطروسي ومجلسه . لو كان عندي رجل مثله لعشت معه على رأس جبل .

وآمنت بكلامها . بيد ان الفراغ الرهيب الذيتستشعره يجب ان يملأ فماذا تفعل ؟ هل تزجي وقتها بالزينة ؟ تكفيها ساعة لذلك ، بالقراءة ؟ لا تعرف ان تقرأ . بالشغل ؟ ليس لديها شغل ، فلم يبق امامها الا ان تنام ، ولم تكن تقصر .

ثم اصبح لها ، مع الايام ، بعض التسليات : لعب الورق مع زكية ، وسماع الراديو ، وتحضير المازة للطروسي ، وانتظار مجيئه وهي على ما يريد لها من عطر وثياب . وقد كانت هذه الاشياء تستغرق بعض وقتها ، ويظل لديها وقت كثير للتفكير بماضيها ومستقبلها على السواء .

وكانت اليوم في ثوب مزهر ، ومن شعرها وصدرها الكاشف عن نهديها يتضوع عطر « الريف دور » ،وفي غرفة النوم خوان عليه زجاجة عرق وقدحان ومزهرية وابريق ماء.

لقد عرفت ، منذ ليلة امس ، ان الطروسي سيأتي اليوم ، وسيكون عندها قبل الظهر ، فيشرب ويتغدى وينام. وقد استعدت هي للشرب والغداء ..والنوم ايضا .

وجاء الطروسي متأخرا عن موعده المعتاد . كان هادىء الخطوات ، كأن هذا التأخير ليس مما يحسب لهحساب. سألته :

ـ لماذا تأخرت ؟

ـ كنا مشغولين بانزال مركب .

ـ وكيف جئت وتركت اصحابك ؟

ـ عزموني على الغداء فاعتذرت،قلت لهم سأذهب لانزال مركبـي انا ايضا .

وضحك وهو يأخذها الى قربه ، فمدت يدها البيضاء التي وسوست فيها الاساور وطوقت رقبته وقالت :

ـ وهل تستطيع انزال مركبين في يوم واحد ؟

ـ اذا لم تعاكسني الريح !

ـ واذا عاكسك الخام !؟

واجابها وهو يهصرها بين ذراعيه :

ـ هذه شغلة الريس !

ابتسمت زكية من المطبخ وهي تنظر من خصاص الباب الى المشهد الماثل امامها،ثم تنحنت ودخلت حاملة صحيفة المازة ، فنأى الطروسي عن ام حسن ، وجلس جلسة طبيعية امـام العجـوز .

الا ان ام حسن لم تكف عن مداعباتها . قالت تلاطفه :

ـ كيف شفت المازة ؟

ـ اي منها ، هذه ام هذه ؟

ومد يده الى شفتيهـا .

ـ لا ، هذه (واشارت الى الخوان)

ـ عظيمة ، الله يعطيك العافية . (ثم اضاف) مـن انجبل ولا تكون مازتك عظيمة ؟ ما معقول ،الجبل ابوالكيف، اما اشتقت الى بلدك ؟ سنذهب اليه قريبا .

غيرت الحديث بسرعة ..

انها تحب ان تذكر بلدها .. وهي تذكره كثيرا ، ولكن ليس الان .. « هذا لطف منه » ولكنه لطف في غير وقته ، فهي لا تريد ان تذكر ، فيهذه اللحظة ، الاه ، لا تريد انتعود الى بلدها ، ولماذا يريدها آن تعود ؟ الكي يتركها ؟

رفعت الكأس وشربت . انها تجابه افكارهـا السود

بالشراب . يكفيهـا الآن انها معه ، وحين تكون كذلك تفـرق مخاوفها في بئر اللذة التي تمتح منها .

ومن ثم اكلا ، وناما ، فلما افاق الطروسي وجد غيوما متفرقـة في السماء ، وريحا تهب من الغرب ، فهز برأسه وقال « صدق ظني ، الليلة عاصفة ، يا ترى رجع الرحموني والاولاد ؟ »

وارتدى ثيابه وترك ام حسن وعاد ..

٩

كانت شختورة الرحموني تتجه الى مناطق صيد « المرمور » . لم تفته الغيمة التي عند الافق ،فهو ايضا ريس مجرب معروف بالدقة وبعد النظر،الا انه لم يقدر أن شيئا غير عادي سيحدث قبل عودته .

ثم انه اقلع ، فهل يضيع يومه سدى ويعود صفراليدين بغير صيد ؟ وخبزات الاولاد ؟ واجور البحارة ؟ والاطمئنان، بعد ، الى اخوة البحر ؟ كل ذلك كان له في نفسه اثر من ثقة ، فمضى هكذا الى امام على بركة الله .

لكن العاصفة حين تحدث لا ترسل انذارا الى الناس. هي نفسها لا تدري انها ستحدث ، فمن قلب الهدوء ينفجر شيء ما بالغضب الاكبر ، وتثور عناصر الطبيعة على بعضها في قتال لا رحمة فيه ، ويصبح الناس عندئذ ، اطفالا عاجزين تسحقهم رحى الحرب المندلعة بين اعداء غير منظورين .

ان ثارات الانتقام لا تتراءى في النظرات دائما بل تكمن في الاعماق ، وتتجمع في موقد النار عودا بعد عود ثم تنقدح الشرارة فيشتعل الغاب، وتنفجر براكين الحقد في كل مكان، ويحدث فجأة الحريق العظيم . وكذلك هي العاصفة : تتجمع عناصرها في كبت شديد ، وينتشر لهبها فوق الارض وعلى سطح الماء ، ويظل الهدوء ، مع ذلك مخيما ، وتظل الشمس مشرقة ، ثم فجأة ينطفيء النور، وتسود الظلمة ، ويقهقه الغضب ، وتندلع من صدر الارض والسماء ثورة الطبيعة التي هي ام الثورات .

على ان الذين في الغاب لا يرون غضب الطبيعة وهو يتجمع من فوقهم ومن حولهم ، تكون الاشجار قد حجبت عنهم حقيقة الاشياء ، فيخدعهم هدوء الطبيعة عما وراءه، ويفتحون عيونهم على حين غرة فاذا العاصفة تطبق عليهم ، وكف الغضب تعصف بقشورهم ، وعندئذ يولولون ويركضون ، لكنهم يصبحون في قبضة الثار كما يصبح الطير في كف النسر .. لا مفر !

وشأن الذين في البحر شأن الذين في الغاب : يمضون على سطح الماء حتى يقلب لهم ظهره ، واذ ذاك يدركون ان الهدوء الذي ران من حولهم كان هدوءا خادعا .

كانت الشمس مشرقة فوق شختورة الرحموني المتهادية على سطح اليم في طريقها الى مناطق الصيد،وكان شراعها الابيض منشورا على الصارية ، تنفخ فيه الريح فتندفع الشختورة في مسراها بعيدا عن الشاطيء ، والمدري ملقى الى جانبها والمرساة تستريح في المؤخرة ، والفلوكة الصغيرة تربض على الظهر وفي قلبها المجاذيف ، والرحموني وبحارته يتحدثون ويستجمون .

ان لديهم وقتا ما يزال ليشرعوا بالعمل ، وقد طعموا في الاصيل وجلسوا يدخنون ويتندرون ، بينما امسك احدهم بالدفة يوجهها في الاتجاه المقصود .

كانوا خمسة ، ومعهم شباك ضيقة الحبك لاصطياد « السلطان ابراهيم » و« المرمور » وكان عليهم ان يذهبوا بضعة كيلومترات في البحر ليبلغوا المنطقة ويشرعوا بالصيد ليلا .

وكان الرحموني يتحدث عن الذين عملوا معه في مركبه « السعد » . وقد توقف عند ذكر جميل سعود من جزيرة ارواد فقال :

ــ انا اول من اخذه في رحلة الى مرسين ، وقد تدرب

بسرعة واصبح بحارا اليوم .

ــ اصبح بحارا وصاحب مركب .

ــ الله الموفــق .

ــ بيت سعود نجحوا يا ريس .

ــ من جد وجد . تعبوا وواجهوا الموت مرات حتــى صاروا . اسألوني انا عنهم ، هذا جميل حسب يومــا فــي الاموات ، لكن الاعمار بيد الله .

وتنهد كمن يستعد لرواية واقعة بعيدة ومؤثرة فقال :

« بعد ما تمرن معي سنتين ،اشتغل هو واخوه فــي مركب بيت حمرا ، ، وفي سفرة بين الاسكندرية وارواد ، صادفتهم نوية هددتهم بالفرق .

« في تلك الايام لم تكن المراكب تسير بالموتورات .كان الخام هو الموتور (وصمت قليلا واردف) آه من الخام، حلو ومر ، حلو اذا واتت الريح ومر اذا عاكست . وقد عاكست الريح اولاد سعود وواجهتهم امواج مثل الجبال بعد ما خرجوا من ارواد باتجاه بيروت .

« كانت نوية شديدة لم يروا مثلها في حياتهم ،وكان على المركب حوالي عشرة بحارة ، وريسه مصطفى ابن سعــود الكبير ومعه اخوه جميل ، وجميع البحارة من ارواد،وجميعهم مثل الاخوة ، لكن في ساعة الشدة تضيع الطاسة ، لا يعرف الريس اين يقف بحارته ، ولا البحارة كيف يتفاهمون مــع ريسهم ، وتختلط الاصوات بعضها ببعض ، والشاطر مــن يتمسك بما يجده بجانبه ، كي لا تقذف به الريح الى البحر.

« قلت كانت الامواج كالجبال ، والمركب يضطرب فيها مثل طاسة ، فيعلو الى القمة ويهبط الى القاع ، والبحارة ينضحون الماء ، وينزلون الخام ويبتهلون الى الله .

وقاطعه البحار الجالس الى الدفة :

ــ مثل العادة يا ريس !

وضحك البحارة ...

ــ تماما ، اخلاق البحارة لا تتغير يا ابني . صلاة فــي وقت الشدة ، وكفر في وقت الرخاء . في البحر يسجدون لله ويمزقون قمصانهم وينذرون النذور، وعلى البر يحرقون الدين كما يحرقون ورق السيكارات . ما في الكون مثل البحار ، مؤمن اكثر من ناسك في وقت،وكافر اكثر من ملحد في وقت، وحياته تعب في تعب ، ولكن جربوا ان تدلوني على بحار ترك البحــر ؟ ايــن هــو ؟ ايــن هــذا البحار : البحــر قطعــة من حياتنا . للفلاح ارضه ، وللعامل معمله ، وللبحار ماؤه، هذا (واشار الى البحر) ارضنا ،هنا نحيا وهنا نمــوت ، والذي يستطيع ان يتخلص من هذه « السوسة » اعــــده صاحب ارادة ، ما رايكم ؟

اجا ب البحارة وقد اثرت فيهم كلماته :

ــ صدقت يا ريس ،هذه حياتنا .

وارسل هو هذه الملاحظة :

ــ بيا الى اليمين يا شمسي ، خليك مع الريح .

وادار شمسي الدفة قليلا ، فبدات الشختورة بالانعطــاف وتابــع هــو قصته :

« قلت لكم ان الامواج كانت كالجبال ، وكان هم الريس ان يخلص المركب من الفرق ، لذلك انزل الخام،وغير الاتجاه في دورة كبيرة ، وعاد الى ارواد ، وبدات الريح تدفع المركب كسهم من قوس ، والريس يصيح :

« خلصنا باذن الله ، لا تخففوا من السرعة ، نحن مــع الريح والعاصفة ستهدأ ، انظروا الى فوق !

« نظر البحارة الى فوق فوجدوا انقشاعا في الجــو . العاصفة تمر ، وقد اوشكت ان تتركهم وراءها ، فعــاد اليهم الامل ، والامل يعود ، لمجرد ان الريس موجود ، لمجرد انــه يقف على الدفة ، لمجرد ان اعصابه هادئة .ما اكثر ما يحب

البحارة رينسهم الشجاع يا اولاد ، وما اشد ما يثقون به .

قال بحـــار :

ـ لكنهم لا يحب بعضهم بعضا .

وقال آخـــر :

ـ المسألة عداوة كار ..

اسكتهم الرحموني :

ـ لا تقولوا هذا . البحارة جسم واحد وروح واحدة ولا عبرة لما يجري بيننا على البر ، نحن عائلة واحدة مهما اختلفنا ، ولو كان البحار عدو البحار لا يتركه اذا رآه في خطر . البحر فروسية ، انا هكذا افهم هذه الصنعة الملعونة ، ولكن ظروف البحر غير ظروف البر ، تأتينا ساعات يتخلى فيها الاخ عـن اخيه . يبكي ، ولكن ما نفع البكاء ؟ اذا كان لا بد ان يموت الاخ فالافضل ان يسلم اخـوه ، واذا كان لا بد ان يموت الاثنان فلا موجب لان يموت الكل . البحر غدار لا يرحم ، والرجل من يضبط اعصابه ويسلم امره لله ، وهذا ما فعله ابن سعود ، فعندما ادار الدفة وانطلق بالمركب في طريق العودة ، سقط اخوه في البحـــر .

سأل البحارة :

ـ كيف سقط ؟

فرفع الرحموني يده وقال :

ـ لا تسألوني ، لا اذكر ، ولا اعرف . جميل نفسه لا يعرف ، اذا وقع القدر عمي البصر ، ما احس الا وهو فـي طيات الموج ، ويا له من موج ! ويا لها من ساعة ! جميل يصرخ من البحر « يا خيي . » ومصطفى يجيب من المركب « ياخيي ! » والبحارة يتراكضون ، ويلقون له الاخشاب والاطارات ، ولكن لا الاخشاب ولا الاطارات وصلت اليه . المركب يسير بسرعة الريح ، وفي كل لحظة يبتعد عنه عشرات الامتار ، وهـــو يصارع الموج ويقاوم الريح والمطر والليل ، والعاصفة تزمجر

وصوتـه يختنق ويضيع .

« امر مصطفى بانزال قارب النجاة ، وقال انه سينزل وحده فيه ، فرفض البحارة الفكرة ، وركض ابو ياسيـــن ، اكبرهم سنا ، فاحتضنه ونصحه :

ـ لا يا مصطفى ، لا تفعل يا ابني ، ارحم شبابك ، اذا فجعت امك بأخيك فلا تفجعها فيك ، واذا رفضت نصيحتي اخذت القيادة منك ، ارواحنا بين يديك فلا تضيع نفســك وتضيعنـــا .

« والقى مصطفى راسه على صدر ابي ياسين وبكى .

الاخ حلو يا شباب ، لو كان الانسان اجبن جبان ، وكان اخوه في ضيق القى بنفسه الى الهلاك لاجله . كان البحـــارة لا يسمعون الا صفير الريح ، ولكن مصطفى انتفض وصاح :

« اسمعوا صوته ! اسمعوه ! مستحيل اتركه ، خلوني انزل ، ساعدوني يا شباب ، ساعدوني كرامة لخاطري ، يـــا ابـــو ياسين خذ القيادة وخفف سرعة المركب واتجه الى الشمال » .

« كان البحارة يتراكضون على سطح المركب في ذعـــر وهياج وتأثر ، وثيابهم تلتصق على اجسامهـــم من المطر ، والمركب يتمايل ويتقلب ومياه البحر تجري بين اقدام البحارة ، والريح تزأر بين الخام والصواري ، ومصطفى يقول انه يسمع صوت اخيه ، ولم يكن هناك صوت غير صوت الريح ، ومـــع ذلك اخذ يصرخ : « يا جميل ، يا خيي ، لا تخف جئتك ، جئتك بالقـــارب » .

« وانزلوا له القارب يا اولاد .. انزلوه مرغمين ، وتطوع بحار للنزول معه . كان تصرف مصطفى غريبا لا يليق بريس ، ولكن الاخ حلو ، وقد فقد مصطفى شعوره بالخطر ، ولم يعد يحسب حساب الموت ، وكان من المستحيل امساكه بعـــد ان هدد بالقاء نفسه في البحر . لكن القارب ما كاد يلامس الماء حتى لطمه الموج وقذفه على بطن المركب ، وقذفه ثانية وثالثة

حتى قلبه ، وبدا ان الريح ستمزقه ،وانه سيظـل يرتطـم بالمركب حتى يتحطم او يحطمه ، فقرروا رفعه ، وكان الموج اسرع منهم فكسر جنبه وانقطع الحبل في مقدمته ، وعنـدئذ اسرع بحار وقطع الحبل من الطرف الآخر ، فراح القارب يطير كالريشة ، وينقلب على بطنه وظهره حتى اختفى وضاع ،وضاع معه كل امل ، واستسلم مصطفى لحكم القدر ، وعاد المركب يتابع طريقه الى ارواد .

« وفي ضحى اليوم الثاني تجمع اهالي الجزيرة على الشاطىء .. راوا المركب يعود من بعيد ، فعرفوا ان عودتـه اضطرارية ، وان حادثا وقع له .

« كان المركب يقترب بطيئا جدا ، فقد هدات الريح، وترك العاصفة وراءه ، وخنق بحارته العلم دلالـة الحزن ، فكانت هذه الاشارة كافية لاعلام اهل الجزيرة ان على ظهـر المركـب غريقـا .

« وكان البحارة يقفون على جانبيه بغير حراك ،ومصطفى يقف قرب الدفة وينظر الى الشاطىء وفي عينيه حزن شديد، وآثار المصيبة ظاهرة عليه بشكل لا يمكن اخفاؤه .

« توجه ريس الميناء في زورق الحكومة ،ورجال الجمارك في زورق الجمرك ، ونزل البحارة في الفلائك ، واحاطـوا بالمركب العائد كأنهم يحيطون بنعش ، ودخلوا به هكذا الى الميناء ، وانزلوا مصطفى والبحارة ونقلوهم الى بيوتهم ،وبكت النساء، واطرق الرجال ، وقراوا الفاتحة وقالوا في سرائرهم « الله يرحمك يا جميل » وتساءلوا « كيف صار ؟كيف غرق؟».

« وقمنا كلنا ، وكنت في المقهى ، الى بيت سعود ،نأخذ بخاطرهم ونعزيهم ، وسرنا بغير كلام ،وكل واحد منا يفكـر بنفسه ويذكـر مصيره ومصير اولاده . وما قطعنا ..٢٠ متر حتى تعالت الاصوات من الميناء تنادينا لنرجع،فتلفتنا وراءنا وتساءلنا عما حدث ،فابلغونا ان مركب محمد دقماق وصل

واطلق رصاصتين قبل الاقتراب من الميناء .فقلنا في سرنا « خير ان شاء الله » وابتهلنا الى الله ان يجعل العاقبة علـى خير ، وان لا يكـون وراء اطلاق الرصاص خبر سيء ، ولا تفجع الجزيرة فجيعتين في يوم واحد ، وسألنا عن العلم فقالوا «منصوب» ، واسرعنا الى القوارب ونزلنا البحر من جديـد ، وكانت هذه المرة بشارة خير ، فقد عاد جميل على مركب بيت دقماق ، ولكنه عاد بين الموت والحياة . ودبت الفرحة في الجزيرة . وزغردت النساء، وحتى امراة رئيس الميناء نفسها زغردت قسما بالله ، وتراكض الجميع الى بيت سعود ليبلغوهم النبأ فخرج مصطفى حافيا ، وكان يبكي من الفرح ويصيـح « يا خيي ، ياجميل ، الحمدلله على سلامتـك ، الحمدلله ، الحمدلله » ويقبل الارض ورئيس الميناء يمسكه من يمينه ، والافراح قامت على الشاطيء، وخرجت الجزيرة كلها ، ورفع البحارة العلم على مركب بيت سعود من جديد ، وراحـوا يوزعـون الصدقات . وكان الطبيب قد نزل الـى المركب ، واسعف جميل ، ثم حملناه وانزلناه ونحن نهنيء مصطفى ونشكر الله ، ونستمع الى محمد دقماق يحكي لنا كيف وجد جميل على الرمق الاخير، وكيف استطاع انقاذه باعجوبة ،فقد رآه قبل ان يقترب اليه ، وكان الصباح في اول شروقه ، والعاصفة هدات ، وجميل الذي ربيته ودربته معي حتى صار مثل الدرفين يقاوم الموج مقاومة الابطال حتى نجا من الموت».

والتفت الرحموني الى بحارته وقال : « يا اولاد انا لا انسى ، مهما عشت ، هذا اليوم ، ما احلى الفرحة بعد حزن!»

ونظر في الجو .. الغيمة سوداء تكبر ، لكنه لم يبـال بها ، فلا بد من الصيد ، وعلى الشباب ان يستعدوا .

واستعد البحارة ..

واستعدت العاصفة ، وارسلت اولى نذرهـا عصفـة قويـة هبت من الغرب ، تبعتهـا ريح اهتاج لها البحر .

١٠

خرج ابو حميد الليلة من مخبئه في بيت اسماعيل كوسا بعد صلاة العشاء . كان قد مضى عليه زمن وهو متوار في حي الشحادين ، وكان يسأل اسماعيل كوسا حين يكون في بيته :

ــ خي اسماعيل ، كتبت الجرائد عني ؟

ــ لا يا ابو حميد .

ويفكر ابو حميد ويقول :

ــ يا للعجب ، كتبت عن الكل الا عني ، يا ترى عملوها بقصد ؟

ــ من يدري ؟

ــ في رايك ان الانكليز منعوا نشر الاسم ؟

ــ ربما .

ــ يا اولاد العاهرة .. وما هي اخبار الجماعة ؟

ــ جماعتك؟ بعضهم في « الميةومية » وبعضهم مختبئون ، والاكثرية صارت مع الكتلة .

ــ والكتلة تسلمت الحكم ؟

ــ واخذت الاستقلال .

ــ مرحبا استقلال !

ــ ما عاجبك ؟

ــ لا ، الاستقلال الحقيقي بعد طلوع الفرنسيين والانكليز من البلاد .

ــ بعد انتهاء الحرب سيطلعون .

ــ بالوعد يا كمون ..

ــ سترى ..

ــ نعم سأرى .. امس كنت في المدينة ورايت .. سمعت اقوال الناس بحق الكتلة .

كان ابو حميد يخرج احيانا من الشحادين ، ويطلق لسانه السليط فلا تلبث الشرطة ان تسأل عنه ، ولا يلبث ان يعود الى الاختباء . ولقد جاءه اليوم من يقول له ان نديم مظهر يسأل عنه ، فقرر الخروج ، واخبر اسماعيل بذلك ، فعمد هذا الى تخويفه قائلا :

ــ واذا مسكوك ؟

ــ فشروا (وبعد وقفة) واذامسكوني ؟ انا لا اخاف السجن ، وعلى كل حال سيسألونني: هل تكتب وتقرأ ؟ فأقول لا ، وعندئذ يطلقون سراحي او يرسلونني الى المعتقل .

ــ الى المعتقل ؟

ــ آي ، الى المعتقل .

ــ ما أظن ، المعتقل للزعماء ، اما انت فيرسلونك الى السجن . انت « باش بزق » .

ــ انا من رجالهم .

ــ الجماعة اصبحوا بلا رجال . اقلية لا يهتم بها الا انت وبضعة اشخاص امثالك. هتلر راح يا ابو حميد ، والناس تغيروا .

احتد ابو حميد :

ــ الذي تغير هو انت وجماعتك ، اما انا فسأظل مع هتلر ولو انكسر .

ضحك اسماعيل كوسا لنرفزة ابي حميد ، وصفق طالبا القهوة ليخفف من ثورته ، ثم القى له بهذا النبأ :

ــ سمعت ؟ المحافظ راح الى الشام .

ــ مع السلامة .

ــ والمرشد لا يجرؤ على الخروج من وكره. هذه هي اعمال جماعتــي.
ــ جماعتك ما عملت اكثر من غيرها . الشغل للشعب .
ــ ولكن الزعماء منها .
ــ اي حط بالخرج .
ــ ستندم على هذا الكلام يا ابو حميد .
فهاج ابو حميد وقال :
ــ اندم ؟ على اي شيء ؟ اذا كانوا سيعدموننا فــلا تخلصونا ، اي فلقتونا . الشعب يركض وجماعتك تتصدر، اي على هذه الذقن ؟
ــ اذا سجنوك غدا نسمع صياحك .
ــ انا ، فشروا ، ولك صرمايتي (وضرب على نعله) فلا تهتز . السجن للرجال ، وبيننا وبينكم يوم.. بخاطرك.

حاول ان يمنعه من الخروج فما استطاع . كان ابــو حميد يهتز لفرط تأثره ، وبعد ان شرب القهوة انحدر الــى البحر عن طريق الكنيسة المعلقة مارا بحي الموارنــة فكنيســة اللاتين فالميناء ، وكان يخب ويسرع ويبطىء ويفكربالطروسي: « ترى هل هو في المقهى » ؟

خطر له ان يقوم بجولة على الشاطيء . كان الظلام كفيلا بحجبه عن العيون ، وقد راق له ان يعرف الناس ولا يعرفونه، وان يملأ رئتيه بالهواء ، ويشبع من السير بعد ان ظل مــدة حبيسا في بيته او في غرفة ارضية من بيت اسماعيل كوسا.

لشد ما حن وهو في مخبئه الى الحياة ، الى المقاهــي و« زبائن الليل » !. ولشد ما كره البيت الذي اظلم في عينيه رغم رحابته وضوئه . كان يدور بيــن الجدران الاربعــة ويستعيد لهجة مذيع برلين وصوته وشتائمه فتنبسط نفسه، او ينظر عبر زجاج النافذة الى صحن الــدار حيث تدرج

الحمامــات وتتطاير ، وتحط عصافير الدوري فتلقط الحب ، وتخبط فرس اسماعيل كوسا رجلها في ارض الياخور ،وتمد راسهــا من الباب الخشبي ، وتنظـر اليه والى الحمامات والعصافير ، وتترقب العلف بعينين نهمتين تتجلــى فيهما رغائب حيوان جائع .

ولقد شعر ابو حميد وهو في السحادين انه في حصن، وتمنى، لو كان يقرأ لكي يطالع الصحف والمجلات . ولقد طلب من اسماعيل مصحفا فجاءه به ، وجعل ينظر فــيه ويجود مما حفظ من آيات « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لــم يعلم » .

اثنان عتب عليهما وهو في مخبئه : الطروسي ومصطفى خادم الجامع . وكان يقول « ولك الطروسي فهمنا عذره ، انسان تصبح وتمسي فتراه على البحر ، اما مصطفى ؟ » . ويسأل اسماعيل كوسا فيقول له :
ــ الذي يغيب عن العين ينساه القلب . جماعتك نسوك يا ابا حميــد .
ــ باطل اسماعيل . الغائب عذره معه ، وغدا نخــرج ونلقاهم بخير ، اشتقنا ، اي والله اشتقنا .

انهى دورته على البحر ، ودخل حديقة المنشية وتوقف عند عين الماء فيها ، ثم سار نحو المقهى مجتــازا الصخور ، وقبل ان يصل اليه فكر برجال الامن وتساءل :« من يضمن ان لا يكون واحد منهم في المقهى ؟ » .
لطى عند الصخرة وانتظر خروج ابي محمد ليسأله . قال في سره « لماذا نرمي بانفسنا الى التهلكة ؟ » .
ومضت دقيقة ، ثم اخرى ، وثالثة .. وخامسة؛ ولــم يخرج احد . كان الطقس قد انقلب ، وما قاله الطروسي في الصباح قد تحقق في المساء ، فتكاثفت الغيوم حتى حجبت

وجه السماء ، وعصفت ريح غربية قوية ،وتدافع مـوج هائج فوق الصخور ، واقفرت الميناء واختبأت فيهـا المراكــب والشخاتيـر .

وفتح باب المقهى فجأة ووقف فيه رجل لم يعرفه احد. وانتظر الرجل لحظة ، ثم اشــار الى الطروسي بسبابته : اخـرج .

لو ان خمسة تصدوا للمقهى ،ولو ان مخفر الشرطـة هاجمه لما اضطرب الطروسي كما اضطرب لمرأى الرجـل المجهول الملثم ، يقف بين الظلمة ومشارف النور ، ويشيراليه بسبابته ان يخرج . لقد قفزت الى مخيلته صورة ابـن برو فورا ،فزعق :

ــ من انت ؟ ادخل !

كان صوته حادا ، يرتعش بالتأثر على غير عادته، ويده اليمنى تقبض على الخيزرانة . واندفعت الريح الـى الداخل واطارت اوراق اللعب ، وومض برق في الخارج وانطفأ كسهم من نار فـي البحر .

لم يجب الرجل بشيء . بل تراجع حتى ابتلعته الظلمة. وظل الباب مفتوحا والريح تمسك به وتهزه وترطمه بالجدار الصخري حتى اندفع الطروسي الى الخارج صائحا :

ــ ولك مقهى الطروسي لا يفتح يا .. سأريك كيف يكون الغـدر ،خذ ، خذ ، خذ ...

اين كانت تقع الضربات؟على من؟ ماذاسيكون مصيرها؟ ابدا لـم يفكر الطروسي بشيء من هذا . كان يضرب ،يضرب بكل قوته على الشبح المتحرك امامه في الظلمة ، ويتوقع ،لدى كل ضربة ، ان يتلقى الجواب ، لكن ضرباته ظلت بغير جواب، وقـد عقدت المفاجأة لسان المضروب .

كان يدفع يديه فوق راسه ليتقي الضربات ، ويقفـز ،

ويفتح فمه فتموت الكلمات على لسانه ، وبصعوبة استطـاع ان يقول في شبه نواح:

ــ لا تضرب يا طروسي ، انا ابو حميد يا خي ،، قتلتني، لا تضرب .

كان ابو محمد واحمد والزبائن قد تراكضوا في اثـر الطروسي ، وابو محمد يصيح « يا احمـد خلصه المسكين ، امسكه لنسلمه الى المخفر » !

فلما سمع ابو حميد كلمة :«المخفر» احس بها موجعة اكثر من ضربات الخيزرانة ،واندفع يصيح مذعورا :

ــانا ابو حميد يا شباب اقتلوني ، اقتلوني ، اقتلنـي يا طروسي ، اقتلني يا خي، فداكم يا شباب !

وكما تتوقف السيارةالمندفعة بسرعة وقد قفز فيطريقها طفل ، كذلك توقف الطروسي مبغوتا عـن الضرب ، وسس على شفتيـه مقهورا ، وصاح :

ــ انت ابو حميد ؟ يحرق ... ولك ليش عملت هـذه العملــة ؟

ــ نصيب !

واحتضنه الطروسي وادخله المقهى وقد بلغ به التأثر حده ، وراح يلعن الشيطان ويحوقل ويسأل :

ــ هل جرحتك ؟ لماذا فعلت هذا ؟ لماذا لم ترد علي ؟ حسبتك ابن برو .

قال ابو حميد :

ــ خفت ان يكون في المقهى غرباء !

وعلق ابو محمد على ذلك وهو يسرع بقدح الماء :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله .. الله لا يعطينا العافية على هذه الشغلة ، اي اشكر ربك مـا قتلك ، كنت رحت بكيس حالك ، وليش متلثم يا سيدنا ما شاءالله؟

قال احمد :
ــ لانه من رجال السياسة !
وانتهرهم الطروســـي :
ــ اتركونا من هذا العلاك ، روحوا الى اشغالكم .
ثم التفت الى ابي حميد وقال :
ــ اعوذ بالله من هذه الليلة .. الله يقضيها على خير ، قلبي انبأني بالشر يا جماعة ، لا حول ولا قوة الا بالله ،ضربناه وهو بمقام الاخ ، لا تواخذني يا ابا الحمد ، لا تؤاخذني على هــذه الغلطــة .
فجاء صوت ابي محمد من وراء الدكة :
ــ الفلطة غلطته ، اي حاسب نفسه الشيخ تاج حتى متلثم وخائف !
فتكلم خليل العريان لاول مرة وقال :
ــ لا ، ما الشيخ تاج .. ابن عمه !
وقال بحار يجلس الى طاولة مجاورة :
ــ هذه نتيجة الشغل بالسياسة !
فصاح الطروسي :
ــ خاصنا هه ! بلا فلسفة وتعليقات ،اي العمى ، بدها ذوق ، ابو محمد هات فنجانين قهوة وناركيلة ، وكل واحــد منكم يروح الى شغله ، والخبر ما يطلع خارج المقهى ، هنــا حفرنا وهنا طمرنا ، وانا من جهتي مستعد ان اقبــل يــده (وانجرد الى يد ابي حميد) هات يدك ابو الحمد (قالهــا بلهجة حارة صادقة)
وحاول كثيرا فلم يعطــه ابـــو حميـــد يـــده ، واذاك انحنــى عليــه وقبل راسه ، فتأثــر ابو حميــد وقام فقبّل الطروسي بدوره وهو يقول :
ــ باطل ابو الزهد ! وحياة شرفك لو كان عندي ولــد وذبحته ما سألتك ماذا تفعل!انت رجل وتعرف قيمةالرجال.

وظل الطروسي ، رغم ذلك ، يحوقل ، ويلعن الشيطان، ويطلب منه الا يؤاخذه ، شاعرا شعورا عميقا بالاسف . ثــم تأتيه الضحكــة فيحبسهــا في حلقه ، وابو حميد يهون عليه، فلما رفع الكوفية ظهر جرح عارض في جانب الراس فأسرع ابو محمد بقليل من القهوة لقطع الدم . وسأله من جديد :
ــ احك لنا كيف صار الحادث بالله !
وتجمع البحارة حتى اضطر الطروسي الى القول نافد الصبــر :
ــ استحيوا ، قلنا لكم اتركونا ، ما سمعتم !
وهز ابو حميد راسه وقد راودته ضحكة وقال :
ــ هيك وهيك من اخت هذ الليلة . طلعنا نسمعالاخبار فأكلنا نصيبنا ... وممن ؟ من يد الطروسي ، لو كان غيــره كان لنـــا معه حساب ، اما ابو الزهد ..!
وضحك البحارة وقالوا :
ــ فداء هتلــر !
ــ ولك فداه ، المهم اسمع الاخبار ، هل بيننا غرباء ؟
ــ لا .
ــ اذن هاتوا من عندكم ، حدثونا : ما هي الاخبار ؟ وهل تشرشل بعده موجود ام سقطت عليه قنبلة ؟(والتفت الــى الطروسي وقال بصوت يشبه الهمس) والزبائن ،اين هم ؟
ــ يبحثون عنك . حالة هتلر عدم ، والمحافظ راحالى الشام ، جابينا محافظ جديد .
ــ اذن جماعة المانيا قلوا ؟ (وبعد وقفة) ضربة روسيا اثرت ، هتلــر غلط .
ــ نعم غلط ، ترك الانكليز ولحق الروس ..
ــ الروس ! اعوذ بالله منهم !
ــ الناس بدأوا يحبون الروس يا ابو حميد . يقولــون ان هتلر استعماري اكثر من تشرشل .

ـ لا تصدقهم ، انا اعرف الذين يقولون هذا الكلام ، وصاحبك اسماعيل صار من هذه الزمرة ، وانـت ؟ شايف حماستك لهتلـر خفيفـة اليوم يا ابو الزهد ؟
ـ الافكار تغيرت يا ابو حميد . انكسار هتلر في روسيا جعله يسقط في انظار الناس .

انتفت شهية أبي حميد الى الكلام . وانقطع عن طـرح الاسئلة ، قال في نفسه « الاخبار سيئة ، فلماذا خرجـت الليلـة ؟ هذه مدينة متقلبة ، امس كان الناس مع الالمان ، واليوم مع الروس ، وغدا الله اعلم . اما انا ؟ انا مع الالمان، نعم مع الالمان ، لن اتغير ، سأظل مع هتلر ولو انكسر » .
ـ السلام عليكـم .
ـ وعليكم السلام ورحمة الله .

دخل عدة شبان وجلسوا في الزاوية، فالتفت الطروسي وهمس في اذن ابـي حميد :
ـ جماعتك !

نظر اليهـم وابتسم :
ـ ما اسمهم ؟ وهل عرفوني يا ترى ؟
ـ اسأل ابن الجمال ، هو الذي جاء بهم .
ـ اذا جاء بهم فعلى رأسي ، اولاد اوادم اذن ، يا ترى يعرفـون اسمـي ؟
ـ لا بد ، انت مشهور يا ابو حميد .

« انا مشهور ؟ اين الشهرة ؟ امس رفضت الجرايد نشر اسمي ، واليوم ضربت حتى شبعت ، وغـدا لا ادري مـاذا يحدث لي ، ولكـن لا بأس ، لا بد ان تعرف قيمتي »
ـ تقول ابن الجمال جاء بهم ؟ وهو، متى يأتي ؟
ـ هه ، اقترب موعده .
ـ والراديـو ؟

ـ الراديو حر ، اسمع الذي تريده ، انت في مقهـى الطروسـي .

قال ابو حميد مجبور الخاطر :
ـ عشت ابو الزهد ، والله لولاك لهاجرت من البلد ، ما عاد لي فيها شغـل .
ـ ودكانـك ؟
ـ ما فتحتها من مدة .
ـ انت ضيعت نفسك يا ابو حميد .
ـ لعيني هتلـر .

وابتسم الطروسي :« هل معقول هذا ؟ لو صدر عـن طالب ، عن معلم مدرسة، عن شاب ، قلنا له عذر ، ولكـن مثل ابو حميد ، رجل كبير يترك شغله ويلحق هتلر ؟! »

وفتح الباب ودخل نديم الجمال ومعه اربعة او خمسة شباب ، فقام ابو حميد وعانقه هاتفا :
ـ حيّ العرب !!

١١

لم يشارك الطروسي ابا حميد وجماعته في سماع الاخبار . انها العاصفة في الخارج ، وصاعقة سقطت في مكان ما فارتجت لسقوطها ابعاد الفضاء .

وفي جو المقهى خيمت كآبة عكسها الجو ، وهطلت امطار غزيرة ثاقبة كالرصاص اوحلت الارض واجرت السيول . وتصاعد بخار الشاي حارا في الفناجين ، وانار البرق اطراف الافق ، وامتدت السنة شهابية من شقوق الباب . وانخلعت الخيمة وانهارت على طرف الصخر ، فقال الطروسي « يا حفيظ ! » ونهض عن كرسيه واخذ ينظر من النافذة ويفكر في هذا الذي يجري من حوله ، ويعيش العاصفة بوجدانه ومشاعره كلها .

واخذت المدينة تعيش العاصفة على نحو آخر ، اقل رهبة على اية حال . فاذا كان بعض الاطفال قد وضعوا اصابعهم في آذانهم ولاذوا باحضان الامهات ، فان الحياة المعتادة كانت تتابع مجراها : الاضواء داخل البيوت، وطاولات المذاكرة للاطفال ، والحصر التي يجلسون عليها وارجلهم تحتهم كأنهم يسجدون امام الكتاب وهم يفكون حروفه الاولى ،وقدور الحساء التي تغلي وتتصاعد بخارها ، وموائد الشاي ، واجتماع العائلات حول المدافىء ، واختباء الذين ليس عندهم نار تحت ما لديهم من اغطية ، والدفء المنتشر في الغرف المغلقة ، وسهرات الشتاء ، وقطرات المطر على الزجاج، والمقاهي وصالات السينما والرواد ، والمداخن النافثة لهاثها،

كل هذه الاشياء كانت تسير سيرها متكيفة مع الشتاء ،مخففة من الاكفهرار ، جاعلة المدينة تشعر بالعاصفة شعورا اخف من شعور الذين هم في البحر او على جوار منه .

الشاطىء وحده يعيش الشتاء والعواصف بلا بيت ولا اهل ولا اصحاب . انه يتيم الان ، مهجور ، شجرة عارية تحت المطر ، طريق مقفرة لا يعبرها الا الصيادون والبحارة العائدون الى منازلهم ، وحتى السكان الذين يقطنون على مقربة منه ، يديرون له ظهورهم في الشتاء ، ويغلقون نوافذهم وشرفاتهم ويحتجبون .

وكذلك يفعل الصيادون والبحارة .. انهم لا يقيمون على ود من الشاطىء كل فصول السنة ، بل يهجرونه الى قلب المدينة واطرافها ، الى بيوتهم التي تتجمع اكثر ما تتجمع على مبعدة يسيرة منه ، في الاحياء القريبة المجاورة .

ثمة بعض المقاهي الصيفية تظل على ولاء، الا انه ولاء فاتر ، ينوس كهذه الاضواء الواهنة المنبعثة من مقهى العصافيري ، او مقهى « شناتا » ، اما مقهى الدورة فقد اغلق لان زبائنه الاغنياء انتقلوا الى النوادي والمجتمعات العائلية في قصور المدينة ، او في فندق الكازينو الكبير .

وفي مثل هذه الليالي التي يقفز فيها الشاطىء ومقاهيه يحلو لصاحب مقهى « شناتا » ان يتحدث عن امجاد مقهاه فيقول :

ـ هنا غنى عبدالوهاب شخصيا !

اما مقهاه نفسه فما زال محتفظا من ماضيه ببعض الآثار : نماذج لاعلانات عن الفرق الفنية المصرية التي مرت في اللاذقية وعملت على مسرحه : فرقة كشكش وبديعة مصابني والست نادرة وعبدالوهاب وغيرهم . وكان عبدالوهاب في هذه الاعلانات فتى يافعا نحيلا ، يلبس الطربوش القصير ، ويطيل سالفيه ، ويمسك وردة بيضاء ، وكشكش بك في

عمامته وقفطانه وعثنونه وضحكته الشهيرة ، والست نادرة تحتضن العود ، وبديعة ترقص ، وتمة ،مع الاعلانات بقايـا من المسرح ظلت قائمة كأنها آثار في متحف .

والمنارة البعيدة على قوس الشاطىء ، عند ابن هانيء، تشع وتخبو في رتابة وكسل ، والظلمة حالكة ، والبحريهاجم الصخور بغير كلل ، وشيء ما ينوح على امتداد الساحل من الميناء الى السجن ، واضواء المقاهي الناعسة لا تشجع احدا على الدخول ، والماء المالح ينصل اصباغ الجدران فتغدو باهتة متشققة كالارض العطشى في حمارة القيظ .

كانت المدينة كلها تتنزه ههنا في الصيف : الشبان يلاحقون الصبايا ، والصبايا يصطدن الشباب ، والنساء يسرحن وقد مللـن حيطان البيوت ، والطلاب يمرحون وقد فرغوا من هموم الدراسة ، والشيوخ يستعيدون ذكريات الصبا ، والسيارات والحناطير وعربات الاطفال ، كل المدينة تكون على الشاطيء، وفي المقاهي والحمامات . اما الآن فليس من اثر لهذه المباهج. لا عاشق يضرب موعدا ، ولا مغامر يبحث عن مغامرة ، ولا امراة تتسلل وراء رجل ، ولا متنزه يملأ رئتيه بهواء البحر.

فندق الكازينو وحده عامر . لكنه منغلق علـى بنائـه الضخم ، تجري في غرفه اشياء لها فضائح، ويدور لعـب البوكر والبريدج ، ويلتقي السراة والملاكون ، وتقام الحفـلات الراقصة ، ويمتد بناؤه المربع فوق اليابسة والماء ، وقـد تكاثف العشب البحري الاخضر على جذور جدرانه .

وفي مقهى « شناتا » يسهر بعض الرجال . يتوافدون من البيوت القريبة ، ويتجمعون في اقصى المكـان يشربـون النراكيل ويتحدثون عما جرى لهم في يومهم ، ويبدو المقهى، وسط الظلمـة والمطر ، ككوخ حارس على الساحل ، ودي واجبا لا مفر منه ، بينما يرهف الجالس فيه اذنيه لنبأ جديد مثير : لصياد يدخل مبللا ، او بحار يسأل عن شيء، او غريق

يبحث اهله عنه ، او هدير الموج يعزف لحنه الازلي .

وعلى الرمال والصخور ، حيث ينداح الزبد ويترك ملاءته البيضاء ، تدب في الليل اشباح الافكار والاصداء فيكون لها تجسيد في مخيلات الصيادين وزوجاتهم واطفالهم :يتصورون سمكة ستقع في شباكهم يوما ، وفي جوفها خاتم كخاتـم سليمـان يامرونه فيطيع .. يقولون هذا في سهراتهم ،فتسمع الزوجات ويحلمن ، ويغسلن السمك وهن على رجاء أن تنشق واحدة منه عن هذا الخاتم ، ولا يهم ان سمكة ما لم تتكشف يوما عن شيء ، ذلك ان الامل يصبح حياة معاشة عنـد المحرومين ، وله حبل طويل طويل يمتد الى آخر العمر .

ويسمع الاطفال ذلك ايضا فتنبت الحكايات في نفوسهم اغراسا للرؤى لا تلبث ان تصبح اشجارا ذات جذور ، وهكذا يدخلون عالما له تهاويل الف ليلة وليلة ، وله سندباد يحذب اشواقهم ومشاعرهم بخيط سحري .

وينزل الصيادون الماء وفي صدورهم نفس الرجاء : لقد صدقوا ما خدعوا به غيرهم . يقولون :« من يدري! ربما ..» ويجوسون خلل الرمال والصخور وقد استحالوا الى جـزء من الاسرار التي تعيش فيها ، ويزداد انفعالهم حين تسود الظلمة ، او ينسكب ضوء القمر كشلال فضي من فوهة سد كبير في السماء ، ويتذكرون ما سمعوه عن الفتاة الفنية التي انتحرت ، وجنية البحر التي تعشق ابناء آدم ، والسمكة التي نصفها امراة،وجثث الغرقى التي يقذف بها البحر ،والاشقياء الذين يختبئون في المغاور ، والعشاق الذين يتواعدون بيـن الصخور ، ويعودون الى بيوتهم فيقصون كل الحكايات ، كـل التفصيلات الدقيقة ، كل التخيلات التي ابتكرتها مشاعرهم او اوحت بهـا اليهم رغائبهم ، ويروونها على انها حوادث وقعت لهـم او لسواهم .

وتعيش هذه الصور بدورها في بيوت الصيادين والبحارة،

وتطوف الاخيلة في هذه البيوت ، وتنتشر رائحة البحر من ادوات الصيد ، وترتسم الرؤى على القصبة المسندة الى جدار ، والصنارة المدلاة من سقف ، والشبكة المعلقة على مسمار ، وتجتمع النساء على اخبار الازواج ، ويسهرن على حكايات الرحلات والصيد .

ولقد اضطربت نساء البحارة والصيادين الليلة ، واشفقن على ازواجهن وانفسهن مما تحمله العاصفة للذين هم في البحر .

ثم نامت المدينة كلها الا هن . كن ساهرات يتمثلن ازواجهن في صراع الموت مع الموج والريح ، وسط اللجة البعيدة التي تبتلع الرجال .

وكن يسترجعن قول هؤلاء الرجال :« الداخل الى البحر مفقود والخارج منه مولود » ثم تنطلق السنتهن بتضرع حار الى الله ان يعيد المفقودين سالمين ، ويشارك الاطفال في الدعاء، ويشارك به الرضع بالنظرات . وتمضي الساعات تلو الساعات وليس من خبر او وقع قدم على الطريق .

« ماذا جرى لهم ياترى ؟في اي مكان من البحر هم الآن ؟ متى يعودون ؟ وهل يعودون ؟» ويتصل القلق ببعضه ، ويتحول الى خوف ، وينقلب الخوف الى دموع ، ويمتزج القلق بالخوف بالدموع ، وتظل نساء البحارة في رعب وترقب لحادث مشئوم يطرق عليهن الباب .

هنا الالم . في منازل البحارة الالم . امراة البحار تعيش على التضحية . تسلم زوجها الى البحر كل يوم ، وتسلم معه قلبها ومصيرها ومستقبل اطفالها كل يوم ، وتروح تنتظر ، وتنذر النذور ، وتبتهل الى الله ان يعيد زوجها الغائب، وتقوم الى النوافذ تفتحها ، والى الابواب تقف وراءها ، وترسل بصرها عبر الشارع متسائلة : متى يعود ؟

قالت امراة الرحموني لنساء البحارة المتجمعات عندها :

ــ لا تخفن ما دام الرحموني معهم . منذ عرفته وهو في البحر ، وفي كل مرة ، ومن كل عاصفة ، يعود ومن معه سالما محروسا بعناية الله .

نظرت اليها النساء في سهوم وقلق « هذا كلام للتطمين سمعناه كثيرا ، ليت الرحموني لم يبحر اليوم ، ليته عاد مع الصيادين العائدين منذ المساء » .

وعادت هي تقول :

ــ سيعودون ، قلبي مطمئن بحمد الله .

وكان قلبها غير مطمئن :« هل سيعودون حقا ؟ البحر! آه من البحر آه من هذا العدو ، اه منه كم حرمني النوم واسهرني وابكاني ! » .

كانت العاصفة ما تفتأ تتفجر غضبا شديدا ينصب على الارض . وقد خلعت الريح مصاريع النوافذ واطفأت فوانيس الكاز . وفي الخارج ، حيث لا تدري النساء ، تتساقط صواعق تفجر في قلوبهن الذعر ، بينما الاطفال قد رقدوا في حضون الامهات وعيونهم تنطبق على صور الآباء الغائبين ، والبيوت الصغيرة العارية تسمع وتعي كل شيء ، لكنها لا تقول شيئا ، ولا تند عنها نأمة سوى ما ترجعه من صدى العاصفة في الخارج ، وما تعكسه الصنانير والشباك من خيالات مضطربة الظلال .

اقترحت امراة صياد ان يذهبن ليسألن في الميناء ، وتطوع ابنها الفتى فذهب وعاد يقول « لا خبر ولا مخبر » ومضى بعض البحارة من الجيران ليسألوا فما عادوا ،ودقت ساعة السراي العاشرة ، ثم الحادية عشرة ، فالثانية عشرة ، وبدات كل دقيقة تقطع جزءا من خيط الامل وتهيء الاحاسيس للانفجار .

واخيرا انفجرت عاطفة احداهن ،وسالت دموعها على خديها ، فأعلنت انهاذاهبة الى الميناء بنفسها ، ولم تفد جهود

امراة الرحموني في تهدئتها وتطمينها ، فخرجت وتبعتهـــا النساء ، ووقفن على الابواب ، وتجمع الجيران ، واستيقظ الاولاد ، وذهب بعض الرجال معهن،وتغطت امراة الرحموني لاءتهــا واوصت جارتها باولادهــا وسارت في الميناء .

المطر يرذ ، والريح تعوي وتعض الموج ، وطريق البحر ..لم مقفر ، ومقهى « شناتا » ما برح ضوؤه ينوس ، وقـد رج من بقي فيه على صوت الجلبة في الشارع فانضموا الى ..سائرين نحو الميناء ، وذهب بعضهم الى مقهـى البطرنـة فأخبروا الطروسي ان الرحموني وبحارته لم يرجعوا بعـد ، فقام مع الرجال والنساء الى الميناء ، وتبعه ابو محمد وخليل العريان وبعض البحارة ، وظل ابو حميد وجماعته في المقهى يتحدثون عن آخر الاخبار .

وقال ابو محمد لمن حواليه من البحارة شامتا ومؤنبا :

ــ اما قلت لكم ان شباط غدار ؟ الطروسي يعرف اكثر منكم . من الصباح قال ان فرتونة ستحدث ، فلمـا حذرتكم صحتم « المسلم هو الله » خذوا اذن !

وصاح به رجل تخلف عن القافلة الاولى المنحدرة مـن وراء شركـة الامبريال الى الميناء :

ــ افتح فمك على خير ، المسلم هو الله على كل حال ، لا تقنطوا من رحمة الله يا جماعة ،لا تصيروا مثل النسوان !

وكان في الميناء ناس كثيرون ينتظرون : بحارة ، درك وخفراء جمرك ونساء واطفال، ثم جاء رئيس الميناء وكشف اسماء المراكب التي ابحرت والشخاتير التي ذهبت الـى الصيد ، فظهر ان شختورة الرحموني وحدها لم تعد بعد ، قـال :

ــ يمكن تكون « جونت » او اتجهت الى قبرص ، او التجأت الى جبلة او بانياس .

ودخل مكتبه واجرى اتصالات مع الموانىء القريبة،فقيل

له ان شختورة الرحموني لم تصل اليها ، وقالت بانياس ان زورقا سيخرج للبحث ، وكذلك وعدت طرطوس وارواد ، وقال رئيس الميناء وهو يفضي بهذه الاخبار الى الحاضرين :

ــ ونحن ايضا زورقنا جاهز ، لكن البحر من جهتنـا مكشوف !

انشأ البحارة يلغطون ويتكهنون ويعطون اراءهم فـي الموقف، والنساء يبكين ،والطروسي يقول لمن يصادفها منهن :

ــ لا تخافي يا اختي،ما دام الرحموني معهم فسينجون. الرحموني قضى حياته في البحر . ولا بد ان يكون « جوّن » مع الريح، وغدا يعود .

سألته امرأة :

ــ كيف يعود والبحر جبال ؟

ــ هذا شغله ، البحر لا يخيف الرجال ، الموج جبال على راسي، ولكن الرجال اقوى من الجبال ، الرجال تهد الجبال، روحي الى بيتك ونامي .

قالها ورفع راسه الى السماء . ظلمة وريح ومطر وغيم، وليس من نجم في السماء . « اين زرقة السماء ؟ اين صحو الصباح ؟ اين الطقس الجميل الذي بدا به النهار ؟ يـا لـك من غدار يا شباط » .

رفع يده في مسرى الريح ، فجاءتـه موجـة كبيـرة وارتطمت برصيف الميناء وقفزت فوقه فبللت النسـاء والرجال الذيـن تراكضوا الى وراء . وعندئذ اوصى بابتعاد النسـاء والاطفال عن الرصيف ، واتجه الى حلقة رئيس الميناء وقال :

ــ لا بد من خروج زورق الانقاذ . الريح غربية شديدة، ولا يمكن للشختورة ان تخلص وحدها .

اجاب رئيس الميناء :

ــ الميناء مكشوفة من جهتنا يا ابو زهدي ، ومن الصعب ان يخرج الزورق في هذا النوء .

سأله الطروسي بحدة :

ـ والرجال الذين في البحر يا ريس ؟ هل نتركهم يموتون !؟

ـ انتظروا لنرى ، فقد تدركنا رحمةالله .

قال الطروسي باصرار :

ـ اذا انتظرنا اكثر ضاعت الفرصة . الرحموني خرج لصيد « المرمور » و« السلطان » وهو الآن مع الريح باتجاه الشرق ، والمقاومة ، يا ريس ، لها حد .

ووافق البحارة على راي الطروسي فورا :« نعم المقاومة لها حد ، ومن الافضل ان يخرج الزورق » وتحمس بعضهم ، وايد آخرون ، ومع ذلك لم يتطوع احد للنزول الى البحر . ووجد رئيس الميناء نفسه محاصرا ، لكنه حاول التهرب من جهة ما :

ـ اذا ارسلنا الزورق فلا بد ان يكون معه ريس وبحارة.

معنى هذا انه لن يخرج ،ولن يسمح بخروج الزورق .

وساد الصمت لحظة حتى قطعه صوت الطروسي قائلا :

ـ انا انزل يا ريس !

كان احمد يقف في طرف الحلقة ، فما وجد نفسه الا وهو يقول :

ـ وانا انزل مع الطروسي .

وقال بحاران آخران :« ونحن ايضا » ووافق رابع ، وابتسم ابو محمد في الظلام ، وقالت امراة الرحموني وهي ترفع يديها الى السماء :

ـ ليحفظكم الله ويكون معكم .

وانهال الدعاء من جميع الافواه « يا الله يسر ولا تعسر»

وقال الطروسي قاطعا طريق التراجع على رئيس الميناء :

ـ اسرعوا ، اسرعوا ، كل دقيقة لها قيمة ،هاتوا جنزير وحبال وطوافات .

جاءت موجة هائلة وقصفت اسمنت الرصيف فتطاير رشاشها وانحط على الرؤوس والاكتاف ، وعندئذ هرع الجميع متراجعين نحو الباحة ،وظل الطروسي يصيح : « اسرعوا ، قربوا الزورق من الرصيف » . ركزوا المدري والاطارات حتى لا يرتطم الزورق بالرصيف » . وقال احمد بصوت حماسي « هاتوا المصباح الكهربائي حتى نرى الحبل».

فاعترض رئيس الميناء قائلا « لا تنسوا اننا في الحرب» ثم ركض الى وراء ليتفادى اندفاعة موجة عاتية ، واضاف منتهرا الذين اشعلوا الضوء : « البارحة وصلت غواصة المانية الى قرب بيروت وضربت باخرة يونانية وهربت » .

كانت كلماته تضيع ، ليس لانها غير معقولة فحسب، بل لانه كان يقولها بدون فائدة منها ، وبدون ان يقتنع هو نفسه بها . ووسط الظلمة والمطر والموج والضجة المرتفعة من كل اطراف الميناء ، كان قد اضاع القدرة على ان يفعل شيئا او يعارض في شيء ،وكان البحارة يلوحون كأشباح تقف وتنحني وتركض وتصرخ ، والزورق الذي يشدون به نحوهم يضطرب في مهب العاصفة حتى ليوشك ان يرتطم على الرصيف ، فيضطرون الى ارخاء الحبل لتفادي تحطمه .

واقترح احمد ان يقفز الى الزورق ، فلم يوافق الطروسي ، وعندئذ امسك بالحبل والقى بنفسه في الماء وجعل يشرئب ويتطاول وهو يتدلى عليه بين الرصيف والزورق ، والبحارة يوجهونه للامساك بالشكارمو،والطروسي يركض بالحبال والاطارات والمدري . فلما صعد احمد الى ظهر الزورق القى اليه بهذا الامر :« اضرب رجليك في الارض وادفع بالزورق نحونا وانت تشد بالحبل » .

وجرب احمد لكنه فشل ..

ـ انتبه ! (صاح به الطروسي من الرصيف) استعمل المدري ، قل يا الله .

امتد مدريان بشكل متعاكس بين الرصيف والزورق ، علقت صنارة احدهما بحلقة حديدية في الزورق ، وصنارة الثاني بحلقة حديدية في الرصيف ،وشدّ احد من جهة ،وبحار من جهة مقابلة ، فاقترب الـزورق حتـى كـاد يلاصـق الرصيف ، والقـى الطروسي بنفسه الى الزورق قائلا « هه جئتك ،هات عنك ، هيلا ياشباب ، القوا حالكم بسرعة ، ارموا الاطارات والحبال والسلـم » .

اصبحوا جميعهم في الزورق : الطروسي واحمد وثلاثة بحارة ، وبدا المحرك يهدر ففرقع الماء من تحته وانتشر الزبد والزيت على السطح ، ثم رفعوا الياطر وفكوا الحبال مـن الرصيف فأخذ الزورق يتراقص ويجمح كفرس ،بينما الرذاذ يتطاير من كل صوب، والامواج تلطم الزورق فتقصيه وتدنيه.

وتولى الطروسي القيادة فصاح :

ــ اغلقوا باب الموتور ، وحافظوا عليه من الماء .

ثم التفت الى الرصيف ، واشار بيده الى رئيس الميناء والبحارة والحاضرين وصاح :

ــ ادعوا لنا يا اخوان .

ــ اللهم يسر ...

ــ بحفظ الله وتوفيقـه .

جاءته هذه الكلمات وهو يضرب بيده على ظهر غرفـة الموتور ويعطي اوامره بالمسير :

ــ هولا يا شباب ، غرب جنوب مع سبلة الريح ،ثم في خط مستقيم حتى نخرج من الميناء .

اقلع الزورق فاتحا لنفسه طريقا بين الامواج،كأنه يجتاز نفقا مائيا ، ولم يلبث ان ارتفع على رابية ومـال على احـد جنبيه فصاح الطروسي :

ــ اوكسو ، اوكسو ..

وتسلم الدفة لاول مرة منذ اعوام واعوام ، وشـد بها جيدا بين يديه ، واندفع بالزورق الى امام .

١٢

قال الرحموني وهو يحدق خلل الظلمة :« اين نحـن الان ؟» لم يعد البحر منبسطا من ماء كما عرفه ،او كما كان قبل العاصفة ، وليست الشختورة وعاء خشبيا كبيرا فوقه. انه يحس بأن ما تحته ليس سوى لوح عائم يضطرب ويدور بغير اتجاه ، وثمة مياه تنساح فوقه ، وملح يحرق عينيه ، وحرقة في صدره تمنعه من التنفس ، ودوران شديد يكـاد يفقـده الوعي .

لقد انقطع عن التفكير بما جرى وكيف جرى . لم يعد يتساءل اين الشباك والطوافات والحبال والرجال « حكاية اخرى كحكاية اولاد سعود ، نفس البداية ونفس المعركة .. ولكن النهايـة ؟ »

صاح بصوت اراده قويا فخرج واهيا محشرجا :

ــ بشير ، حسن ، عبدالرحمن ... شمسي !

ظل يردد الاسماء فترة كأنه تحت وطأة حمى خبيثة ، ثم خفت صوته ، وتلاشى « لقد ذهبوا ، ماتوا ، ولن يبقـى احد منا ليخبر عنا ،ستضيع اثارنا في البحر ! »

اغمض عينيه واستجمع قواه ، واستدعى وعيه بكـل ارادته وفكر « اين نحـن الآن ؟»

الشختورة تعلو ، الشختورة تهبط ، والظلمة دامسة ، جدار من فحم ، والموج شلال يتساقط فوق خشبة تغرق في المصب المزبد ، وشختورة الرحموني تدور مع الاعصار :تعلو، تهبط ، تعلو ، تهبط ، وهو يجلس القرفصاء حول السكان ، ويداه تتمسكان بالدفة بعناد « لن اتركهـا مهمـا حـدث ، سنموت معا او نخلص معا » .

عشر ساعات مضت ، انها ليست ساعات زمنية ،وليس
الوقت الذي مر وقتا عاديا. لقد احس به طويلا كدهر ،قصيرا
كأنه تجمع في اللحظة التي يعيشها ،ثم لم يشعر بشيء اسمه
وقت ، فقد انفصل عن الزمـــان والمكان واصبح نقطة سوداء في
متاهة مائية ليس لها حدود ولا قرار .

لقد انتفى الادراك المكاني والزمني . امتصتهما غيبوبـة
اليقظـة لحواس متعبة معطلة عن تمييز الاشياء : تخلعـت
الصواري وتمزق الشراع . وتحطم كل ما في العوامة السوداء
التائهة او تعطل ، وبقيت ارادة الانسان متشبثة بالحياة .بيد
انها كانت في صراعها العنيد مع العدم ، تتبدد حتى لتوشك ان
تستسلم ، وتتجمع فتنتفض وتقاوم من جديد .

« ستهدأ الريح قريبا ، ستهدأ ، ولكن راسي؟ آه لـو
كانت معي حبة اسبرين ! شربة ماء ! جرعة شيء حار ! ومع
ذلك سأصبر ، سأغمض عيني ، لن افكر بشيء ،حتى ولا اين
انا ، سأطبق فمي ،عيناي فقط ستظلان مفتوحتين ، الملـح
يحرقهما ، ما احدّ طعم الملح ،ما اشد هذه الظلمة !؟ »

الشختورة تعلو ! الشختورة تهوي « انها تتدحرج الى
الوادي ، كلانا يتدحرج الى الوادي، لقد تحطمت ، تفككت
اخشابها .. اسمع صرير المسامير والاخشاب ، هل اغفيت
وانا على الدفة ؟ نحن على جبل ، فما اعمق الوادي الـذي
تحتنا ! اننا نهوي، تتدحرج مرة اخرى الى القاع ، سأغمض
عيني ، سأستريح، فقط لو استريـح ، لـو يتوقف دوران
الـرأس !؟ »

ولم يتوقف دوران الراس، ولا خف الصداع ، ولازالت
حرقة الملح . النقطة السوداء في المتاهة الكبرى ، والريـح
المجنونة ، والموج المسعور ، ورجل يتحدى البحر .. أيمكن
لرجل ان يتحدى البحر ؟ والصلاة يا بحر ؟ والزوجات والاطفال
على الشاطيء ؟ والصحبة الطويلة ؟ وليالي السفر، والاغاني؟

والافـــراح ؟

خيل اليه انه يسمع اصواتا من بعيد ، وامامه ، علـى
صفحة البحر ، راى قاربا فيه بحارة يجذفون ويتقدمون نحوه
فرحين . انهم بحارته ، وقد عادوا لانقاذه « آه ما احـلاكـم
واشجعكم ايها الرجال ! اقتربوا ، اقتربوا ، اقتربوا .. »

واقترب البحارة ، وانصبت اصواتهم في اذنيه، وتعالى
النغم مع وقع المجاذيف :

عندك بحرية .. ياريس !
بزنود قوية .. يا ريس !
ابدا لا تخاف .. يا ريس !
ابدا لا تخيس .. يا ريس!

ابتسم الريس ومد اليهم ذراعيه . حاول كثيرا ولـم
يبلغهم . سقط في الماء . رفع يده ليمسك بالقارب فلم يدركه
مضى القارب ! ابتعد ، ابتعد ،وبقي وحيدا يصيح « تعالوا ،
اقتربوا ، اقتربوا » غير انهم لم يقتربوا ، لم يستطيعوا «الموج
يا ريس ! البحر يا ريس ! البحر يا ريس » اختفى القارب
وظهر مكانه مركب يضطرب وبحارة يتراكضون واصوات تصيح:

البحر جبال .. يا ريس !
قطع الحبال .. يا ريس !
مزق الخام .. يا ريس !
حطم الصواري يا ريس !

وغاب كل شيء فجاة كما ظهر . لا قارب ولا مركب ولا
بحارة . الظلمة والموج والريح والحقيقة المؤلمة .

لقد اغفى في شبه سهو لفرط التعب . فلما استعاد وعيه
اغمض عينيه وتمتم « الحمد لله انني لم اسقط ، عقلي ظـل
واعيا ، لا بد ان انجو ، لن استسلم ابدا ، جميل سعود لـم
يستسلم ، البحار يثبت والريس ينهزم !؟ والشختورة ؟ كيف
اترك الشختورة ؟ والاولاد ؟ انهم ينامون الآن . لا ، لا ينامون،

خديجة قالت انهم لا ينامون حتى تعود يا سليم ، ترى هل تعرف خديجة اين سليمها الآن ؟ وهل يعرف الاولاد اين والدهم ؟ سأحكي لهم كل شيء، سأضمهم الى صدري ، وسيجلس فوزي الصغير على ركبتي ، ويعبث بشاربي وصدري ، «ما احلاك يا فوزي ! ما احلاكم يا اولادي ! كلكم الآن في البيت، والبحارة على الشاطيء ، والزوجات في احضان الازواج ، وانا هنا وحدي ! ذهب البحارة ، ذهبوا كلهم وتركوني في البحر ، اي بحر هذا واين انا ؟! ».

عاد اليه الدوار فأحس بقواه تخور . كان الليل قد انتصف ، وساعات طويلة قد مضت منذ عصفت الريح وتغير اتجاهها . حدث ذلك في مثل لمح البصر ، بسرعة غير متوقعة، فتطلع الى الجهات الاربع وادرك ان العاصفة قطعت عليهم طريق العودة ، وان عليه ان يتجه مع الريح الى الداخل .

سأله البحارة : كيف الحالة يا ريس ؟ فقال « لا شيء يخيف ، اسرعوا في جمع الشباك ، ودعونا نمضي بغير خام، سننجو باذن الله ، اعملوا بأيديكم وادعوا في قلوبكم والله المنجي » .

انطفأ « اللوكس » فغاصت الشختورة في الظلام ، ولم تمهلهم الريح ليجمعوا الشباك فتقطعت بين ايديهم ، وترنح الصاري وتمزق الخام ، وظلت الحبال وحدها مدلاة بين الصاري والسطح كأوتار قيثارة ضخمة غير مشدودة ، وعلى وجه الماء هب اعصار غضوب وهام مسعورا وعناصر الطبيعة تواكبه ، وتزار معه ، وتزأر على بعضها ، وتتعارك ، والشختورة تختلج كأنها فريسة صرع مخيف .

تراكض البحارة في كل ناحية صائحين « ياريس » ومالت بهم الشختورة على احد جنبيها فتساقطوا ، ونهضوا ليعودوا الى الركض فالسقوط ، وتمسكوا بالسارية والحبال وببعضهم ، وتذكروا حذاية جميل سعود ونظروا الى البحر

يشرئب اليهم كفول ، والى الهاوية تنفتح من تحتهم ، والى المياه تغمرهم وتجرف ما تصادفه في طريقها على الظهر ، والرحموني يمسك بالدفة ويوجههم ، او ينصحهم قائلا :

— لا تخافوا ، سننجو ، صلوا ، صلوا .

ركع البحارة حيث هم ، وتعالت اصواتهم وسط الظلمة والريح تتلو آية الكرسي « الله لا اله الا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الارض ،من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ، يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم » صدق الله العظيم .

مزق بحار قميصه ونذر ان يذبح خروفا اذا وصل البر . وقبل بعضهم الارض، وقال الرحموني « انضحوا الماء ، انضحوه بسرعة والا غرقنا » .

اندلع برق مزق حجاب الظلام ، وتلاه رعد هدار تقلبت موجاته وتدحرجت فوق رؤوسهم ، وسقطت صاعقة وغابت في البحر ، وعصفت ريح هوجاء ارتفعت الى اعلى ورفعت معها الماء وامسكت بالشختورة وهزتها بقوة كأنها تريد ان تصعد بها ، وبعد ان رفعتها الى اعلى تركتها تسقط في الغور السحيق الذي انفتح تحتها وغمرها بردم مائي حتى غابت مؤخرتها وانقصفت بعض اعمدتها ،ثم استوت من امام وغاصت من وراء وفقدت توازنها وانقادت كقصاصة من ورق ليد العاصفة القوية التي جعلت تلهو بها وهي تقهقه في هزء وشماتة .

نضح البحارة الماء حتى تعبوا . وبدا لهم ان انقاذ الشختورة مستحيل،فاقترحوا على الرحموني ان ينزلوا في الفلوكة الصغيرة للنجاة بأنفسهم :« المجاذيف وحدها يمكن ان توصلنا الى الشاطيء ، اما الشختورة فنرخي ياطرها ونتركها في البحر » .

نظر اليهم الرحموني وفكر . كانوا فيحالة ذعر واعياء، والشختورة توشك ان تغرق ، والعاصفة تزداد ، والبحـر يهتاج ، ولا فائدة من النصح ولا الكلام، بل انه لا يريد النصح ولا الكلام « البحارة على حق . لو كنت مكانهم لفكرت بما يفكرون ، ليذهبوا وسأبقى ، سأظل في الشختورة ، ولن القي الياطر ، وسأتجه مع الريح، دائما مع الريح » .

— ماذا تقول يا ريس ؟

— اذهبوا انتم ، خذوا الفلوكة والله معكم .

— وانت !؟

— لن اترك الدفة .

احسوا به يصفعهم على وجوههم بكفه الخشنة المبللة . وادرك الرحموني ما يستشعرونه من خجل واسى فخاطبهـم جـادا حازمـا :

— اذهبوا . . اذا كنت سأموت انا فلماذا تموتون انتم؟ نسيتم قاعدة البحر ؟

وسكت قليـلا واضاف :

— من المصلحة ان تذهبوا . . استطيع الثبات حتـى تصلوا الشاطىء وترسلوا الزورق ، وفي حالة كهذه تنقذون انفسكم وتنقذونني معكـم وتخلصون الشختورة من الغرق.

وترددوا ، ثم ذهبوا بعد لأي . . . نزلوا في الفلوكـة واخذوا يجذفون ويغنون ، وكان ريسهم يسمع من على ظهر الشختورة غناءهم البائس الذي يقاومون به التعب والخوف ، فتمتم في ذات نفسه محزونا :

« ليحفظكم الله ، ليحفظكم الله ، اذهبوا واخبروا عني »

وغابوا عن عينيه . . تلاشى صوت غنائهم ، وامحى اثرهم، وابتلعهم الليل ، وبقي وحيدا في البحر ، وحيدا امام العاصفة، جلودا حتى النهاية ، او هكذا عقد العزم .

١٣

تفرق البحارة حلقات في مقهى الطروسي يشربـون النراكيل والقهوة والشاي بانتظار الفرج والاخبار التي ستأتي عـن المفقوديـن في البحر .

وعادت النساء الى بيوتهن . وبقي قسم مـن البحارة والرجال في الميناء . واقفلت حركة البحر فلا غدو ولا رواح وهربت المراكب الى داخل الميناء ، واطارت الريح سقـوف البيوت الخشبية التي يقرع عليها المطر قرع زنجي على طبـل صفير ، وانحدرت سيول فاضت بها الانهـــار ، وتشققت الجدران وحدث ذعر عظيم في المدينة .

وقال خليل العريان الذي عاد راكضا الى الميناء عندما سمع صفير باخرة :« ضاع الطروسي ، كان عليك ان تمنعه من النزول يا ريس » .

واجاب رئيس الميناء محتدا :

— قلت له لا تنزل فما سمع ،ماذا تريد ان افعل ؟ هل استعين بالشرطة بعد ان هاج وهيج البحارة معه ؟

اطلق هذه الكلمات امام البحارة المجتمعين في مكتبه بعد ان انفجرت اعصابه كأنها بحاجة الى من يثقب صمامها . فرد عليه ابو محمد الجالس القرفصاء قرب الباب :

— انت صادق يا ريس ، ولكنك لم تقل له لا تنزل !

— نعم قلت ، اي قلت .

— انا ما سمعت .

— انت اطرش .

— وكيف لم يسمع هو ايضا ؟

— هو ؟ صاحب الرأس العنيد ؟

— هو يعرف شغله ، فلا تخافوا عليه . من الصباح قال ان نوبة ستحدث الليلة ، فرد البحارة « الله ما اعطى علمه لاحد » وها هي النوبة فما رايكم ؟.

قال رئيس الميناء يحاول اقناعه :

— ولك يا ابو محمد ،كلمة وقالها ..عجينة ولصقت، يعني هو افرس من غيره ؟ اي والله ما فيه واحد افهم مني في البحر ، ومع ذلك شيبتني المفاجآت .

واوجز بحار حكاية البحر بهذه العبارة :

— البحر مثل شباط ، ما له رباط .

بيد ان ابا محمد عاد الى الدفاع :

— البحر له مفاجآت ، ولكن الطروسي يفهم .

— يفهم بالغيب ؟

— لا ، بالنجم !

— وانت ؟ بماذا تفهم انت ؟ بالفلك (وادار قفاه وضرب عليه) انت تفهم بهذه (بالاذن من الحضور) .

قهقه الحاضرون جميعا ، ومنهم من اغرب في الضحك، فتبدد الوجوم، واربدّ وجه ابي محمد لهذه الحركة التي صدرت عن رئيس الميناء ، وكتم غيظه مكتفيا بهز راسه ، وقال بينه وبين نفسه متوعدا « اذا عاد الطروسي نتحاسب » .

واردف رئيس الميناء بلهجة الاعتذار عما بدر منه :

— يا ابو محمد ارجوك ، انت ابونا ، والطروسي اخونا ، وكلامك على راسي، لكن اترك الدور لغيرك . مليح ، الطروسي يفهم ، آي يفهم خي ، انا لا اجادلك ، ولكن نحن نفهم ايضا ! هذه الشرائط (ومد يده الى الشرائط التقليدية المقصبة على كتفه) من بيت ابي ؟ وجناب محمد ما طلعت الى قطعة في البحر من « الفرقيطة » الى « البابور » الى

« الفيز » الى الفلوكة الا واثبت وجودي. رئاسة الميناء ما جاءتني من بيت ابي ، والانسان لا يتكلم عن نفسه ، وانا لا امدح فهمي ولا انتقص من فهم الطروسي ، لكن الشيء المعقول حلو .. اي نهار .. ونجوم ؟ عمرها صارت ؟ المغامرة حلوة، آي خي ، المغامرة حلوة ، انا غامرت بعدد الشعر الذي في رأسي ، لكن ما من ابن المراة براسه عقل ويخرج من الميناء في هذا الجو .. الحق عليّ انا، كان يجب ان امنعه من الخروج. انا المسئول عن الميناء لا هو ، ومئة مرة قلت له ؟ « يا ابوزهدي انا اعزك واحترمك لكن لا تحرجني ، اترك الميناء ، لا تتدخل في امور البحر والبحارة ، لكن من يسمع ؟ كل يوم علقة ؟ هذا البحار ترك فلوكته بغير « ياطر » يأتي ويبهدله ، وهذا الصياد القى ديناميت يأتي وينشر عرضه ، وهذا الريس اختلف مع بحارته يأتي ويشد مع البحارة ، ونحن نحسب خاطره ، آي خي ، نحسب خاطره ، لكن لكل شيء نهاية ، البحر للطروسي ، آمنا وصدقنا ، البحر له ، فليهبه لنا ويستريح ، آي علم الله المقهى مزراب ذهب لو تفرغ له ، ولكن لمن تقول ؟ سوسته في البحر، يريد ان يفرض نفسه بالقوة على الميناء ، ولكن الميناء لا يجوز ان يكون لها رئيسان، الميناء لها رئيس واحد هو انا (وضرب على صدره) انا رئيس الميناء ، انا ! وكان عليّ ان لا اسلمه الزورق .. اذا كان لا يسأل عن روحه فما ذنب البحارة ؟ومن المسئول عن الزورق؟ وماذا ستقول السلطات غدا ؟

واستمر هياج رئيس الميناء وقتا طويلا ، وقد وصف خليل العريان كلامه بأنه« كلام بدون طعمة » فأجابه ابو محمد وهما يعودان الى البطرنة :

— بدون طعمة وبس ؟ كلبك راح يعضني .. آخ لو كان الطروسي في المحضر لقلع اضراسه (وبعد وقفة) انت صدقت انه يخاف الطروسي والبحارة ؟ لا تصدق ، كل

خوفه على الزورق .. تفو ، اي الذي رضع حليب فرنسا وقبل الايدي والارجل حتى صار رئيس ميناء راح يكون الا على هذا الشكل ! ؟.

حرضه خليل قائلا :

ـ فاتح الطروسي بالموضوع .

لا ، خي اذا عرف الطروسي هجّره من الميناء كلها ولو دخل السجن من تحت راسه .

ـ برحمة بطرس قلبي خايف عليه يا ابو محمد

توقف ابو محمد وسأل :

ـ على من ؟

ـ على الطروسي .

استأنف السير وقال :

ـ لا تخف عليه ، انا ما نزلت معه الى البحر ، لكن البحارة حدثوني .. قسما بالله لا يخاف الانس ولا الجان .

وومض خاطر غريب في راس خليل العريان فقال في سره :« من يعلم ؟ ربما احبته جنية البحر وهي التي تحميه !»

ورغب في اخذ راي ابي محمد فسأله :

ـ من ادراك يا ابو محمد ان الطروسي لم تعشقه جنية البحر ؟

تفرس فيه ابو محمد مدهوشا وقال :

ـ ممكن !؟

ـ ممكن ونصف ، يا ما عشقت جنية البحر ويا ما جننت الرجال وقتلتهم !

ـ ولماذا تقتلهم ؟

ـ لانهم يفضحون سرها .. الجنية اذا فضحت سرها قتلتك .

ـ اعوذ بالله !

ـ برحمة بطرس .

ـ اعوذ بالله ! واين هذه الجنية ؟

ـ في البحر . في مكان لا يعرفه احد ، نصفها سمكة ونصفها امراة ، وكثير من الصيادين راوها ، اما سمعت الحكايات عنها ؟

ـ لم اعط بالي .. اي معقول كلامك ؟

ـ نعم معقول : والنوية تحدث بسببها .

ـ وكيف ؟

ـ يا مرحوم الوالدين ، المسالة وما فيها ان جنية البحر ، في ارواد يسمونها عروس البحر ، تتزوج وتخرج مع زوجها ملك البحر الى سطح الماء ، والنوية هي « المزيكة » التي تضرب قدامها .

ـ يالطيف !

ـ شيء عجيب ! عجايب البحر كثيرة .

ـ اعوذ بالله ، انا لا اصدق .

ـ انت حر ، انا هكذا سمعت .

ـ ممن ؟

ـ من صياد عجوز ، قال انه راى عروس البحر في شبابه ، وانها جالسته .

كانا قد وصلا الى المقهى فدخلا ، واغلق ابو محمد الباب وقال لخليل :

ـ خي خليل ، احك لنا حكاية البحر .

ـ طيب ، هات فنجان قهوة حتى نروق اولا .

سحب البحارة كراسيهم وتحلقوا حول خليل ، وجاءت القهوة فشرب رشفة ، ووضع الفنجان على الطاولة ولف سيكارة ببطء واشعلها ، وبدا كأنه غير مكترث بالآذان التي ارهفت من حوله .

وعندما بدأ الحكاية اخيرا طلب زبون فنجان قهوة فلعنه ابو محمد في سره،وقام مع ذلك الى الركوة فوضعها في النار،

وجعل يلقي بسمعه الى الحكاية ويحرك القهوة ،حتى اذا انتهى كانت قد فاتته بعض الكلمات فتوسل الى خليل قائلا :

ـ يا خي خليل ، احك الحكاية من اولها ، احكها على حبتها ، راح احفظها هذه المرة .. قلت ان عروس البحر احبت الامير ؟ واين رأته ؟ لم اسمع كل الحكاية ، اعدها بكلمتين الله يوفقك .

قال خليل محتجا :

ـ ليس في الاعادة افادة ، الحكاية تحكى مرة ما مرتين .

توسل اليه ابو محمد من جديد :

ـ اعدها لاجلي ، الله يوفقك يا خليل .

ـ انا لا اعيد حكاياتي ، هذه عادتي .

نرفز ابو محمد :

ـ من اي متى ؟ دائما تفتق وتعيد حتى تصرعنا ، والان صرت قليل الكلام ما شاء الله !

ـ ولك خي ...

فقاطعهما الجالسون بنزق :

ـ اي احسموها (واشترطوا) لكن اعط بالك يا ابا محمد هذه المرة هه .

قال ابو محمد :

ـ طيب ، على راسي ، بس يحكي .

وضع خليل رجلا على رجل ، ومص عقب سيكارته بجهد ونفث دخانا متقطعا وقال :

ـ راح احكيها من جديد ، كرامة لخي ابي محمد .

ـ عشت ، طيب الله انفاسك .

ـ وانفاس السامعين .

وتضايق السامعون من منولوج المجاملات هذا ، ونظروا الى ابي محمد نظرة مؤداها « خلصنا ! »

وقال خليل موجها كلامه الى ابي محمد مباشرة « يا مرحوم الوالدين ، في البحر ، مثل البر ، ملوك وامراء ووزراء وناس وانهار وجبال وكل شيء ..

ـ اعرف (قالها ابو محمد بصدق وطيبة)

فتوقف خليل عن الكلام وقال :

ـ ما دمت تعرف ليش نعيد الحكاية !؟

اوضح ابو محمد ملاحظته :

ـ يعني ما قلت مفهوم ، عرفته من الطروسي .

ومع ذلك انتهره البحارة :

ـ قلنا لا تقاطع !

ـ طيب ، طيب ، هه (ومسح على فمه علامة الصمت) بس هات أنت .

وتابع خليل حكايته :« وفي البحر قصر الملك الذي جدرانه من مرجان ، ونوافذه من كهرمان ، وسقفه من ياقوت (هنا فرك بحار يديه وندت عنه هذه الصيحة : يا حبيبي ! وقد اعتبرها خليل بمثابة تطييب فرفع صوته وقال):

« وكانت تعيش في هذا القصر اميرات البحر ومربية عجوز تحفظ (مثلي) حكايات كثيرة عن العالم الذي فوق الماء وتقصها كل ليلة على الاميرات .

« وكانت الاميرة الصغيرة تطلب دائما ان يسمح لها الملك بالصعود الى سطح الماء ، وهو يمنعها خوفا عليها . فلما بلغت سن الرشد قالت لها المربية : « تستطيعين الصعود الى السطح والجلوس على الصخور في ضوء القمر ورؤية السفن والغابات والسهول والغيوم والنجوم وكل شيء » .

« فتزينت الاميرة وتغندرت وشكلت في شعرها زهرة البحر ، وصعدت الى السطح فجلست على الصخر في ضوء القمر ، حتى رأت سفينة فلحقتها،ونظرت من نافذتها فوجدت

عدة رجال يجلسون حول امير جميل ، اسود العيون ،ابيض الوجه ، مثل البدر ابن اربعة عشر . ثم جاءت الجواري ودار الرقص ، وظلت الافراح قائمة حتى ساعة متأخرة من الليل ، وبعد ذلك اطفئت الانوار ، ونام الامير واسرعت السفينة ، ودخل ضوء القمر من النافذة فغمر وجه الامير الجميل ، وتعلقت به عيون اميرة البحر ، فلم تفارق مكانها ، وراحت تتبع السفينة التي اشتد عليها النوء ، وهاجمها الموج فحطمها، وامتلأت بالماء فانقلبت في البحر ، وبدا الامير يغرق ويغوص الى الاعماق ، ففرحت عروس البحر وقالت « سيظل الان معي » ، لكنها تذكرت انه انسان لا يستطيع العيش تحت الماء، وانه سيختنق ويموت ، فاسرعت نحوه ورفعت راسه فوق الموج وحملته الى الشاطيء ومددته على الرمل حتى الصباح، فجاءت الصبايا نحوه ، واختبأت هي وراء الصخور لترى ما تفعله بنات جنسه به ، واذا بواحدة تقترب منه وتهزه ،ففتح عينيه وابتسم لها ، ونهض وسار مع الصبايا الى قصر كبير ، ولما رات عروس البحر ذلك اصابتها الغيرة فعادت الى قصر والدها في البحر وهي مجروحة القلب .

سأل ابو محمد متعجبا :

— سبحان الله ! حتى عروس البحر تغار ؟

قال خليل :

— اي عروس البحر ما من جنس حواء ؟ كل هذا الجنس يغار .

— وام بطرس ؟ (سأله بحار)

هز براسه وهو يبتسم :

— اعوذ بالله .. جنس ملعون ! كانت تغار في اول عمرنا ، اما الآن .. على اي شيء تغار ؟

— طيب (قال بحار آخر) رجعنا الى الحكاية (وملتفتا الى الحاضرين) بلا تعليقات يا شباب !

فأجابه خليل :

— اي اشتريتني بفلوسك ؟ مليح ، الله خلق الخلق ، هات اسقنا ابو محمد .

شرب حتى ارتوى . كان جوفه يحترق بالكحول ، وبعد ان مسح شفتيه بقفا كفه سأل :

— الى اين وصلنا ؟

— الى عودة الاميرة لقصر والدها .

« هه ، صحيح ، نزلت الاميرة الى قصر والدها ، واصبحت لا تأكل ولا تشرب ، وغرقت في الحزن ، ولما سألتها العجوز عن السبب اخفته عنها . لكن العجوز كانت ساحرة وتعرف كل شيء ، ففهمت ان عروس البحر تصعد الى السطح وتنزل بلا فائدة،وانها لم تعدترى الامير ،فاشفقت عليها واخبرتها بمكانه،وقالت لها انك لا تستطيعين انتصبحي من سكان الارض حتى تتخلصي من ذيلك . وصنعت لها شرابا وقالت « اذا شربت من هذا الدواء على سطح الماء قبل شروق الشمس يختفي ذيل السمكة وتحل محله رجلان مثل ارجل البشر ، لكنك ستحسين وانتتسيرين كأنك تدوسين على ابر ، ولا تقدرين على العودة الى الماء ، فهل تقبلين ؟»

« فكرت الاميرة وبكت ، واستبد بها حب الامير فقررت ان تضحي بذيلها ، وطلبت من مربيتها العجوز ان تصنع لها الشراب ، فقالت العجوز « هذا سيكلفك صوتك ، لانني سأقطع لسانك واذوبه واصنع منه الشراب الذي سيحولك من سمكة الى انسانة فهل توافقين ؟ »

وعادت الاميرة تفكر وتبكي، ثم وافقت لاجل الامير ، ومدت لسانها فقطعته العجوز وذوبته واعطتها اياه في زجاجة صغيرة ، فأخذته وصعدت الى السطح ،وسارت في ضوء القمر حتى وصلت الى قصر الامير ، فوقفت على درجه الرخامي وشربت السائل ، فأحست كأن السيوف تمزق

جسدها وفقدت وعيها وغابت عن الدنيا ،وظلت في مكانها حتى جاء الامير ورآها وسألها عن حالها فلم تستطع الكلام ، وانبهر بجمالها فحملها الى داخل القصر،واحبها ووعدها بان يظل وفيا لها ، ولشدة غرامه بها البسها لباس الرجال واخذها معه الى الصيد ،ولم يعد يفارقها ، الا انه لم يفكر بالزواج منها لانهـا خرساء .

« وشاع في أحد الايام ان الامير سيتزوج من ابنة ملك البلاد المجاورة ، واخذ يعد العدة لحفلة العرس ، ودعا عروس البحر الى الذهاب معه ،وقال لها انهسيرى ابنة الملك ليرضي والده فقط ، لانه قرر الا يتزوج الا من الفتاة التي انقذت حياته من الغرق،وهذه الفتاة موجودة في ديـــر لا يعرف مكانه احـد .

« وسارت السفينة بالامير ، ورافقته عروس البحـر وهي تبكي سرا ، لكنها كانت تتعزى بأن الامير لن يتزوج من غيرها ، لان التي يظن انها انقذته دخلت الدير . ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ،فما كاد الامير يرى ابنة الملك حتى صاح « هذههي ! هذه هي التي انقذتني من الموت » والتفت الى عروس البحر قائلا : « ستكونيـن مسرورة ولا شـك بزواجي » فأحنت عروس البحر راسها بينما قلبها يذوب من الحزن ، لان يوم زواج الامير سيكون يوم مفارقتها الحياة .

« وتمت استعدادات الزواج ، وركب الامير وعروسه السفينة عائدين الى بلاده ، وقامت الافراح ،وغنى الجميـع ورقصوا ، وظلت عروس البحر ساهرة ، لانها كانت تعلم ان موتها سيكون مع شروق الشمس كما قالت لها الساحرة .

« وبينما هي على هذه الحال ظهرت لها اخواتها من بين الامواج مقصوصات الشعر ، وقالت لها اختها الكبيرة اننـا اعطينا شعرنا للساحرة لانقاذك من الموت ، فاعطتنا هـذا الخنجر الحاد ، فاغمديه في قلب الامير قبلان تشرقالشمس،

وحين يجري دمه على الارض ويلطخ قدميك تتحولان الى ذيل سمكة ، وتعودين معنا الى قصر والدك في البحر .

« امسكت عروس البحر بالخنجر ولم تضرب به الامير النائم . كانت تحبه ، وحب جنيات البحر شديد ،لذلكرفعت الستائر الحمراء ونظرت الى الامير وعروسه النائمة علـى زنده ، واخذت الخنجر والقته في البحر ، ووقفت على طرف السفينة ونظرت الى الامير نظرة وداع .

« كانت الشمس قد ارسلت شعاعها الاول ، فأحست ان روحها تفارق جسدها ، والقت بنفسها في الماءفاستحالت الى زبد ، وهذه قصة عروس البحر .

ـ سلم الله فمك ، والله قصة !

قال خليـــل :

ـ ولكن لها بقية ..

فتوسل اليه ابو محمد قائلا :

ـ اكملها لنا يا خليل ، يرضى عليك .

فهز خليل راسه اشفاقا على « قلة الفهم » وقال :

ـ بقيتها في البحر يا عم ، الا تسمع الملك ، ابـــو الاميرات ، ينتقم من جنس الامير ، من البشر ؟

ـ يا لطف اللـه !

ـ يا حفيظ ، الله يحميك يا ابوزهـــدي،انا من رأي رئيس الميناء يا جماعة ، نزلة الطروسي في البحر اليوم جنون في جنون .. تصبحون على خير .

ـ وانت بخير ، رايـح ؟

ـ رايح للميناء ، لا بد ان يأتي خبر من الجماعة .

فارتدى ابو محمد معطفه وصاح وراءه :

ـ على مهلك يا خليل ، انا رايح معك يا خي ، والله نومتي على رصيف الميناء الليلة ، حتى يأتي خبر منالطروسي.

١٤

وكان في الميناء ، اضافة الى ابي محمد وخليل ، بعض البحارة وبعض ذوي المفقودين ، وكان رئيس الميناء ينتظر كذلك وقد ازدادت وساوسه .

وكان يخرج ، من حين لآخر ، بحار ينظر في الميناء المقفرة ، ويرى الى السماء المحجوبة بالغيوم ، وينصت الى الريح تدوي ، والامواج تزار ، ويعود الى الداخل وهو ينفخ، ويقول لمن يسأله عن الجو « النوبة فظيعة والله الساتر ، نزلة الطروسي خطرة » .

فيغتنم رئيس الميناء الفرصة ليؤكد من جديد : «خطرة وبس ؟ جنون ، نزلته جنون !»

اما الطروسي فلم يكن يفكر في شيء من هذا الذي يفكرون فيه ، بل لم يكن يصنف فعلته ، اهي حماقة ام مغامرة ام جنون . كان يندفع على كتف الموج ، ويشب الى الامام ، غير آبه لشيء سوى الدفة . لقد عاد اخيرا وامسك بها ، فكم هو جميل هذا !

ثمة فرق استشعره ، وهو يخرج من الميناء ، ذلك هو الاختلاف الكبير بين الشراع والزورق . ومع هذا لم تفته قيمة الزورق في هذا الجو العاصف بالنسبة الى الخام ،فقرر في نفسه فورا ان القدرة على الاندفاع بالمحرك اقوى واجدى من الشراع بما لا يقاس .

كان الخروج من الميناء ، في حد ذاته ، خطرا حقيقيا ، فمن قلب الحوض المائي الكبير المكشوف للرياح يحاول الزورق

ان يخرج الى رحاب البحر الذي تتدافع امواجه المزبدة لتهاجم الشاطىء ، وكان على الزورق ان يتلقى ، كفرقة الصدام في المعركة ، وطأة الهجوم الشرس ، وقد خيل الى البحارة انه سينقلب بهم لا محالة ، وان مؤخرته التي يقعي عليها حين يرفعه الموج ستغوص نهائيا ، لكن الطروسي تجنب الغرق بتغيير الاتجاه ، فأخذت الامواج تضرب جانبي الزورق وتؤرجحه وتجعله يميل الى يمين ويسار ، وعندئذ عاد الى تغيير الاتجاه ثانية ، واندفع في خط مائل ليتفادى مجابهة الريح ، ولما اجتاز مدخل الميناء واصبح في عرض البحر صاح مشجعا رجاله :

ـ خرجنا من الميناء هه ، كلما تقدمنا في البحر تغلبنا على النوء ، الموج لا يخيف الا على الشاطىء ..

واصدر بعد صمت هذا الامر : « انتبهوا الى الموتور ، اذا انطفأ تعطلنا » .

ـ الموتور محفوظ ، لكن الموج يضرب الزورق من جانبيه ، والمياه تتجمع في القاع .

ـ هذا لا يهم (قالها وهو غير ملتفت) انضحوا الماء .

ثم ضرب فجأة على غرفة الموتور وقال :

ـ هورسا ! هورسا ! خفف السرعة يا معلم اسماعيل ، الريح تغيرت يا شباب ، سأتجه شمال شرق وادور حول الجون حتى نتفادى الخطر .

اخذ الزورق يميل في خط ذي انحناءة، ويتلقى هجمات الموج في خاصرته من جديد ، والمحرك يزمجر ، والماء يفور ويتصاعد ويتساقط رذاذه في القاع ، والبحارة ينضحون وقد التصقت ثيابهم المبللة باجسامهم .

انتهى ميلان الزورق وعاد الى السير في خط مستقيم . انه في مواجهة الريح مرة اخرى ، وقد بدا وهو يحاول الاندفاع فلا يستطيع ، كحصان اجفل فاشرأب وارتكز على قائمتيه

الخلفيتين ، واخذ يدور عليهما مهددا فارسه بالسقوط .

وتمسك البحارة بالاوتاد ، وببعضهم ، وعرفوا ، في هذه الدقائق ، الى اي مصير يقودهم الطروسي، وفكروا لاول مرة بالبر ، وربما ندموا وقد لاحت لهم الاخطار مجسمة، ورأوا الموت امامهم يفغر شدقيه ويقهقه .

واضطربت الدفة بين يدي الطروسي . عليه ان يدور مع الريح كرة اخرى . هذا هو حكم الضرورة والسلامة . وفي حال كهذه يدور حول نفسه ويعود الى وراء ، فماذا يقول البحارة عنه ؟ بل ماذا يقول ابو رشيد ورئيس الميناء ؟ وهل يترك الرحموني في قبضة العاصفة والفناء ؟

اصر على التقدم بخط مستقيم ، مع ميل جزئي متعرج، يخدع به الموج عن نفسه ، واغمض عينيه مرغما وهو يستشعر الاحتراق فيهما ، ثم انصب المطر وانغلقت الجهات الاربع ، وتوقفت الكلمات في الحلوق فلم يعد يسمع صوتا من حوله.

« لن اتراجع » كذلك اكد من جديد كأنه يؤنب نفسه ويزجرها ، وتبع ، بخبرة بحار قديم ، الاتجاه الذي حدده ، تاركا للبرق ان يكشف له الطريق وينير طرف الافق البعيد.

وسط هذا الهول ، اعطى المعلم اسماعيل اشارة الخطر:

ـ الماء يتسرب الى الموتور .

كان على الطروسي ان يعمل بسرعة والا ضاع هو والزورق والرجال . ان الموت لا يحدق بالرحموني فقط بل به هو ايضا . لقد اصطادتهما العاصفة معا ، بل اصطادت الجميع ، الكل في حفرة العدم الآن ، ولم يبق الا الردم .

انحنى الى امام وجرب ان يثقب فحمة الليل ببصره ، فتدحرجت قطعة من جبل الموج على الزورق وغمرته .

وكان ، في وقفته تلك ، يشبه فارساً يضع قدميه في الركاب ، ويرتفع بجذعه الى اعلى، ويمسك بناصية الجواد ويطارد بعناد واستقتال .

الكتفان مجمعتان ، منحنيتان الى امام ، والزورق يعلو ويهبط ، والمحرك يهدر ، والريح تزار ، والمطر يتساقط ،وكل شيء ينذر بنهاية فاجعة ، وفي هذا الوقت بالذات جاءت اشارة الخطر .

حدق الطروسي في البحارة فالفاهم يتحركون في القاع كأشباح ، وقد بدت حركاتهم نفسها شبحية فاقدة ما اتسمت به في بادىء الامر من حيوية واندفاع ، وسأل عن المياه فبادره احمد بهذا الجواب :

ـ اصبحت تغطي اقدامنا (وقال كمن يخاطب نفسه)لو رحمتنا السماء فتوقف المطر على الاقل !

كانت اللهجة قاسية فيها سخط وعتب ورجاء . ان شعورا جديدا بدا يجيش في اعماق احمد ، وخيل الى الطروسي ان بحارا عارك البحر طويلا هو الذي يجيبه ، لا فتى الميناء المتسكع بين المراكب وعلى الارصفة .

سأله باشفاق :

ـ تعبت ؟

ـ ما باطل !

قال الطروسي في سره : « هذا جواب » انعشته هذه النفحة من عزم ، واحس بها دفقة من عناد تسري في عروقه: « الماء لن يعلو عن وجه القدم ما دام النضح مستمرا ، فلو استطعت منع دخول الماء الى الموتور لنجحت »

ـ يا احمد !

ـ نعم يا ريس .

ـ تعال امسك الدفة .

ـ انا ؟

ـ وهل يوجد احمد غيرك ؟

ومع هذا ظل في مكانه لا يتحرك :« أيمكن ؟ انا امسك الدفة ، وفي هذا النوء ؟ »

عاد الطروسي يصيح :

ــ يا احمد ! اما سمعت ؟ تعال امسك الدفة .

ــ ...

وزعق بــه :

ــ قلت لك تعال .

كاد يجيبه : لا استطيع ! لا استطيع ! الا ان الطروسي كان ينتظر باصرار ، فلم يجد احمد بدا من التوجه اليه ، واذ ذاك تلقى ضربة تشجيع في ظهره خفق لها قلبه بعنف . قال له:

ــ امسك بيديك الاثنتين . من هنا ، من هنا ، ابــق الدفة ثابتة حتى اطلب منك تحريكها ، احترس من ان ترميك الريــح في البحر .

ــ لا تخف ، استرح انت .

« استرح انت ؟ الولد يظنني تعبت ، احمد معذور ،لم يسافر معــي بعد »

ــ يا معلم اسماعيل ، من اين يدخل الماء ؟

ــ من تحت ياريس ، من هنا (وضرب علــى الشــق الاسفل من الباب) .

فكر الطروسي « اذا فتحت الباب انساح الماء الى الداخل وعجل باطفاء الموتور ، واذا ابقيته ظل يتسرب حتى يعطله ، فكيف اعمــل ؟»

برقت في خاطره فكرة :

ــ هاتوا تنكة فارغة ، سيا يا احمد سيا ، ثبّت الدفــة بكل قواك في اتجاه الريح حتى نتفادى الماء من الجانبين .

قالها وشرع ينضح بحماسة بعثت الحمية في البحارة . لم يحث احدا على العمل . انه يعرف مقدار التعب الذي حل بهم ، فليستريحوا اذن . لكنهم تحركوا بسرعة للعمل «الريس ينضح ونحن نقف كالاصنام هو كهل ونحن شباب ؟ فكيف لا يتعب هو ونتعب نحن ؟ لعينيك يا طروسي !»

عملت الايدي بتواتر متصل . الصفائح تنزل وتطلع ، والظهور ترتفع وتنخفض بحركة مكوكية ، والماء يتناقص حتى اصبح قليلا ، لا يغطي القدم .

القى الصحيفة جانبا ، وغمس يديه في القاع متحمسا ثم تناولها من جديد،واخذ ينضح:همتكم ياشباب،نجحنا هه » فصــاحوا « لعينيك » واجابهم : « عشتم ، مثلكم تكون الرجال» وحمي وطيس العمل . جعلوا ينضحون بقوة واندفاع وغضب، بشعور بحارة تلقوا لتوهم تحية من ريسهم . لقد خبروا مثل هذا العمل ، وكابدوه كثيرا ، ويريدون ان يعطوا برهانهم ،ان يثبتوا انهم رجال ،بل « مثلهم تكون الرجال » .. باعدوا ما بين اقدامهم ، وثبتوا الصفائح في ايديهم ، ومتحوا بعزيمة من يتصدى الى نبع ويريد ان ينشفه .وكانت « للنبع » روافد من الموج والمطر ، ولعزائمهم روافد من الثقة والصبر، فاستحالت العملية الى صراع ، ولم يقصر البحر ولا قصر البحارة ، وفي غمرة هذه « الرقصة الافريقية »العنيفة الصاخبة مــا بيــن استقامة وانحناء ، جاءتهم صيحة الطروسي:« كفى ! فكفوا » والقى بالصحيفة في المؤخرة ، وخلع سترته وصاح :

ــ افتح الباب يا معلم اسماعيل .

وفتح اسماعيل الباب ، فعمد الطروسي الى فــرش سترته تحته ، وعاجله بصوت حاد :

ــ اغلق الآن ، لا يهمك ان تتقرض السترة ، اسرع ، اسرع ، اذا احكمت الاغلاق انقطع تسرب الماء ..

وانغلق الباب ، فصاح الطروسي :

ــ دوّر الموتور على كيفك الآن ، قل يا الله ..

كانت الحركة سريعة الى درجة اذهلت اسماعيل ، وظل الطروسي بالقميص والشروال فقط : « انا لا ابرد ، فهــل تشعرون انتم ببرد ؟ سيا يا احمد سيا »

تنفس الهواء ملء رئتيه ، فاحسه منعشا ، ومــد يــده

فأزاح الشعر عن عينيه ،واحكم وضع طاقية الصوف البحرية، واتجه الى الدفة قائلا « آن اوان الانعطاف في خط شمالي يميل الى الغرب حتى تصبح الريح في مؤخرة الزورق ، وبذلك ندرك الرحموني قبل فوات الاوان »

ومضى الزورق يمخر كمثقب آلي يحفر في صخر، ويهدر هديرا داويا ، والرذاذ يتطاير كسحابة اثارتها زوبعة في ارض رملية ، والطروسي وقد استعاد هدوءه ، يحرك الدفة ويحدق امامه كأنه يرى في الظلام .

تناوب البحارة بعد ذلك ، نضح الماء المتجمع ، واستند احمد بظهره الى مؤخرة الزورق ،وحدق في الطرف المواجه له من وجه الطروسي ولم يتكلم . كان اول درس جدي في اصول المهنة تلقاه في حياته كلها .ولقد ود ان يفعل ايما شيء ، ان يقوم باية مخاطرة ترضي الرئيس وترفعه في نظره.

لقد كان البحر ، قبل اليوم، مجرد تسلية بالنسبة اليه. كان الهية لا اكثر،مجالا للتسكع والشقاوة بين السفن والميناء، ورحلات صيد صغيرة ، وخناقات لا تنتهي مع البحارة ، وتهريب تبغ ، والقاء ديناميت ، وسباحة ، ولعب « باصرة » في المقهى . وكان يفعل كل ذلك بلا وعي ولا ارادة ، ولم يكن يحس بسعادة ولا تعاسة ،بل مجرد تصريف لطاقة جسدية شابة وعارمة ، مع رغبة تتبدى حينا بعد حين في تعلم المهنة فلا تلبث ان تصطدم بسخرية اصحاب المراكب وعدم ثقتهم به « انت لا تصلح للشغل ! » فاذا اصر على انه يصلح وتوسل وعدوه بأن يأخذوه معهم في السفرة المقبلة ، ولكن هذه « السفرة المقبلة » لم تكن تقبل ابدا .

مرة واحدة رضي ريس ان يأخذه معه في سفرة بعيدة، لكنه اشترط عليه ان يقوم بخدمة البحارة فرفض . ربما كانت الخدمة في ذاتها لا تخجله او تتعبه،وربما قام بها مقطوعا حين يصبح على ظهر المركب ، غير ان الشرط المسبق آلمه ، فلماذا

اشترط عليه الريس ان يقوم بخدمة البحارة ؟ الا يصلح لشيء سوى ان يكون خادما اذن ؟

وها هو الطروسي يرفعه من خادم الى بحار ، ويسلمه الدفة، فكيف فعل ذلك ؟ ان احمد لا يدوس الآن على خشبة تتارجح على ماء . ان قدميه على صخر ، وان نفسه لمفعمة بالثقة والسعادة،وانه ليحب هذه الرحلة رغم الخطر .ويحب البحر والطروسي والحياة . لقد اصبح بحارا الآن ، ووجد ذاته التي كانت ضائعة في فراغ العطالة فهتف « العمل ! ما الذ العمل ! ما الذ العمل !» ثم نادى بصوت عال :

ـ يا ريس ..

ـ ايش ..

ـ ...

ـ لماذا سكت ؟ هل تشعر بوجع او دوخة ؟

ـ لا اشعر بشيء ، انا مبسوط .

ـ ولماذا ناديتني ؟

ـ اردت ان اسمع صوتك فقط ، اين صرنا الآن ؟

ـ لا اعرف بالضبط ، ولكننا اقتربنا، سيساعدنا الضوء على التفتيش ، نجمة الصباح بانت واختفت وراء الغيم فقال بحار وهو يضرب بقبضتيه على صلبه :

ـ خذ عني يا احمد .. تكسرت يداي (وبصق في البحر واضاف) احس بأنني شربت قنطارا من الملح .

وشجعه الطروسي :

ـ يا الله يا احمد ، لم يبق الا القليل ، اوكان الرحموني مكاننا لفعل مثلنا .

جاءت هذه الكلمات متأخرة ، فأحمد يعمل بدونها . قال في نفسه « لو يرضى الطروسي بأن اقطع المسافة المتبقية الى الرحموني سباحة لما تأخرت .. لم اعد احس بالتعب .. آه لو كان ابو محمد معنا » .

تبلجت اشراقة من ضوء القمر تمزق البساط الغيمي الكثيف ، فاستطاع الطروسي والبحارة ان يرى بعضهم بعضا، وان يروا ما حولهم ، فرفعوا رؤوسهم الى الفتحة المضيئة في السماء ، وحدقوا فيها كأنهم يلوذون بهدايتها للخروج من المتاهة التي ضلوا في بيدائها .

وزعق بحار وهو يشير الى جانب الزورق :

ــ انظروا !

كان زوال اسود يتحرك على الموج.. يبين ويختفي ، ويلوح حينا مستطيلا وحينا مسطحا ، ويتأرجح كعوامة مربوطة الى القاع ، والامواج تتقاذفه في اتجاه الريح .

فقال الطروسي وقد اتبع بصره اشارة البحار :

ــ نعم ، نعم ، انظروا ..

والتحم المزق الغيمي في السماء ، فغابت صفحة الماء، وسادت العتمة ، وجمد الرجال وهم يسددون نظراتهم نحو الزوال لعلهم يتبينونه .

وتراكضت الغيوم السود الزاحفة من الغرب ، فغطت البقعة المضيئة ، وامتدت طبقة اسفلتية فوق الثغرة التي فتحتها اشعاعة القمر،وتجددت نوبة الصرع في الجو، حتى اضطر الطروسي الى شد قبضتيه على الدفة ،والانحراف قليلا عن خط السير. فلما شرع البحارة في التكهن حول ما راوا قال:

ــ اظنه لوح خشب، انتبهوا جيدا بعد الآن .. سندور نبحث في هذه المنطقة ، فجهزوا الطوافات والسلم والحبال واستعدوا .

مضت فترة صمت .. العيون وحدها نطقت بما في السرائر من قلق وامل وتوقع للاعجوبة التي ينتظرون ان تحدث في كل لحظة ، واخذ ثوب الليل يتشقق فتنسل منه خيوط الفجر ، والرجال يتهيأون للعمل :يمسكون بادوات الانقاذ وينتظرون ، والريح تعصف بالزورق ، وتتلاعب بهم

في عنف حتى ليخيل لمن يراهم انهم هم الضائعون لا الرحموني وبحارته .

على ان شيئا جديدا طرا في هذه اللحظات فنشر الطمأنينة في قلوبهم : انه الفجر ، المكافأة التي منحتهم اياها السماء على صبرهم الطويل ، وقد شعروا ان صدورهم ،هي الاخرى ، تضيء من الداخل ، وان ثقلا يتزحزح عنها ، وسكينة تشيع في نفوسهم القلقة المعذبة . وبدأوا يميزون ما حولهم تماما، ويرون جبال الامواج المتدحرجة نحوهم من بعيد ، والجو القمطرير ، وابعاد الجهات الاربع .

واهم من ذلك كله ، اصبحوا يرون بعضهم بعضا ويلقون نظرة على انفسهم ، ويستطيعون تجنب الرذاذ ، ويستمدون من الضوء عزما بعد ان بهظت الظلمة اعصابهم خلال هذه الساعات الطوال .

وابصروا ، في الصبح المبكر ، زوالا اخر يطفو على وجه الموج ، وينساق معه ، ويضطرب بين مطاويه ،وانياب الزبد تنهشه بغير طائل ، ثم تلفظه ، ويؤرثها الحنق فتنشب عليه وتعركه من جديد .

كان الطروسي اول من شاهد الزوال هذه المرة فصاح:

ــ مجذاف يا شباب !

وساد صمت بالغ الكآبة ، سمحوا له بانفسهم ان يسود.

« مجذاف . فهل ماتوا اذن ؟» ــ تساءلوا في ذات انفسهم .

« نعم ماتوا » ــ اجاب المجذاف الملقى كبندقية في ساحة المعركة ، كفرس تعود بدون فارسها .

وظل البحارة يحدقون فيه وكل منهم ينتظر الاخر ان يقول شيئا ، ان يبدد الصمت والحزن والاحاسيس المأتمية، فيما الريح تعوي من ورائهم ،كأنهم بقايا كتيبة مهزومة تطاردها كلاب المنتصرين ، والبحر يحمل اليهم كلما قطعوا مسافة ،

اثرا جديدا من آثار رفاقهم الذين مضوا ،ويدور بهذا الاثر من حولهم ليقتلهم اشفاقا وخوفا ، ويستل قواهم بهذهالطريقة الخبيثة ، قبل ان يوجه اليهم طلقته الاخيرة : طلقة الرحمة .

وتساءل بحار وهو يداري عواطفه وتعاسته ويطرد وساوسه بالكلام :

ــ ترانا تأخرنا يا ريس ؟

قال الريس في نفسه :« ليس هذا بسؤال . انه دعوة الى الرجوع ، لهاث انسان تعب يفكر بالكف عن المقاومة ، وعليك يا طروسي ان تجيب ، ان تشجع ، أن تبث العزيمة من جديد . لقد تعب البحارة ، وتعبت انت ايضا، والعاصفة تتجدد ، والمجاذيف والواح الخشب نذر تصرخ في اذنيك ، وتقول لك انك في وادي الموت . هنا تبدد الرحموني وبحارته وابتلعتهم الاعماق ، هنا ماتوا وطافت اشياؤهم على السطح، ولكن لا بد ، لمداراة العواطف الناغرة ، من كلمة عزاء تمسح على القلوب ، او كلمة نصح تشد الهمم ، فأية كلمة يمكن ان تقال وان تؤثر وتدفىء هذه النفوس الواجفة المقرورة ؟ »

والتفت الى البحارة وقال غير مبال بسوى الحقيقة.

ــ نعم تأخرنا ! (واضاف بعد وقفة هدهدفيها مشاعره) ومع ذلك فقد فعلنا كل ما في وسعنا. قمنا بواجبنا ، وما علينا الا ان تتابع السير مع الريح، فالموج يقذف بالحطام الى الشاطىء .

قالها ببساطة وسكت،مديرا ابدا ظهره اليهم ووجهه الى البحر . وخيم من جديد صمت موشح بالاسى ، وشرع الزورق بالعودة الى البر .

لقد سكت المتجرئون على البحر ولم يبق الاه متكلما ، وناح في العالم الداخلي لكل منهم صوت المرثاة التي تمسح بكفها على القلب الحزين ولكنها تعجز عن تبديد الحزن ذاته، وشعروا بثقل التعب فجأة ، فأرخوا سواعدهم على جنوبهم

وسكتوا . لم يعد احد منهم يسأل ، واحمد نفسه لم يعد يسأل، شعر ان كلمات الطروسي شوكة تفرز فيحلقه،وعرف انها تعني شيئا قاسيا اكثر من كل ما سمعه البحارة في هذه الليلة واستغرب ان تتسبب رؤية مجذاف ضائع بكل هذا القدر من الاسى واليأس ، وان تقطع الرجاء الذي لم تقطعه العاصفة ، وآلمه اكثر ان هذا الاسى واليأس شارك فيهما الطروسي ايضا ، وتساءل :« الطروسي !؟ هو نفسه يديرالدفة ويعود مستسلما الى القدر !؟ وعملية الانقاذ تنتهي بدون انقاذ !؟ والذين على الشاطىء !؟ ونساء البحارة واولادهم !!؟ »

ــ انظروا . .

كان مجذاف اخر يضطرب في دوامة الموج . انها النهاية الفاجعة للرحموني وبحارته تتأكد بما لا يقبل الشك .

قال الطروسي :

ــ قد نجد بينهم احياء . لماذا تسكتون هكذا ؟ اهو شيء جديد علينا ؟ البحر جديد عليكم ؟ غدا تنسون ، وفي البر تتمرجلون ، وابن الجمل ، تفو ، كان يتمرجل على البحر في المقهى ، يقول انه ملك البحر .

هز راسه بأسف وعصبية ، وقضم شعرات شاربه بغضب ، وانقلب من الوجوم الى الاهتياج بدون مبرر . كان ساخطا على القدر والحظ والدنيا كلها ،وتذكر غطرسة ابن الجمل وتفجرت اعصابه وافرزت مادتها السامة الحبيسة نزقا ورغبة في الشتم والقتال ، ثم هدأ كما بدأ ، ومرتازمته النفسية بهذه الفورة وانغلق الصمام ورجع الغطاء الىموضعه، واشتهى سيكارة اسرع بها اليه احمد،لكن الماء لم يلبث ان اطفأها فأبقاها في فمه وراح يمضغ التبغ .

اشعل البحارة ، بصعوبة ، سيكارة اخرى ، فتركها لهم ، وكان الصباح قد اشرق ، واصبحوا يشرفون على ما

امامهم حين يرتفعون على الموج ،ولم يخرجوا من تقديراتهم بأيـة نتيجـة .

سأل احمد عن الشختورة وما اذا كانت قد تحطمت فأجابه اسماعيل « لا بد انها غرقت كلها ، لاننا لم نر صواري والواح خشب » ثم سأل عن الفلوكة والطوافات ومصير الذين غرقوا ومتى يلفظهم البحر . كان يتكلم بلجاجة حتى ضجر الطروسي وكاد يصيح به . « كفانا اسئلة ! » لولا انه نظر الى وجه الفتى ، ورأى ما ارتسم عليه من امائر الجهد والتجهم ، فأخذته به رأفة وادرك انه معذور في اساه لمرأى الموت ينزل بالناس على هذه الصورة البشعة .

وتفرس احمد في البحر . انه بحر آخر هذا الذي يراه . ليس ازرق كما عرفه ، ولا وادعا كما كان في الصيف، ولا منبسطا كما عهده على الشاطىء . ان فيه جبالا ووديانا ولونا اغبر ، وفوقه سماء دكناء تذكر بالصورة التي تكونت في ذهنه عن الساحرة الشريرة في حكايات خليل العريان ، والحياة فوقه مخيفة لا تشبه الحياة على اليابسة باي شكل.

وكانت العاصفة قوية ما تزال ، ولكنها لم تعد مخيفة كما كانت في الليل . ساعد الضوء الطروسي على اعتلاء اكتاف الموج بمهارة ، وكان يعلم ان الجو سيتغير في الصباح، وان الريح العاتية سيدركها الاعياء فتستكين ، ولن يلقى في طريق العودة ما لقي في المجيء من اخطار ، وعليه ان يتابع وهو يعود ، البحث في المنطقة التي ظهرت فيها المجاذيف .

ان السير مع خط الطول ايسر ، ولكن الريح تدفع الزورق بسرعة ، وهو يريد ان يتمهل ويسير في خط دائري متكسر ، وقد خفف اسماعيل السرعة كثيرا ، الا ان الريح تقوم بعملها بشكل لا حيلة فيه .

مضت نصف ساعة اخرى . كانت اشراقة الصباح قد اكتملت ، والرؤى البعيدة توضحت ، وكل شيء من حولهم

يدل على انتهاء مهمتهم ،حين قرعت المفاجأة ابواب افئدتهم قرعا عنيفا اضطربت له حواسهم ونشطت وتوترت وتبلبلت حتى لم يعودوا يعرفون كيف حدث ذلك ، وهل ما رأوه حقيقة ام خيال صوره لهم الوهم ليعبث بهم ويرى الى وقع الحدث في نفوسهم .

كانت امامهم ، على مسافة غير بعيدة ، شختورة تلوب على سطح الماء ترتفع على ذرى الامواج وتغور في مهاويها، وتميل على جانبيها وتتخبط تخبط يائس من نجاة .

ولم يكن معهم منظار . ولو كان لما استطاعوا ان يروا فيه بأوضح مما ترى عيونهم التي تظللها الاهداب . وكان لا بد لهم ان يقتربوا اكثر ، ويتأكدوا مما يرون . الا ان رجب حكم فورا بانها شختورة الرحموني ،فصاح البحارة بصوت واحد: « يا الله » ، وفرك احمد كفيه واستعد ، واسترد جميع الذين في الزورق املهم ، وانتظروا ان يقول الريس كلمته ، وان يأخذ بهم اليها في خط مستقيم .

وجاء راي الطروسي مؤيدا :« ارجح انها هي » ثم جزم قائلا « هي بالذات » وادار الدفة وهو يصيح « هورسا هورسا » ونفر البحارة عندئذ وادركوا ان ساعة العمل قد ازفت ، وراحوا يفردون الحبال ، ويربطون الطوافات ويعدون اطواق النجاة ، وانحنى الطروسي على دفته وقد تحكم باعصابه ووفزها للعمل ، وحث بحارته صائحا :« اسرعوا اسرعوا ، دوّر موتورك بأقصى سرعته يا اسماعيل ، هيا . . »

تم كل شيء بسرعة ،واندفع الزورق الى امام ، لكن الريح جبهته بعنف واضطرته الى الانحراف ، فانعطف به الطروسي في دورة نصفية وقال . « اقتربنا هه ، كل واحد يعرف عمله ، كبّروا ، كبروا يا جماعة »

ـ الله اكبر ، يا واحد يا قهار .

اقترح احمد ان يغنوا حتى يسمعهم الذين في الشختورة ، وكأنما استسخف فكرة الغناء فاندفع يصيح بكل ما في حنجرته من قوة « جيناكم ياشباب ، جيناكم هه، لا تخافوا » .

كان الزورق يعلو ويهبط ، كأنه فرس تسير خببا ، فلما ذهبت اصوات البحارة سدى ، مد الطروسي يده في طيات ثيابه ، بين الزنار والشروال ، واخرج مسدسه « الـذي لا يروكب » واطلق رصاصة وانتظر ، ثم اطلق ثانية وكف . أعاد المسدس الى مكانه وقال :

ـ ليس في الشختورة احد .

انصبت كلماته القاطعة كماء فوق نار. انطفأت الحماسة كما اشتعلت ، وغاص الامل مخلفا مكانا لخيبة جديدة ، ثـم جاءهم قرار الطروسي :« لن اترك الشختورة تضيع » فتطلع بعضهم الى بعض بدهشة واستغراب « هل جئنـا لننقـذ الرحموني والبحارة ، ام لننقذ الشختورة ؟وكيف ننقذها وهي محطمـة !؟ »

اما الطروسي فكان يفكر على نحو آخر :« سأنقذهـا مهما حدث . لو وجد من ساعدني على انقاذ مركبي لما كنت قهوجيا الان ، ولو قدر للرحموني ان يكون حيا ، فاية فرحـة سيستشعرها وهو يرى الى شختورته تعود الى الشاطيء ولو حطاما ؟ لقد انزلنا مركبا جديدا وفرحنـا به امس ، فـاذا انقذنا هذه الشختورة سنفرح بها اكثر اليوم . انها ضائعة، وفرحة لقياها اعظم ، ولو حملوا اي جزء من « المنصورة » لاحتفظت به كذكرى مدى العمر » .

على ان البحارة لم يكونوا ، برغم حبهم له ، راضين عن قراره الذي فرضه عليهم بغير راي ولا مشورة . ان لهـم اولادهم وزوجاتهم وحبهم للحياة ، وقطر الشختورة المحطمـة مخاطرة كبرى ، وسيكون على الزورق ان يربط مصيـره بمصيرها ، وان يتخبط مثلها وهو يسحبها في هذا النوء .

لم يجهروا بهذا الذي فكروا فيه .كانوا على رجاء في ان يجدوا بعض البحارة احياء على الشختورة ، وان ينقذوهم ويدعوا ما تبقى طعاما للبحر ، اضافة الى انهم يعرفون طباع الطروسي جيدا ، فاذا همّ بشيء فعله ولو وحده،ولا تنفع فيه معارضـة ولا يثمر اقناع .

ثم حدث ما لم يكن بالحسبان .

ففيما كانوا يديرون هذه الافكار في رؤوسهم ، كـان الطروسي يتخفف من ثيابه . نزع الزنار والمسدس واعطاهما الى احمد ليضعهما « في مكان لا يصل اليه الماء » وخلـع الشروال وناوله اياه ايضا ،وبقي السروال الداخلـي ،فـي وضع لم يره البحارة عليه قبل الآن .ثم انعطف بالزورق في اتجاه جديد ، ليأتي الشختورة من وراء . وبعـد أن وضـع الزورق في الاتجاه المطلوب ، اندفع الى امام في خط مستقيم، نقطته الرئيسية على امتار من الشختورة .

ـ سأرى ما فيها اولا . .

كذلك اعلن وهو يمضي نحو هدفه . وظهرت الشختورة واضحة الآن : الساري الامامي شبه محطم ، والخام ممـزق الا بعضه ، والفلوكة الصغيرة غير موجودة في مكانها ، والمـاء يغمر السطح وينساح منه ، وليس من اثر للبحارة .

واقتربوا اكثر ، فاذا باعصار شديد ينفجر، كأنمـا ادركت العاصفة ان فريستها تكاد تفلت منها .

وهكذا خابت المحاولة الاولى ، وجاءت المحاولة الثانية اكثر خيبة . ولم يعودوا يرون مـا في داخل الزورق الذي اصيب بلطمة في مؤخرته ، واذ ذاك فهم احمد ان مجرد رؤية الشختورة لا يعني انقاذها ، واستشعر رهبة لم يعهدهـا من قبل ، وعرف ماذا يعني ان يكون الانسان بحارا ، وان ينتزع لقمته من اشداق الانواء .

اما الطروسي فقد بدا معذبا بتفكير ترف منه على وجهه

ظلال قاتمة . كانت شفتاه مطبقتين ، وبطتا ساقيه متوترتين بفعل ضغط القدمين على خشب الزورق ، وكان ظهره منحنيا كزاويــة منفرجة وراء الدفة ، والريح تتلاعب بشعره المبلل ، وتفاحة ساعده متقلصة كبطة رجله ، وكانت عيناه حمراوين من السهر وملح البحر ، وجرح على جبينه نز في وقت ما ثم توقف وتسلخ، ومن هيئته كلها يتجلى التوفر والعناد ، كنمر يرتكز على قدميه ، يتحدى صياده ان يطلق النار ، ويتحفـز للانقضاض عليه في كل الاحوال .

قال في نفسه :

« يا للهول يا طروسي!انظر الهاوية الفاغرة فاها كأنها تتحداك ان تقترب اذا كنتلا تخشى الموت ، ويا للهول يــا طروسي اذا تأخرت فان وراءك انهيارا مائيا سيطويك ، وها هو الرذاذ قد استحال الى ضباب حجب عنك الوجودواعمى ناظريك .. دع شختورة الرحموني فانها ولجت عتبة العدم القاسي واستسلمت لنداء القاع .. اتركها وعد ، فقد قمت بما عليك . وليس في استطاعتك ان تتجاهل المصير المشئوم لمغامرتك العنيدة . آن عيونا من حولك تنظر اليك فمــا أنت صانع الآن ؟ وهل تصر على انقاذ الشختورة ام تنجـو بنفسك وبحارتك وتتركهــا ؟ »

ابتعد الزورق مندفعا مع الريح ، حتى حسب البحارة ان الطروسي اقلع عن محاولته واعتزم العودة الى الشاطىء .. كانت الدنيا سوداء كأن الليل قد اغتصب جزءا من النهار والاعصار يدور بالفضاء ، ويثير وراءه زوبعــة تهيج الكائنات، والطروسي يفكر ساهما . بماذا تفكر يا طروسي ؟ ان فــي داخله شعورا بالتضحية يتسامى ويدفع به الى الطرف الاقصى من المغامرة . لقد قرر ان ينقذ الشختورة مهما حدث ، فاذا به يوشك ان يخاطر بالزورق والبحارة ويختتم حياته خاتمة لا يعرف اهو فيها على خطأ ام صواب ،فاذا كان على خطــأ

ظلت جريرة الذين اوردهم الهلاك فيعنقه،وقال البحارة عنه انه احمق ، واذا عاد خائبا قال البحارة انه جبان ، ولا يكون في كل الاحوال قدفعل شيئاينفع الرحموني،ولا اعادالشختورة التي هي خير عزاء للعائلة المرزوءة فيما لو فقدت معيلها .

لمعت هذه الافكار في رأسه كوميض برق متقطع . ومن ورائها كلها كان دافع اقوى يدفع به الى الاقدام في ولوج باب الخطـر. انه الشوق الى معانقة الشهادة في ساحة المعركة، والرغبة الآسرة في توكيد رجولته على نحو اقوى من كل ما سبق . ثم هذه هي امنيته التي كان يضمرها وتخدعه نفسه عن حقيقتها . امنية الريس في ان يعود الى الشاطيء قاطرا وراءه الشختورة التي حسب الجميع انها ضاعت الى الابد .

انتهى الى رأي قاطع :« متابعة المغامرة ! »

الخطة واضحة امامه، وما عليه الا ان يبدأ التنفيذ ، ولكن عليه ،قبل كل شيء ان يصارح بحارته بما اعتزم .

ناداهم اليه وهو في مكانه من الدفة . فلما اقتربوا رنا اليهم في حنان كأنه يودعهم واحدا واحدا . كانت يــداه الصلبتان تقبضان على الدفة ، واسنانه مطبقة ، وعينــــاه تلتمعان بشعاع يكشف عن تألق شعلة نفسه المقبلـة علــى تضحيــة كبيــرة .

قال وفي صوته تهدج غير خفي :

– اسمعوا يا شباب !

وسكت .

انقبضت قلوب البحارة لهذا السكوت ، واحسوا ان وراء هذه الـ « اسمعوا » شيئا خطيرا زاد في خطورته ان الطروسي مهد لــه بسكوت غير معهود .

واضاف بجرس صارم لا اثر للوهن فيه « سأنفذقراري بانقاذ الشختورة » .

انزاح شيء ما ضغط لاول وهلة على صدورهم .ليس

من جديد . هم يعرفون إنه قرر ، وانه سينفذ قراره بالعناد المأثور عنه ، فلماذا اذن هذا السكوت وهذه الخطورة ؟ ولماذا جمعهم حولـه !؟

تابع الطروسي كلامه قائلا بنفس اللهجة الصارمـة « خذوا الزورق وعودوا الى الميناء » .

ـ وانت يا ريس !

كذلك صاح اسماعيل مستوضحا ومحتجا كأنه يقاوم شرا يوشك ان يقع .

ـ انا سأترككم واذهب الى الشختورة .

دوى في هذه اللحظة رعد قاصف في السماء ، وهطل المطر فورا كأنه اعتزم ان يمحو اثر كلمات الطروسي في نفوس بحارته ، وانقضت دقائق مثقلة بالصمت لا تنفع في تبديده الكلمات المعتادة ، واستطاع البحارة ان يردوا اخيرا، وان يعلنوا بانهم يفضلون البقاء معه .

لم يجبهم فورا . انتظر حتى اجتاز مطبة موجية ، ودار باتجاه الشختورة وقال :

ـ لا اريد مناقشة ... انا الريس هنا ، والزورق في عهدتي . خذوه كما قلت لكم واذهبوا ، اما انا فسألقي بنفسي في الماء واصعد الى الشختورة .. لا تخافوا علي فأنا سباح قديم ، وسأصعد الى ظهر الشختورة وامنعها من الغرق ، وسأنقذها واعود بها الى الميناء ، او اظل فيها حتى اراها تغرق امام عيني واقطع منها كل امل . ستقولون « لماذا لا نقطرها ؟» وانا مثلكم فكرت بهذا ، ولكن قطرها بالزورق لن يؤدي الا الى غرق الاثنين . النوء شديد وسيقطع الحبال ، ولذا تركناها فستغرق لا محالة . وفي كل الاحوال انا افهم بلغة الشخاتير ، وسترون كيف اصنع اذا لم تكن قد ثقبت بعد، وفي هذه الاثناء تكونون انتم قد بلغتم الشاطيء ، واخبرتم بما وقع ، لا بد ان يهرع البحارة لنجدتنا .

ـ واذا غرقت الشختورة بعد ذهابنا ؟

ـ اعود سباحة الى الشاطيء ، وهذا سهل عليّ .

فهموا انه تحاشى ان يقول « اغرق معها » ، وذلك لكي يطمئنهم ويحملهم على الرضوخ .

ـ هذا كلام ! انت تخشى علينا ولا تخشى على نفسك.

ـ فسروا كلامي كما تريدون .

ـ ولماذا نبقى منتظرين في الزورق !؟

ـ وما النفع من الانتظار ؟ اذا بلغت ظهر الشختورة فلن اتخلى عنها ، وسأبقى على سطحها ما بقيت ، وربما طالت المدة وانتهى وقود الزورق ، وعندئذ ؟ فكروا ماذا يحدث عندئذ ! عودوا بالزورق واتركوني مع الشختورة وما عليكم من امري ، يا الله استعدوا .

نظر البحارة بعضهم الى بعض . « هل نترك الطروسي يضيع كما ضاع الرحموني ؟ »

جربوا نصحه للمرة الثانية فما تراجع .

ـ لا تتعبوا . هذه الدورات التي ادورها ليست في البحر بل في راسي . فكرت كثيرا قبلكم وانتهى الامر ، تيسروا والله معكم .

اصلح الدفة التي سها عنها فمالت بين يديه . كانت الشختورة تختلج كطير ذبيح ، والامواج تضربها من كل جهة ، فتذكر فؤاد المرسيني الذي نزل الى السفينة الفارقة قرب الميناء ، يسبح ويغطس وينزع صفائح الكاز من جوفها ، فيعومها ويعطيها للبحارة الفقراء يبيعونها ويفرجون ضائقتهم . لقد نزل فؤاد الى قاع السفينة الفارقة مرة ولم يستطع الصعود . اضاع الطريق وهو تحت الماء فمات مختنقا ،ولما اخرجوه في اليوم التالي بكى جميع البحارة ، وشيعوه وهم يتحسرون « لقد خاطرت بنفسك يافؤاد لاجلنا ، مت وبقينا، يا زينة الرجال ، يا زينة البحر ، كيف قتلك البحر ؟»

من جديد . هم يعرفون انه قرر ، وانه سينفذ قراره بالعناد المأثور عنه ، فلماذا اذن هذا السكوت وهذه الخطورة ؟ ولماذا جمعهم حولـه !؟

تابع الطروسي كلامه قائلا بنفس اللهجة الصارمـة « خذوا الزورق وعودوا الى الميناء » .

ــ وانت يا ريس !

كذلك صاح اسماعيل مستوضحا ومحتجا كأنه يقاوم شرا يوشك ان يقع .

ــ انا سأترككم واذهب الى الشختورة .

دوى في هذه اللحظة رعد قاصف في السماء ، وهطل المطر فورا كأنه اعتزم ان يمحو اثر كلمات الطروسي في نفوس بحارته ، وانقضت دقائق مثقلة بالصمت لا تنفع في تبديده الكلمات المعتادة ، واستطاع البحارة ان يردوا اخيرا ، وان يعلنوا بانهم يفضلون البقاء معه .

لم يجبهم فورا . انتظر حتى اجتاز مطبة موجية ، ودار باتجاه الشختورة وقال :

ــ لا اريد مناقشة ... انا الريس هنا ، والزورق في عهدتي . خذوه كما قلت لكم واذهبوا ، اما انا فسألقي بنفسي في الماء واصعد الى الشختورة .. لا تخافوا علي فأنا سباح قديم ، وسأصعد الى ظهر الشختورة وامنعها من الغرق ، وسأنقذها واعود بها الى الميناء ، او اظل فيها حتى اراها تغرق امام عيني واقطع منها كل امل . ستقولون « لماذا لا نقطرها ؟» وانا مثلكم فكرت بهذا ، ولكن قطرها بالزورق لن يؤدي الا الى غرق الاثنين . النوء شديد وسيقطع الحبال ، ولذا تركناها فستغرق لا محالة . وفي كل الاحوال انا افهم بلغة الشخاتير ، وسترون كيف اصنع اذا لم تكن قد ثقبت بعد ، وفي هذه الاثناء تكونون انتم قد بلغتم الشاطيء ، واخبرتم بما وقع ، لا بد ان يهرع البحارة لنجدتنا .

ــ واذا غرقت الشختورة بعد ذهابنا ؟

ــ اعود سباحة الى الشاطيء ، وهذا سهل علي .

فهموا انه تحاشى ان يقول « اغرق معها » ، وذلك لكي يطمئنهم ويحملهم على الرضوخ .

ــ هذا كلام ! انت تخشى علينا ولا تخشى على نفسك.

ــ فسروا كلامي كما تريدون .

ــ ولماذا نبقى منتظرين في الزورق !؟

ــ وما النفع من الانتظار ؟ اذا بلغت ظهر الشختورة فلن اتخلى عنها ، وسأبقى على سطحها ما بقيت ، وربما طالت المدة وانتهى وقود الزورق ، وعندئذ ؟ فكروا ماذا يحدث عندئذ ! عودوا بالزورق، واتركوني مع الشختورة وما عليكم من امري ، يا الله استعدوا .

نظر البحارة بعضهم الى بعض . « هل نترك الطروسي يضيع كما ضاع الرحموني ؟ »

جربوا نصحه للمرة الثانية فما تراجع .

ــ لا تتعبوا . هذه الدورات التي ادورها ليست في البحر بل في راسي . فكرت كثيرا قبلكم وانتهى الامر ، تيسروا والله معكم .

اصلح الدفة التي سها عنها فمالت بين يديه . كانت الشختورة تختلج كطير ذبيح ، والامواج تضربها من كل جهة ، فتذكر فؤاد المرسيني الذي نزل الى السفينة الفارقة قرب الميناء ، يسبح ويغطس وينزع صفائح الكاز من جوفها ، فيعومها ويعطيها للبحارة الفقراء يبيعونها ويفرجون ضائقتهم . لقد نزل فؤاد الى قاع السفينة الفارقة مرة ولم يستطع الصعود . اضاع الطريق وهو تحت الماء فمات مختنقا ، ولما اخرجوه في اليوم التالي بكى جميع البحارة ، وشيعوه وهم يتحسرون « لقد خاطرت بنفسك يافؤاد لاجلنا ، مت وبقينا ، يا زينة الرجال ، يا زينة البحر ، كيف قتلك البحر ؟»

اسرّ الطروسي في نفسه « امـا انـا فلن يستطيعوا اخراجي من هذه اللجة اذا غرقت .. سيذكرونني ويبكون ، انا اعرف عواطف البحارة ، ولكـن غرق واحد افضل مـن غرق الكـل » .

انتشله اسماعيل من افكاره وهو يقول :

ــ الا تقبل رجائي ؟

تفرس فيه وابتسم : « هذه قبلة لك يا اسماعيل ، اما الرجاء فلا ، لا تلح »

سألـه :

ــ وبماذا توصينا اذن ؟ ومن يتسلم الدفة ؟

ــ رجب ...

قالها فورا كأنه فكر فيهـا ايضا ورتب الامر ، ثم صاح به :« تعال يا رجب تسلم الدفة » وخفق على كتفه مداعبا ومشجعا وقال « اذهب مع سابلة الموج حتى تنتهي اـدورة ويستقيم لك خط السير ، وبعد ذلك في حفظ الله الـى الشاطيء » .

تسلم رجب الدفة ، ووقف الطروسي على الحافـة ، وسكت احمد فلم يقل شيئا . ما اعترض ولا وافق ولا تدخل في المناقشة . كان الطروسي يعرف أن تسليم الدفة الـى رجب سيصدم الاخرين ، لكن رجب ، رغم ذلك ، اولى بالمهمة، باعتباره بحارا قديما محترفا ، وستساعده سنّه على ضمان احترام البحارة لـه وانصياعهم الى تعليماته اذا ما واجهتهم مصاعب في الطريق . انهم ، الاربعة ، احباء الـى نفسه ، اثيرون لديه . اسماعيل ورجب ورمضان واحمد، هؤلاءالذين نزلوا معه البحر الليلة ، وكانوا رفاقه في المعركة ، وعملـوا عملا جيدا ، الا انـه يعرف أن رجب اكثرهم كفاءة وان يكن اضعفهم بنيـة .

اكتملت دورة الزورق . وفيما كان البحارة ساهميـن

يلفهم الخشوع لجلال الموقف، تعالت المياه كأن حجرا ضخما القي فيها ، ولم يسمعوا الا كلمة واحدة « انتبه يا رجب » وغاص الطروسي في اليم ، ثم ظهر رأسه اولا ، فنفضه حتى ابعد الشعر عن عينيه ، ثم ظهرت يداه ، واشراب بجسمهمع طلعة الموج ، ومضى باتجاه مؤخرة الشختورة .

ان تأثير المواقف العنيفة ، العصيبة ، يجمع القلـوب ويشدها ، ويجعل النظرات تنطق بما تعجز عنه الشفاه ،وقد اقترب البحارة بعضهم من بعض ، ونظروا صوبالطروسي، وراوه يصارع الموج ، فانعقدت السنتهم ، وتنهنهت غوارب الشجن في قراراتهم ، وود كل منهم ان يقول كلمة يعبر بهـا عن مشاعره، لكنهم سكتوا كلهم ، كأنما اتفقوا على ان ليس من كلمة تعبر عن اعجابهم بالرجولة الكبيرة التي تبدت لاعينهم ، فامسكوا بصعوبة كـي لا يضعفـوا ويقولوا مـا لا يتناسب مع الموقف الذي يتطلب شجاعة تعوضهم عن الشجاعة التي كانت تملأ الزورق والطروسي يقف على دفته . اخـذوا يمضون ، والطروسي يمضي ، كل منهمـا في اتجاه ، وربما الى غير لقاء .. الى غير لقاء .

وتقدم احمد من حافة الزورق تاركا الطوافات تسقط من يديه ، وصعد الى قرب رجب ، وغار شيء ما بسرعة في البحر .. حجر اخر ضخم سقط فارتفع الماء الى اعلى ، ثم تساقط رذاذه كمياه نافورة ، وانجلى عن راس احمدوساعديه وهو يلوح لهم بكفه مودعا..متجها الى حيث مضى الطروسي، بغيـر سؤال او جواب .

ــ لا يا احمد ، لا ، ارجعالى الزورق ، ارجع ،تعال ..

انطلقت صيحات رجب وجلة آمرة ، ثم انقلبت الى نـوع من عواء يائس ، وبحّت فاستحالت رجاء وتوسلا ،وانقطعتحين انطبق فكاه على خيبة وغيظ واشفاق . لم يبق له الا خشبة الدفة يضغط عليها ، والا جذور اسنان يصر بها ، وصوتـان

متلجلجان من حوله لا يفهم ما يقولان ، وابعاد تشرئب على اديمها وتحصب وتجمجم خيول هوج من الريح الصرصر .

اصبحوا ثلاثة في الزورق . رجب واسماعيل ورمضان .. ثلاثة معذبين ينيخ عليهم التعب والجزع والانكسار . لقد تحدى رجولتهم فتى كان بالامس هزانهم فأصبح اليـــوم اجراهم . لقد خدعهم عن فعلته ، واستهان بالخطر فلم يسألهم الراي في امره ولا النصح فيما هو مقبل عليه ، افيظن انـه مقدام اكثر منهم اذ فعل ما فعل ؟ تيمت ، لتبتلعه اللجـة ، لتمزقه الوحوش جزاء هذا التحدي .وهذه الرعونة .

تفرسوا فيه وهم يبتعدون ، وتلفتوا الى مكانه الفارغ بينهم فوجدوه اكبر مما كانوا يتصورون ... كان شيئا ذا اثر في نفوسهم من حيث لا يشعرون ، كان فيه من الطروسي قبس يستدفئونه في جليد خيبتهم ، والتقت نظراتهم فخجل كل منهم من سوء ما فكر، واطرقوا واجمين ، فلما رفعـــوا رؤوسهم باتجاه الفتى السابح بين الامواج لاح الصفـــح والاستغفار في عيونهم ، وبان الاسى في وجوههم ، واذعنوا للواقع، فماعادوا الى التذمر والشكاة. لقد فهموا انهم ما زالوا في اللجّة ، وانهم بحاجة الى الحب والتضحية والاتحـاد ، واذعنوا لهذه الضرورة وارتضوها مرغمين ، فلكل منهم عمله، ولكل منهم افكاره وتعبه واساه ، وهكذا مضى بهم الزورق ابعد فابعد ، مخلفا وراءه الطروسي واحمد ، وكلما امعن في البعد ظهر الراسان في فجوات الموج اصفر ، حتى غدوا نقطتين سوداوين ، ثم غابا رويدا رويدا عن الانظار .

١٥

كانت الدفة في شختورة الرحموني غير مطواعة لعبث العاصفة ، انما لم تكن تستقر في اي اتجاه . وكان الصاري مائلا ، وبعض الخام سليما ، الا انه انحل وتهاوى مع الحبال، وكانت المياه تغمر بعض جوانب السطح فتغسله وتعود الـى البحر ، وثمة طاقية بحار صوفية مبتلة ، وفردة حذاء باقية لم يجرفها الماء ، وقطع متناثرة من ادوات الصيد حـــول المرساة ، والامواج تتكالب على الشختورة فتنشب انيابهـا واظافرها فيها ، بيد انها ، في كل مرة تنوي الاجهاز عليها ، ترتد عاجزة عنها ، ويظل الهيكل الخشبي الضخم عصيا ،ولكن مترنحا من قوة الضربات،والزبد يرغي ويخر عائدا الى البحر.

جاء الطروسي الشختورة من وراء .. كان يجاهد كي يمتنع على الموج الذي يهم به ليقذفه عليها ، وقد سبح مرات كثيرة الى وراء مرتدا بضعـة امتار كي لا يصبح تحتها ، وكلمـا حاول ان يثب الى مؤخرتها ،ارتفعت المؤخرة وبقي هو في القاع، يرى الى بطن الشختورة ويحسب انها اصبحت فوقه، فيضع يديه او رجليه عليها ، ويدفع بجسمه الى وراء كي يتقي الارتطام بالهيكل الخشبي حين يصطفق المـوج عليـه هائجا مزمجرا .

وعندما اصاب حد الشختورة كتفه ، احس سكينا او ساطور لحام قد هوى عليها ليقطعها ، وعاجلته موجة فجرفته الى مؤخرة الشختورة ، لكنه كان قريبا جدا فلم يصب الا بألم خفيف في الظهر . ظلت ارادته قوية وجأشه رابطا . لم

يعد يفكر بشيء، في البحر ولد فأية غرابة ان يموت فيـه ؟ ثم هو في قلب الخطر ولم يبق الا الكفاح حتى النصر او الموت .وحتى لو تلفت الى وراء طلبا للنجاة فانه غير مدركها بأية حال . لقد « احرق السفن » وراءه متعمدا ليقطع كل طريق على وساوس الضعف التي قد تنتابه وتلح عليه . كان بامكانه ان يبقي الزورق معه ، لكنه ، في هذه الحالة ، سينظر بعين الى امام وعين الى وراء، وسيظل نهبا للقلق، اما الآن فقد تخلص من التردد، وانتفت لديه فكرة التراجع ، وهو ، بعد، غير آسف طالما اختار هذا المصير بنفسه .

قاوم بضراوة حتى لا يجرفه الموج عن مؤخرة الشختورة الى وسطها ، ورغم ذلك جرفه . وكان هذا من حظه . مالت حافتها الى جهته فابتعد قليلا حتى استقامت ، فلما مرت الموجة هوت الشختورة على جنبها ، فكانت تلك فرصته التي اغتنمها والقى بنفسه على الحافة وتمسك بها بانتظار الارتفاع، الا انه لم يفلح في تسلقها الى السطح ، وعليه ان يهوي مرة اخرى معها. تمسك جيدا ، بجماع قوته وارادته ، واغمض عينيه وهوى ،ثم ارتفع جانب الشختورة فارتفع معه ، والتصق ببطنه على الخشب وارسل احدى يديه تحفر بالاظافر ممسكا على الظهر ، وصعد بعد مجاهدة ، وقبض على وتد وانبطح على الارضية الخشبية .

ظل كذلك برهة ريثما زايلته الدوخة التي كانت قمينة بأن تجعله يفقد توازنه لو نهض مباشرة . انه لا يدوخ ،ولكن التعب هده . لم يعد شابا كما كان ،وهو يعرف كيف يقدر قواه ويحافظ عليها او يستريح ليجددها . الشيء الوحيد الذي آلمه هو الشعور بأنه سيتقيأ لكثرة ما انخضت امعاؤه ، وكانت حرقة الملح تخرش الحلق وقصبة المري ، وكان عليه، فوق هذا ، ان يلتصق بجسمه حيث هو ، ضاغطا بفعل ارادي عضلات بطنه على الخشب ، متشبثا بهذا الوضع لئلا يجرفه

الموج ويعيده الى البحر . حتى اذا نهض اخيرا ، مثبتا قدميه في الارض ، متمسكا بالحبال والعوارض ، كانت عيناه تبحثان عن البحارة والدفة ، وكان ، بشعره المشعث ، وسرواله الملتصق على فخذيه ، يشبه بحارا غريقا انقذته سفينة عابرة.

بقي دقائق يحدق فيما حوله ، ويستند على ما يراه قائما امامه ، وينقل خطاه بتمهل وحذر ، كانسان يفتش بين الانقاض عن ضحايا اعزاء عليه .

وثمة : عند الدفة ، كان انسان يجلس عاقدا ساقيه حول سكانها بشكل لا يدع مجالا للشك في انه مخبول يقبض على شيء جن به . فلما رآه الطروسي لم يحسبه بشرا حيا ، وتقدم بسرعة وانحنى فوقه ، ثم اطلق بوجل هذه الصرخة : سليم !

وحدقت به عينان جامدتان ، وتحرك فم ازرق الشفتين فما خرجت منه الا غمغمة خافتة . لقد احتبس الصوت في فم كف منذ وقت طويل عن التوسل والدعاء ، والتوى الراس على الصدر ، كأنه كان ينتظر هذه اللحظة ليلتوي ، وظلت الساقان المنفرجتان متمددتين متخشبتين، واليدان يابستين، متلفتين حول الدفة في تشنج عصبي .

مد الطروسي يده الى الراس المتدلي فرفعه . كانت العينان قد انطبق جفناهما في همود كأن دقات القلب قد توقفت وحم القضاء ، فوضع كفه على الصدر ،وجس النبض وتأكد ان حركة بطيئة من التنفس ما زالت تتردد .

لم يعد يهمه من امر الشختورة الا مقدار ما هي صالحة لان تكون وسيلة لانقاذ انسان . الرحموني ما يزال حيا ، ان به روحا ، فما العمل لانقاذه ؟ يجب نقله الى « القمرة » فقد تكون فيها ثياب اوشباك لم تبللها الامواج . ولكن الدفة ؟

من يمسك الدفة ؟ وكمذنب اكتشف ذنبه وندم عليه ،ضرب على راسه لانه اصر على ذهاب الزورق . لقد اراد الحياة لمن فيه ، وها هو يفقد حياة اخرى ، يفقد حياة الرحموني الذي تكبد كل هذه الاهوال لانقاذه . وانه ليود من اعماق قلبه لو استطاع انقاذه باي ثمن . لو منحه حياته فعاد بها الى امرأته واولاده ، لو افتداه اذا لم يكن بد من الفدية .

تطلع حواليه . انــه يتأرجح على ظهر شختورة تتأرجح هي الاخرى على ظهر الموج ، والبحر الرحيــب ، الغاضب ، ليس على سطحه اثر لمركب او شراع او سفينــة ، والامواج تجأر قادمة نحوه من كل فج ، والريح تصفر والغيوم تتسارع، ورعد يقصف في مكان ما من السماء ، منذرا باستئناف المطر .

جثا على ركبتيه ، ولف الرحموني باحدى ذراعيه ، واستخلص الدفة بالاخرى ، واستلقى الجسد المتلاشي على صدره ، فماذا بعد ؟

الدقائق تمضي مثقلة بحيرة معذبة، والعاصفة ما برحت شديدة ، وليس الاه والرحموني والشختورة التائهة فيعرض البحر ، وهدير يعزف لحنا وحشيا كالقهقهة الداوية في قفر من الارض،ولا مناص من الاقدام والتخلص من حالة الارتباك، لا بد من القيام بأيما عمل ينقذ حياة الانسان الــذي بيــن يديــه .

حدج السماء بنظرة قاسية : لماذا انت قاسية يا سماء؟ واولاد الرحموني على الشاطيء ؟ الاطفال الدارجون على الارض كتلا صغيرة من لحم ودم ، وعيون براقة ، وشعور مذهبة ،الا يشفع بؤسهم وانتظارهم الطويل بأن تمسكي لكي يعود اليهــم والدهم فيمسح على رؤوسهم مرة اخرى ؟!

ولم تمسك السماء .. انها تبدو ، في وقت ما ،حجرا اصم ، او هكذا يخيل الى من يرى اليها والمأساة تطحنه .

لا بد أن يجازف . نهض والرحموني بين ذراعيه،واسند ساقه الى الدفة فثبتها ، وتطلع حواليه : كان منظرهما اشبه بمنظر متشردين طاردتهما العاصفة ، فجرح احدهما واضطر الآخر ان يحمل رفيقه ويمضي ، وكلاهما مبلل ، والمطر ما زال يلاحقهما بغير رحمــة .

قاس ، وهو يباعد بين قدميه ليحفظ توازنه ، المسافة بينه وبين القمرة ، وبعد ان حدد موضع خطواته مشى بحمله متهيبا وئيدا ، ودخل القمرة ووضع الرحموني وغطاه بالخــام المكوم فيها ، وعاد مسرعا الى الدفة فثبت اتجاهها وفكر بما يجب ان يصنــع .

كان ظهر الشختورة يدعو حقا الى الجــزع : الصاري المائل ، والخام الممزق ، والطاقية الصوفية وفردة الحذاء، ومكان الفلوكة الفارغ !! وكان عليه ان يقــوم بعمــل مــا ، بمغامرة جديدة للخلاص من هذا الموقف العصيب الذي هــو نفسه مغامرة فرضها القدر .

اهتزت الدفة بين يديه بصورة غير طبيعية ، فظن انها انكسرت فأصبحت تدور في فراغ ، فلما عادت الى طبيعتها خطر له انها اصطدمت بجسم حيوان من حيوانات البحر .

انحنى ونظر في الماء ، كان ثمة انسان يصارع الموج حول الشختورة ، وكان يروغ ويسبح بقوة ابليس لا يخشى الغرق، وكلما حاول الصعود افتقــد الممسك فهوى في الماء ليعيــد الكرة من جديــد .

ناداه بأعلى صوته فلم يجب ، وكرر النداء فلم يأته جواب، فرجح ان صوته ضاع في الهدير المتصل لطاحونة الريح، وعندئذ جاء بحبل ودلاه في الماء ، وانصرف الى انقاذ البحار وارشاده الى مــا يجب ان يفعل .

ولما ابتعدت الشختورة قليلا ، استطاع البحار انيرفع

راسه وينظر الى سطحها ، وعرفه الطروسي فصاح مدهوشا:
احمـد !

تنازعه عاملان من فرح وغضب ، فهتف بغير وعـي : « يا سماء ! » وعاد يلوح بيديه ، ويشير اليه ان يتعلـق بالحبل ، فانصاع احمد واتجه الى الشختورة من جديد ،بينما وقف الطروسي يراقبه مفتونا بجراته .

كان احمد أقوى على البحر ، واصلب فـي ضربـة الساعدين ، لكنه ، لقلة خبرته ، اختصر الطريق فجاءالشختورة من امام فكان من العسير عليه ان يقترب منها ، ولم ينقذه من الموت الا فتوته ومرونة حركاته في الابتعاد والفطس وتفـادي الارتطام . ولقد خطر له ان يصرخ ، بل هو صرخ مرة اومرتين « يا طروسي ! يا ريس ! » فلم تجبه غير زمجـرة الموج ، واحس بالخطر ففكر بالعودة الى الزورق ، ولما استدار وجده قد ذهب ، فلم يبق له من سبيل سوى الصعـود الى ظهـر الشختورة بأية وسيلة .

تعلق بالحبل الذي دلاه له الطروسي وصعد ، فما كادا يلتقيان حتى تعانقا على فرحتين : اجتماعهما سالمين ،ووجود الرحموني حيا في القمرة .

لم يسأله كيف جئت ولماذا ؟ لقد سبر غوره من اول الليل انما لم يتصور انه يفعل ما فعل ، فلما وصل اليذراعيه ضمه ملهوفا ، وهزه من كتفيه ، وضمه ثانية ، وشمله بنظرة شكر وود ، مشفوعة بابتسامة تقدير من بحار كهل الى بحار فتى ، وانهى اليه البشرى ، ودفعه الى العمل مـن فوره ، طالبا منه ان يمسك الدفة ، وركض هو الى القمرة فوضـع اذنه على صدر الرحموني : الانفاس ما زالت تتردد ، لكـن الرجل في غيبوبة تامة .

فكر في ان يرفعه من وسطه لافراغ ما في جوفه من

ماء البحر ، غير ان الرحموني في حالة دنق وليس في حالة غرق ، ويحتاج الى الدفـء اكثر منه الى افراغ الماء .

فتش في القمرة عن ثياب فما وجد ، فقرر ان ينزععنه ثيابه المبتلة اولا ، ثم غطاه بغطاء وجده بقربه ، واسرع الـى السطح فطاف بين الصواري والاوتاد يتفقدها ويصلحهـا ويشد الحبال وينشر ما كان مطويا من الخام ، وحين فرغ من ذلك اصدر هذا الامر :

ـ الى اليمين يا احمد ، هورسا .

وامتثل احمد فاقلعت الشختورة .. تحركت ببطء اولا ثم اضطربت ومضت بوهن كالناقه من مرض ، حتـى اذا تملكت اتجاهها وانتشر جناح خامي صغير من جهـة البر ، تخلصت من تأرجحها ومضت مع اندفاع الريح ، واخـذ الطروسي الدفة وهو يوجه احمد الى العمل قائلا بفرحطفولي:

ـ نجونا يا احمد باذن الله ، اما قلت لكم انا افهم بلغة الشخاتير ؟ شد الحبال شد ، آه لو كان الصاري سليمـا ، ومع ذلك لا بأس ، ما بقي منه يكفي .

عاد الزورق الى الميناء بعد صعوبات كثيرة اعترضتهفي الطريق ، كان النهار قد انتصف او كاد ، وقد ضخم البحارة الحادث في محاولة لاشعورية لتبرير تركهـم الطروسي وحده فـي البحر .

وكان منظرهم يساعد على تصديقاقوالهم ،فما اقتربوا من الميناء حتى خرج زورق لاستقبالهم ، واتصـل رئيس الميناء بالمستشفى الحكومي فارسل سيارة الاسعاف فورا .

وقف ابو رشيد موقف المتربص من الموضوع كله : تملكه الاعجاب بالطروسي فاعترف بانه « بحار عن حق » وود لـو أستبق الحوادث فعرف مصيره ، وكيف ينبغي له انيتصرف في حالة غرقه او نجاته ، فكر : « اذا لـم يعد فقد انتهـى

امره ، أما اذا عاد فستزداد ثقة البحارة به والتفافهم حوله فماذا افعل عندئذ ؟ انتقص من فعلته ، ام امتدحها ؟ اغتنم الفرصة فأبدي له الود ، ام ابقى على موقفي منه ؟

آثر ، كعادته ، تغليب العقل على العاطفة . وقرر ان تكون تصرفاته منسجمة مع الجو العام ، وبذلك يقطع الطريق على كل قالة سوء ، وقد يربح ثناء البحارة ويحد من اندفاع الطروسي ضده في المستقبل .

« لقد اخطأت منذ البدء اذ افسحت المجال لنديم مظهر ان يتخذ منه صديقا على حسابي . الطروسي لا يفكر بالعمل في المواعين ولا يسعى اليها . انه اشبه بهواة الخيل ، يهوون ركوبها ولا يطيقون الاتجار بها » .

على انه ما عتم ان فكر على نحو آخر : « ربما وسوس له نديم فاقنعه بالعمل في المواعين .. وهذه المغامرة ، اذا عاد منها ظافرا ، ستزيد جراته وتحديه ، وقد تكون بابا يدخل منه الى الميناء فلا يخرج قط ، وفي حال كهذه اكون قدساهمت في خلقه وقلعت عيني باصبعي اذا امتدحته ، واذا ازدريته زدت في حقده ، وساعدت نديما على استغلاله ودفعه الى مناواتي .. احسن ما يمكن فعله الان هو التريث حتى يتضح الامر ، ومن اجل ذلك سأبقى في الميناء ، وسأدع ابا امين يتصرف كرئيس ميناء حقيقي » .

لاذ بركنه من المقهى ، يشرب ناركيلته ويستمع اكثر مما يتكلم ، وينظر ، عبر الزجاج ، الى كل حركة في الخارج .

واطلقت سيارة الاسعاف التي طلبها رئيس الميناء زعيقا ناعبا وهي قادمة ، فهرع البحارة والصيادون من المقاهي الى الرصيف الداخلي ظنا منهم ان الغرقى لفظهم البحر ، وبكت نساء المفقودين ولطمن خدودهن ، وتجمهر الذين كانوا في الميناء منذ الصباح ، واسرع رئيس الميناء ووقف على رأس المتجمهرين ..

لقد اكتشف انه محط الانظار اليوم ، وشعر بأن له اهمية غير عادية ، فلم يذهب الى البيت لتناول الغداء . ولو حلل مشاعره لما عرف اهو فرح أم ترح . كان يدخل ويخرج فاذا وجد احدا من ذوي المفقودين امام المكتب التفت الى البحارة وصاح :

ــ يوسف ! فرحات .

ــ نعم ، امر .

ــ لا شيء ، خليكم في الميناء حتى نرى ما يحدث .. انا على اتصال دائم بجميع الموانيء .

يقولها ويضغط على هاتين الكلمتين « جميع الموانيء » وينظر الى الهاتف الساكت امامه مغيظا حنقا « لماذا لا ترن يا عرص اليوم ؟ » انه يجد في رنينه لذة مضاعفة بالنسبة للسابق ، فيرفع يده في وجوه الحاضرين : « اسكتوا » ، ويأخذ السماعة ويتكلم ، معطيا للامر اهمية خاصة . وبرغم ان مخابراته كانت مع اصحاب مراكب يسألون عن الجو في الميناء ، او اصدقاء او دائنين ، فانه كان يرسل ، عقب كل مخابرة ، هذه العبارة « لا استطيع ان اقول شيئا .. التحريات جارية » .

ومنذ ان انبىء ان الزورق يعود ، شعر كأن جبلا من المسؤولية ينحط عن كتفيه ، لم يهتم لمعرفة من فيه وما وراءه بل اهتم لعودته ذاتها . قال في نفسه « ليسلم الزورق وكل شيء يهون .. النساء تحبل وتلد ، والمكتوب ما منه مهروب ، فلماذا الحزن ؟ الرجال لا يحزنون » !

وطلب ، منذ ما تناهى اليه صوت سيارة الاسعاف ، ابعاد الناس عن الرصيف ، وبخاصة النساء ، فاحدثت تصرفاته هذه نوعا من الخوف ، واعولت امراة على زوجها المفقود وكان في حضنها رضيع وحولها ثلاثة اطفال فشاركوها

البكاء ، وتلبست الوجوه تكشيرة ذعر لما يحدث ، وازدادت المخاوف بازدياد زعيق سيارة الاسعاف التي اقتحمت الميناء وضغط سائقهـا الكابح بشدة فحزت الدواليب وصرت صريرا اجفل النسوة ، وتكاثر المتدافعون على الميناء وكل منهم يريد ان يسبق الآخر ليرى ما يجري وما يحمل الزورق من اخبار.

وقذف بحار من الزورق بحبل ثخين على الرصيف فتلقاه البحارة وهموا بربطه ، لكن رئيس الميناء طلب تغيير المربط ، وكان هذا اول امر اصدره بعد طول انتظار .

صاح بالبحـارة :

ـ علقوا المدري وشدوا ، ليوا يا شباب ، ليوا .. لا تخافوا ، البحر لا يأكل الرجال !

وجاهد البحارة كثيـرا لـ « تربيص » الزورق علـى الرصيف فما افلحوا . كان الموج يقاومه ويبعده ، واذ ذاك خشي ان يفلت الموقف منه فقال « هدئوا الزورق حتى انزل على الاقل ، اي العمى ، رئيس الميناء ، في بلاد الدنيـا كلها ، ينزل اول الناس » .

واذ راى ابا رشيد قبالته تنحى وقال :

ـ تفضل ابو رشيد ، لا احد يخطو قبلك والله .

كان البحارة قد قفزوا الى ظهر الزورق ، وتجمع خمسة او ستة منهم حول البحارة العائدين . ولم يكن الطروسي ولا احمد في الزورق فبادر رئيس الميناء الى اصدار تعليماته قائلا :« ولا كلمة هه،لا نريد احداث ضجة ! الاسعاف موجود ورجال التحقيق يضبطون الافادات في المستشفى » .

ولم يستطع بحار شاب ان يضبط عواطفه فقال :

ـ يا خسارتنا بالطروسي ..

فانتهره رئيس الميناء :

ـ قلنا بلا كلام ، لا تكن مثل النسوان ..

فمد اسماعيـل راسه وقال :

ـ وحدوا الله يا جماعة ! الطروسي في شختـورة الرحموني،واحمد نط من الزورق ولحقه ، لم يمت احد منا.

ـ ومن جماعة الرحموني ؟!

ـ الله اعلم ، راينا مجذافين في البحر .

ـ وكيف تركتم الطروسي ؟

فقاطع رئيس الميناء السائل بنرفزة :

ـ السين والجيم في المستشفى ، اتركونا نشتغل الان، ساعدوا البحارة على الوصول الى الرصيف .. يا الله يـا يا جماعة « قالوا للديك صيح قال كل شي في وقته مليح ».. اطلع يا اسماعيل ، وانت يا رجب ، انحملك ام تمشي ؟وانت يا رمضان ؟ شدوا حيلكم ، علم الله وقت كنت ارجع من النوبة ما كنت اخرج الى البر قبل ان ارمي الياطر واربط المركب.. البارحة لم يرقد لي جفن ، وبمجرد ما سمعت ان الزورق عائد طلبت الاسعاف ، وهذه رجلي ورجلكم الى المستشفى ،توكاوا على الباري ، قولوا يا رب ، قولوا يا الله ، ناولوني المدري .

وصعد البحارة الثلاثة الى البر .. كانوا في حالـة اعياء ، وقد استطاع اسماعيل وحده السير بمفرده ، وقبل ان تنطلق بهم السيارة ركضت امراة الرحموني تتعثر بملاءتها لتسأل عن زوجها ، فقال لها رئيس الميناء :

ـ زوجك بخير يا اختي، لا تخافي، راح اوصلهم واعود..

فاجابته باكيـة :

ـ اذا كان بخير فأين هو ؟ اين الشختورة والبحارة ؟

ووصل في هذه اللحظة ابو محمد وخليل العريان وقدري الجانودي، فلما لم يأخذوا خبرا عن الطروسي اقترح ابـو محمد ان يلحقوا بالسيارة الى المستشفى ، فوافق خليل راسا، وقال الجانودي : «لا تستعجلوا .. ريس الميناء راح يخبرنا

بعد عودته » لكنهما لم ينتظرا ، ذهبا على اقدامهما ، وركب بعض الشباب والبحارة الدراجات واسرعوا الى المستشفى، وتجمعت النساء يتشاورن ويبكين ، وانطلقت ثلاث او اربع منهن في درب المستشفى ايضا ، ووصلت الاخبار الى المدينة بأن الطروسي فقد ، فجاء نديم مظهر ورجال من الشيخ ضاهر ،وبلغ الخبر ام حسن في حي السجن فانقلب بيتها الى مأتم ، وقالت زكية « والله نخزني قلبي » ، وخيم حزن بالغ على الوجوه ، وازدحمت الميناء بالناس وانصرف الجميع الى التقدير والاستنتاج حتى عاد رئيس الميناء في عربة حنطور.

ترجل ودخل مكتبه فورا ، وهتف الى المستشفى راجيا الاتصال به عند وصول هيئة التحقيق . كانت هيئته في منتهى الاحتقان ، وقد زاد شكله الطويل وطلعته الخمرية في اضفاء مظاهر الهيبة على مركزه .

وكان جوابه الاول عن استفسارات الناس هو التالي :
« العمر بيد الله ،والمسألة فيها ضحايا لم نعرف عددهم بعد »
سأله نديم بالغ التأثر :
ــ وماذا قال البحارة عن الطروسي ؟

فهز براسه معطيا هذا التعبير « تيرحمه الله ! » ثم اطرق معتبرا السكوت اولى ، لان المقام لا يبيح كثرة الكلام.

في غمرة هذا التوتر النفسي، ومن قلب الضجة المتصاعدة من داخل المكتب وخارجه ، استطاع احد حراس الميناء ايصال خبر صفير مؤداه ان شختورة بنصف خام تبدو في البحر.

لم يصدر عن الحاضرين رد فعل سريع ، والشخص الوحيد الذي عرف قيمة النبأ هو رئيس الميناء . قال :
ــ هاتوا الناظور !

اخذه واسرع باتجاه المنارة عند رأس الميناء ، وتبعه نديم مظهر وقدري الجانودي وبعض البحارة ممن لهم وجاهة ،

ولحقهم الفتيان للاستطلاع ، وصعدوا الى المنارة فركز الناظور على عينيه ، متخذا سيماء قائد على ظهر طراد .

كانت الشختورة تميل على جانبها الايمن مع الريح،ولم يكن الصاري في مكانه ، او انه لم يره للوهلة الاولى ، ففرك عينيه ، واعاد احكام الناظور ، وحدق قليلا ، ومع ذلك لم يتوصل الى معرفة الشختورة القادمة .

قال له الجانودي :
ــ هاته عنك ابو امين ، عيوني حدة اكثر منك .

سحب الناظور من يده سحبا ، وركزه على ارنبة انفه وضبط قياس الرؤية ، وهتف منذ تراءت له الشختورة :
ــ هذه شختورة الرحموني يا شباب !

ما صاح بذلك صياحا . ومع ذلك سقط الخبر على المنتظرين في الميناء سقوطا داويا ، انداحت دوائر واحدة اثر اخرى حتى بلغت اقصى المكان ، فتراكض الجميع نحو السور الشمالي وتسلقوا حجارته ، ونزل رئيس الميناء من المنارة وقد اعتزم امرا .

وفي نفس اللحظة غادر ابو رشيد ركنه المعهود في المقهى وخف الى الرصيف :« لقد عاد الطروسي ومعه شختورة الرحموني ، فمن كان يصدق انه سيعود ؟» صمم قائلا « ساقبله » ! واكد « نعم سأقبله ، هذا بحار يجب ان تفتخر به الميناء ، وحرام ان يظل في المقهى لولا انه عنيد يابس الرأس ! » واذ بلغ الرصيف ورأى نديم مظهر يلوح بيده نحو الشختورة ، اعتكر مزاجه ، وزايلته الحماسة فأسر في نفسه « ماذا يفعل نديم مظهر هنا ؟ وما شأنه في هذا الذي يجري ؟ وما شأن هؤلاء المقبلين المدبرين في هرج ومرج كانني لست بينهم ؟ قفوا ، انا الذي يجب ان يتولى الامر .. انا من سينزل ويستقبل الشختورة ، وكفى رئيس الميناء ما انتفش مثل ديك رومي اليوم » .

وكان رئيس الميناء يصيح فيمن حوله :

ــ الزورق يا شباب ، اذا لم تنزلوا معي نزلت وحدي .

قالوا :

ــ كلنا ننزل يا ابا امين .

فأجابهم لاعنا حشريتهم :

ــ كلكم ؟ لا ، نحن في مهمة والا في عرس ؟ العمى ،هذا بحر ، بحر ما مسبح .

وسمع ، في هذه اللحظة ، صوت ابي رشيد ، فاستدار اليه هاتفا :

ــ الطروسي انقذ شختورة الرحموني يا ابا رشيد !

قال ابو رشيد :

ــ المنقذ هو الله ، همتكم الان حتى نوصلها الى الرصيف، هاتوا الزورق بسرعة ، وانت يا ابا امين ابلغ المستشفى لارسال الاسعاف .

انصاع ابو امين للطلب بخفة ، كان يروم اتمام المخابرة قبل تحرك الزورق ،لكن ابا رشيد لم ينتظره ، فما ان اصبح على ظهره حتى تحرك به نحو الشختورة واقفا على مقدمته والريح تنفخ الية شرواله ، وراح ابو رشيد يعلو ويهبط مع الموج ، وفي ذاته تفور حماسة ولدتها حرارة الحركة ومغالبة النوء والشعور بأنه يمارس زعامته في الميناء .

وكان الطروسي يقف وراء الدفة على ظهر الشختورة التي شقت طريقها وسط النوء متجها بها نحو مدخل الميناء سالكا جانب البر ، منحدرا في دورة مع الريح ليستطيع الدخول بغير عون من الزورق . لقد فوجيء بالحشد في الميناء ، واتته الاصوات بعيدة ، غريبة ، كأنه في حلم ،وتذكر ما قاسى فأطبق جفنيه وفكر « وصلت اخيرا اذن ! ترى ماذا قال البحارة ، وهل عرفت ام حسن بالامر » .

اقترب الزورق من الشختورة ودار حولها . كان كل من

فيه يلوح للطروسي بالكوفيات والمناديل مهللا .وصاح بحار في بوق :

ــ ارموا لنا الحبل لنقطر الشختورة ..

وكرر النداء دون جواب .. اكتفى الطروسي باشارة من راسه تدل على انه فهم ما يريدون .

وركض احمد الى جانب الشختورة وقال « الرحموني في القمرة بين الموت والحياة ، احضروا الطبيب » .

وللحال افترق الزورق وعاد ، ودخلت الشختورة تترنح كالخارج من حلبة صراع ، واتجهت الى المرسى قرب شركة الكهرباء ، وظل الطروسي صامتا قابضا على الدفة . كان يشعر بأنه موشك على السقوط ، وقد تحامل على نفسه حتى هانت نفسه عليه وهان البحر وفقد القدرة على الكلام ولم يعد يحس ببرد ولا حر ، وبات كل ماحوله غائما مضطربا .

وحين بلغ المرسى ترك الدفة وتداعى ، فاحتضنه احمد، ووثب البحارة الى متن الشختورة . وتقدم ابو رشيد وعانقه قائلا :

ــ مثلك تكون البحارة يا ابا زهدي ، حياك الله (وقبله واخذه بين ذراعيه) .

واكبر الحاضرون هذه البادرة ، وودوا ان يفعلوا شيئا، وحاول ابو رشيد ان يرفعه فما استطاع ، وعندئذ سرت الحمية فيهم وانحنوا لمساعدته صائحين : اتركه لنا ، لعيني الطروسي !

ولم يجب الطروسي بشيء . استسلم للسواعد التي احتضنته ، وكانت نظرته الاخيرة معلقة بباب القمرة ، فلما رأى الطبيب يدخل اليها اغمض عينيه كأن مهمته قد انتهت، وبدأ وهم ينزلونه الى البر فاقد الوعي مرتخي الذراعين كجريح فارق الحياة .

القسم الثالث

١

وعاد الصيف مرة اخرى ..

ربما كان الصيف التاسع او العاشر الـذي يعـــود والطروسي في البطرنة ، وربما كان اجمل تلـك الاصياف او اقبحها ، او شبيها بها كلها ، الا انه كان ، بالنسبة اليه ، اسعدها اطلاقا ، وابهجها اطلاقا ايضا .

لقد كان صيفه بلا جدال : صيف مجده البحري ، وحلمه الذهبي ، و « مجدليته » التي وراء الافق .

وربما شاءت الاماني ان تتحقق لتصنع بهجة لنفس تألمت كثيرا . وقد تكون في مشيئتهــا على موعد في الوفاء ، كما كان طالبها على موعد في التضحية .

وكانت تضحية الطروسي ، في الشتاء من هذا العام ، حادثا ذا اثر في النفوس . صحيح انه لم يتعمـد الاشياء لذاتها ، ولم يصارع العاصفة ليحظى بالتقدير ، غير ان الذي يزرع القمح لا يحصد الزؤان .

لقد ظل ، بعد انقاذه الشختورة ، اسبوعا في المستشفى ، وظل الرحموني شهرا ، ثم شفي كلاهما ، واستأنفت الحياة سيرتها ، واستأنفا ، هما ايضا ، سيرتهما : عاد الاول الـى المقهى ، وعاد الثاني الى البحر .

وكافأت المدينة الصغيرة الطروسي مكافأة جميلة: جمع الرحموني أولاده وقال لهم « هذا عمكم .. هذا الذي انقذني

من الموت » ولم يفهم الاولاد كل دلالة هذه الكلمات ، الا ان الاب ترجم عواطفهم حين عانق الطروسي قائلا « كيف اشكرك يا ابا زهدي ، كيف اكافئك يا خي ؟» .

وجاءه البحارة يحملون مركبا صغيرا صنع في ارواد ، وقالوا كلمات بسيطة ، مؤثرة . وجاء، كذلك ،نديم مظهر وابو رشيد واسماعيل كوسا والاستاذ كامل وابو حميدو رئيس الميناء ،وناس كثيرون من المدينة .

وقام ابو محمد وخليل العريان واحمد وبعض البحارة الذين نزلوا معه ، مقام اصحاب البيت ، يتلقون تحيات الوافدين ، ويشاركون في الفرحة .

وعرض عليه ، منذ الشهور الاولى ، ان يعمل ريسا في احد المراكب . ثم تتابعت العروض من اللاذقية وارواد وبيروت ، ،ووسّط العارضون رئيس الميناء وقدري الجانودي، ومنهم من فاتح الطروسي مباشرة .

وازداد الاقبال على المقهى ، وازداد كذلك التقدير للطروسي في المدينة ، وطفقت شعبيته تتجلى في كل ناحية من حوله ، وتفرض نفسها حقيقة لا سبيل الى نكرانها .

وادرك ابو رشيد ماذا يعني كل هذا ، ورصد كل حركة بمنتهى الحذر ، وفكر بما ينبغي له ان يفعل ، وقرر ان يتريث وان يرقب خطوة الطروسي القادمة : ايسافر ام يبقى في الميناء ؟

٢

وجاء الجواب من الميناء نفسها .

ففي ايار من هذا العام انتهت الحرب العالمية الثانية ، وكان انتهاؤها حدثا سعيدا بالنسبة للعالم ، وحدثا اسعد بالنسبة للبحارة .

نشطت الحركة في الميناء كما لم تنشط من قبل،وبدات حبوب الجزيرة تتدفق على اللاذقية ، واشتد الطلب على وسائط النقل ، واستعادت المراكب قيمتها بسبب ضعف مزاحمة البواخر ، واصبح صيد السمك عملا ثانويا بالنسبة للبحارة الحقيقيين .

وأعد الرحموني عدته ، فباع الشختورة واشترى مركبا، واعلن في الميناء ان الطروسي ريس المركب ، وانهما سيتشاركان . .

ووقع النبأ بشكل متباين في النفوس : فهمه الطروسي على حقيقته فقرر ان يشكر الرحموني ويعتذر . ان عودته الى البحر هي الامنية ، الا انها امنية بائسة حين تكون ثمنا لمعروف ، وسواء اعاد ام ظل على هذه الصخور ، فلن يقبل ان يستغل يدا له سبقت .

وفهمه نديم مظهر على انه « لعبة بارعة » قام بها ابو رشيد بالاتفاق مع الرحموني لابعاد الطروسي عن الميناء .

وفهمه ابو رشيد على انه ارضاء لكبرياء الطروسي ، فحبذه ، وربما شجع الرحموني عليه .

اما الرحموني فكان مخلصا في عرضه : فكر ان مركبا يكون الطروسي ريسه لا بد ان تكون له الافضلية في الشحن، وان الطروسي اذا تولى المركب تولاه بنجاح ، بينما هو يبقى على البر ، يؤمن الحمولة ، ويدبر الامور من الناحية العملية التي مارسها واتقنها . ولكونه يعرف موقف الطروسي من هذا الموضوع ، وايثاره الملكية ولو كانت صغيرة ، وحرصه على ان يكون صاحب مركب وندا للآخرين ، فقد رغب ، صادقا ، ان يساعده في تحقيق امنيته هذه ، وصمم ان يعرض الشراكة عليه ، واثقا من انه لا يرفض ذلك ، وان الناحية المادية يمكن ان تسوى بالتعاون والاخلاص .

ولما اجتمع به توصل الى اقناعه بعد جهد ، وافهمه انه يريده شريكا حقيقيا ، وان هذه الشراكة في مصلحتهما معا، وسأله كم يستطيع ان يدبر من مال ، ففكر الطروسي واجاب: « ليس لدي سوى المقهى ، وقيمته جيدة الآن ، وسأستدين فوقه ، وادفع البقية بالتدريج ، واسدد ما تبقى من ايراد المركب » وقد جرى الاتفاق بينهما ، مبدئيا ، على هذا الاساس ، ولم يبق الا القيام بالخطوات العملية ، والشروع بالمعاملة الرسمية ..

وقام الطروسي يزف البشرى الى أم حسن . فلما ابلغها انه سيستدين نهضت الى صندوقها واخرجت ما ادخرته وقالت :« خذ هذا المبلغ فادفعه من حصتك ولا تستدن ، وخذ هذه (وجاءته بحليها) فبعها او ارهنها وادفع ايضا » واقسمت عليه ثلاثا ان يأخذها .

وبلغ نديم مظهر ان الطروسي وافق على شراكة الرحموني فاعتزم ان يثنيه. جاءه صباحا فجلسا تحت الخيمة يشربان القهوة ويتحدثان في الموضوع . قال نديم بصراحة يعرف ان الطروسي يفضلها :« سمعت انك وافقت على

مشاركة الرحموني، فهل هذا صحيح؟» وقص عليه الطروسي تفصيلات ما جرى وطلب رايه .

ومع رغبة نديم الا يسافر الطروسي، وحرصه على ان يبقى في الميناء لمنافسة ابي رشيد ، لم يصدر حكما سريعا مكشوفا يصدم صديقه ويؤذي مشاعره .

قال له: « انا احترم قرارك في استئناف السفر، ولكنني اسألك : ماذا تبتغي من ورائه ؟ ما هي غايتك وماذا تريد ؟ ستقول : اريد العودة الى البحر ، اريد ان اعمل في مهنتي فاصبح صاحب مركب من جديد ، وهذا صحيح ، ولكنه لا يمنع ان تكون هنا اولا ، في الميناء قبل البحر ، وان تؤسس مستقبلك على قاعدة اكثر صلابة واوفر ضمانة . انا صديقك ، واحبك ، واريد خيرك ، ومن اجل ذلك اعرض عليك ان تشاركني انا ، انا احق بشراكتك ، واريدك ان تصبح صاحب مواعين ، ولك مني الراسمال الذي تقرره ، والمساندة التي تتطلبها ، ولك بعد هذا حرية الاختيار ، ففكر ،وابلغني رايك ساعة تشاء » .

وفكر الطروسي يوما ويوما وثالثا . ان مسألة كهذه لم تكن تحتاج ، فيما سبق من ايامه ، الى اكثر من جواب فوري: نعم او لا ، اما الآن فانه يضطرب ويتردد في البت كما لم يحدث معه من قبل ، ويسوف في اتخاذ القرار ، لا انكفاء في ارادة السفر ، بل حرصا على تحقيق رغبة يلح عليها نديم ، ويسوقها بعرض اختياري منمق بكلام حلو يجيده احسن الاجادة .

ونديم نفسه كان على ادراك ان الطروسي سيتعذب في الوصول الى قرار ، وكان يود ، لولا الضرورة ، ان يجنب صديقه الاحراج ، وان يدعه لهواه . لكن منافسة ابي رشيد مسألة في المكان الاول من الاعتبار ، والطروسي وحده قادر

من الموت » ولم يفهم الاولاد كل دلالة هذه الكلمات ، الا ان الاب ترجم عواطفهم حين عانق الطروسي قائلا « كيف اشكرك يا ابا زهدي ، كيف اكافئك يا خي ؟» .

وجاءه البحارة يحملون مركبا صغيرا صنع في ارواد ، وقالوا كلمات بسيطة ، مؤثرة . وجاء، كذلك ،نديم مظهر وابو رشيد واسماعيل كوسا والاستاذ كامل وابو حميدو رئيس الميناء وناس كثيرون من المدينة .

وقام ابو محمد وخليل العريان واحمد وبعض البحارة الذين نزلوا معه ، مقام اصحاب البيت ، يتلقون تحيات الوافدين ، ويشاركون في الفرحة .

وعرض عليه ، منذ الشهور الاولى ، ان يعمل ريسا في احد المراكب . ثم تتابعت العروض من اللاذقية وارواد وبيروت ، ووسّط العارضون رئيس الميناء وقدري الجانودي، ومنهم من فاتح الطروسي مباشرة .

وازداد الاقبال على المقهى ، وازداد كذلك التقدير للطروسي في المدينة ، وطفقت شعبيته تتجلى في كل ناحية من حوله ، وتفرض نفسها حقيقة لا سبيل الى نكرانها .

وادرك ابو رشيد ماذا يعني كل هذا ، ورصد كل حركة بمنتهى الحذر ، وفكر بما ينبغي له ان يفعل ، وقرر ان يتريث وان يرقب خطوة الطروسي القادمة : ايسافر ام يبقى في الميناء ؟

٢

وجاء الجواب من الميناء نفسها .

ففي ايار من هذا العام انتهت الحرب العالمية الثانية ، وكان انتهاؤها حدثا سعيدا بالنسبة للعالم ، وحدثا اسعد بالنسبة للبحارة .

نشطت الحركة في الميناء كما لم تنشط من قبل، وبدات حبوب الجزيرة تتدفق على اللاذقية ، واشتد الطلب على وسائط النقل ، واستعادت المراكب قيمتها بسبب ضعف مزاحمة البواخر ، واصبح صيد السمك عملا ثانويا بالنسبة للبحارة الحقيقيين .

واعد الرحموني عدته ، فباع الشختورة واشترى مركبا، واعلن في الميناء ان الطروسي ريس المركب ، وانهما سيتشاركان . .

ووقع النبأ بشكل متباين في النفوس : فهمه الطروسي على حقيقته فقرر ان يشكر الرحموني ويعتذر . ان عودته الى البحر هي الامنية ، الا انها امنية بائسة حين تكون ثمنا لمعروف ، وسواء اعاد ام ظل على هذه الصخور ، فلن يقبل ان يستغل يدا له سبقت .

وفهمه نديم مظهر على انه « لعبة بارعة » قام بها ابو رشيد بالاتفاق مع الرحموني لابعاد الطروسي عن الميناء .

وفهمه ابو رشيد على انه ارضاء لكبرياء الطروسي ، فحبذه ، وربما شجع الرحموني عليه .

على ذلك بشخصيته وشعبيته واندفاع البحارة وراءه كـل هـذا الاندفـاع .

ثم ان العرض ليس سيئا . صحيـح ان فيه بعض المخاطرة ، الا انه يضمن مستقبل الطروسي ، ويؤمن لـه وضعا ماليا ممتازا لا يحلم به ولو افنى عمره في البحر .

ولهذا قال نديم في نفسه « اذا رفضه الطروسي يكون احمق بغير شك ، ويثبت انه لا يفقه شيئا في دنيا الاعمال، ولا وزن لمصلحته حيال هواه » .

وكان في منطقه هذا على حق ، فحتم على العاقل ان يجد في العرض يدا سخية تمد اليه ، وكل قياس او بعد نظر او تفكير ، يفرض عليه الاخذ به وشكرصاحبه عليه .

انما الانسان ليس نسخة ذاتها في كل فرد . القيـاس والمنطق وبعد النظر والحكمة كلها قد لا تجدي في اقناع محب بالتخلي عن حبيبه ، وكل عذل او لوم يؤدي الى ضده ، ويدفع الى الامعان في الاتجاه المأزوم ، والفريقان ، الناصح والمنصوح، قلما يتفاهمان في هذه الحال ، لانهما يكونـان ، كلاهمـا ، على حق وخطأ في وقت واحد .

نديم محق في ان يرى الاشياء من وجهة نظر رجـل الاعمال ، والطروسي محق في ان يراها من وجهة نظرالبحار . ذاك مخطيء لانه لا يتصور كيف يمكـن ان يرفض الطروسي عرضه ، وهذا مخطيء لانه لا يدرك جهل نديم في ان سفـرة في البحر ، على متن شراع ، اثمن من كل ما فـي الميناء مـن مواعين ، فكيف السبيل الى تفاهمهما على هذا الامر !؟

ولئن لم يتفاهما ، فهل يختلفان ؟ هل ينتهي ما بينهما من ود واعزاز ؟ هل تنقطع صداقتهما بعد طول توثق ودوام ؟

قال الطروسي :« لينقطع ما بيننا اذا اصر نديم علـى

تحقيق فكرته » وفي ضميره نبت شوك التبكيت ، فتمنى لو اقتنع صديقه بأنه هو ، الطروسـي ، غير كفء للنهوض بالمشروع ، وغير قادر على المكوث ، اكثر مما فعل ، على البر، ولكنه لم يكن يجد الكلمات المعبرة للدفاع عن وجهة نظره ، فهو عاجز عن شرح احساساته ، ولم يكن قـد فلسف وهمه او حلل حبه او كرهه للاشياء ، وكلما تحدث في مثلها اسف لانه فعل ، فقد كانت الكلمات تجرد خيالاته من تألقهـا ، وتسلمها الى برودة الحديث المكرور لسائر الناس .

وعلى ان اعز الاشياء يهون لديه اذا تعارض مع اعزازه للبحر ، فانه ما كان يريد ازعال صاحبه ، ففي حياته كلها لم تتصل اسبابه برجل كمـا اتصلت بنديم ، وقد لمس ذلـك لمسا ، فكان ، وهو في المستشفى ، يغمض عينيه ويفتحهمـا على صديقه يقف قربه ، يحيطه بالرعاية ، ويوصي به ، ويبذل له ، ويذود عنه ، فكيف يجافيه الآن !؟ وهل يشكل رفضـه مجافاة ؟ وما دخله هو فيما بين نديم وابي رشيد ، وبيـن الشيخ ضاهر والميناء ، وبيـن الكتلة الوطنيـة والكتلـة الشعبيـة ؟

سلم اخيرا ببعض دفوع العقل ، واعترف ان له ، ولـو جزئيا ، علاقة بما يجري في الميناء ، وان الوضع فيها لا يخص نديما وابا رشيد وحدهما ، بل يخصه ويخص كـل البحارة والعمال ويتصل بحاضرهم ومستقبلهم معـا قال :« الست بحارا ولي مصلحة في تحسين احوال العاملين في البحر ؟ وغدا ، اعود الى الميناء ، اليس مقدرا ان اقع تحت تحكم ابي رشيد كفيري ؟ ولنفرض انه سايرنـي شخصيـا فلقاء اي شيء ؟ وما موقفي من الاضطهاد النازل بالآخرين ؟ وهـل اغمض عيني واغضي على ذل !؟ »

« هو الذي وضعني ضده » توصل الى هـذه الحقيقة اولا ، ثم انطلق منها الى تحديد موقفه من العمل في الميناء ،

واعترف بواجبه في معاونة البحارة على التخلص من الاستبداد ، وهكذا قرر الا يقبل عرض نديم فورا ،ولا يرفضه فورا ، بل يستمهله قليلا ، مع الوعد في قبول النصح .

وارتاح نديم الى هذا الرأي : « خيط الامل لم ينقطع بعد ، وسأعيد الكرة بعد شهر او شهور .. فليقض الآن شهوته من السفر ، ولاتدبر الامر على مهل ، وامهد له فأشيع ان الطروسي سينزل مواعين في الميناء ، وفي ظني ان مثل هذا الخبر وحده كاف لاقلاق ابي رشيد » .

خطوة اخرى في الاتجاه المرسوم .. صغيرة ؟ لا بأس، يكفي انها في الاتجاه .. وقد لا تكون في خط مستقيم الى الهدف ، الا انها ستغدو كذلك مع الايام .. جيد ان يغادر الطروسي مقهاه الآن ، وجيد ان يعود الى البحر .. وفي المستقبل الى الميناء ...

انه فوز له ، وفوز لنديم ، وفوز للكتلة الشعبية كذلك ؟

٣

وكانت الكتلة الشعبية تحقق ، في هذه المدينة او تلك، بعض المكاسب على حساب الكتلة الحاكمة . ولكونهما اسمين لمسمى واحد ، ووجهين متماثلين لبنية اجتماعية واحدة، فقد اتخذتا اسلوبا متشابها في العمل ، يقوم على اجتذاب الرجال النافذين في الاحياء والمرافق ، وتأمين شعبيتهما عن هذا الطريق ، واستغلال كل شيء في سبيل الوصول الى الحكم .

وساعد انتهاء الحرب على زيادة مكاسب الكتلة الشعبية، فقد طرحت شعارات فيها احراج للفئة الحاكمة ، وتشهير بها بسبب من اسواء الحكم ، مستغلة النقمة المتزايدة في اوساط الشعب لتجعل منها جسرا الى الوزارة .

وكان الناس قد اطلوا على دنيا السلم من شرفة افراحهم وكبتهم الطويل خلال الحرب . لم تعد ثمة ظروف استثنائية ولا مصابيح زرق ولا بطاقات اعاشة ولا تقنين لوقود ، ولاشفع او وتر في تسيير السيارات ، ولا « ميرا » ولا « كوتا » ولا مبتكرات كثيرة من هذا النوع .

ان الازدحام الشديد على الافران ومراكز توزيع الحبوب والوقود قد انتهى الآن . توفرت مثل هذه الحاجات او كادت، وانفتح المجال للمطالبة بحاجات اساسية كتعديل القوانين والاصلاحات والعمران ، وثارت ، في شبه زوبعة ، الانتقادات حول فساد الادارة والمحسوبية ،ورفدت جميع هذه المطالب نهر المطلب الاكبر : استلام الجيش وتحقيق الجلاء ، وافادت الكتلة الشعبية من كل ذلك في معارضتها ، بل جعلت المطالب

الاقتصادية على سطح النقاش السياسي، بينما عملت ، شأن الفئة الحاكمة ، على ترسيب المطالب الاساسية في القاع .

وتنبه الحس الوطني عند الشعب للمؤامرات على الاستقلال . كانت نتائج الحرب قد تركت اثارها على نسبة القوى في الوضع الدولي ، وقويت الثقة في قدرة الشعوب على استخلاص حقوقها ، واشتد ساعد الجماهير واتسع نشاطها السياسي ، وظهر ان المستعمرين لم يعودوا قادرين على التصرف بمصائر الشعوب وفق هواهم ، وارتفع شعار جلاء القوات الاجنبية او الثورة في كل مكان ، وبدت البلاد في غليان سياسي شمل المعاهد والمساجد والنوادي والمقاهي والشوارع والاحياء ، واحتدم النقاش مجددا بين انصار الحكومة ومعارضيها .

وسأل رجل من المعارضين اسماعيل كوسا فيما كان جالسا في المقهى :

ـ .. والآن ، ها قد انتهت الحرب ، فلماذا لا تتسلم الحكومة الجيش ؟ ومتى يتم الجلاء ؟

ـ الامور مرهونة بأوقاتها .

ـ ووقت اي شيء الآن ؟

ـ وقت ملء البطون !

قالها رجل من جماعة نديم مظهر مستفزا اسماعيل كوسا ، فاجابه هذا :

ـ هذه عادتنا ، دائما نتهم الآخرين ، اتنكرون جهاد الكتلة الآن ؟

ـ نحن لا ننكر جهادها ، ولكننا ننكر استغلالها لهذا الجهاد ، حكم المزرعة هذا الى متى ؟ وفرنسا ؟ متى يتم جلاء فرنسا عن البلاد ؟

ـ قريبا .

ـ من سنتين ونحن نسمع هذه « القريبا » .

ـ من سنتين كانت الحرب .

ـ والآن انتهت الحرب !

ـ نعم انتهت ، ولكن الجلاء يحتاج الى وقت ، الى مفاوضات ، الى صبر لتنفيذ الوعد ..

ـ ومن يضمن تنفيذ الوعد ؟

ـ الانكليز .

ـ طظ .. شهاب الدين .. بريطانيا مستعمرة اكثر من فرنسا .

ـ لا ، لم اقصد ... ارجوكم ، الوعد مع الزعماء هذه المرة .

ـ ومن هم الزعماء ؟ اليس صاحبك بينهم ؟

غضب اسماعيل للاهانة فصاح :

ـ نحن نتحدث في مسائل هامة ، فلماذا التعريض بالاشخاص ؟

اطل نديم مظهر من باب المقهى فتلفتت اليه الرقاب .

هنا الشيخ ضاهر يا اسماعيل كوسا وليس الميناء ، وهنا نفوذ الكتلة الشعبية فاحذر الاصطدام ، احذر من ان تجلب لنفسك المتاعب ووجع الراس .

ووقف الجميع احتراما لنديم فحياهم وجلس في صدر الحلقة . واستؤنف الحديث فدار حول الوضع في البلاد ، والمظاهرات التي تطالب بالجيش والجلاء ، والاشاعات الرائجة في المدينة ، فقال نديم بشيء من قلق :

ـ عندي اخبار سيئة !

ـ نعوذ بالله !!

ـ نعم اخبار سيئة .. المرشد بدأ يتحرك ، وازلامه هاجموا مخفر الدرك في جوبة برغال .

رانت سكينة مبهظة على الجو : تحرك المرشد ؟ فهل تعود قلاقل الانفصال اذن ؟ هل تعود احداث ١٩٣٦ وتعيش اللاذقية في جو الخوف وكابوس الحصار ؟

٤

وضع الطروسي يده في يد الرحموني . ان للرجال كلمة شرف . ويكفي ان يشد بحار على يد بحار حتى تتم صفقة ما . بيد ان الرحموني زاد على هذه العادة فعانق الطروسي ، وبارك كل منهما للآخر ، وبارك لهما الحاضرون ، واعلنت بذلك شراكتهما رسميا .

وجلس الطروسي ، وكانا في مكتب رئيس الميناء ، متأثرا لا ينبس بكلمة ، ولكي يسيطر على انفعالاته لف سيكارة ثخينة واشعلها بسرعة . كان يحس ارتباكا لا يحبه لنفسه، ولكي يخفي هذا الارتباك شرع بالتدخين ، وشارك من حوله بكلمات لا بد منها للمجاملة ، متمنيا في كل لحظة ان ينفض المجلس لينفرد بنفسه ، فيستوعب عواطفه ، ويتفهم الاحاسيس المبهمة المتباينة التي هاجمته ، ويسيطر عليها .

اصحيح انه اصبح شريكا في مركب ؟ اصحيح انه عاد الى البحر ؟ وهل انقضت تلك الايام التي توقف فيها على الشاطىء ؟ وهل سيغادره ويترك البطرنة ؟

المسافر يستأنف السفر ، والشراع الذي طوي ينشر، والبحر الذي كان منه على جوار يصبح منه في القلب ، وكل شيء يحدث فجأة ! ولماذا تحدث الاشياء فجأة ؟ وكيف السبيل الى المرور من عالم الامس الى عالم الغد بدون رجة عاطفية؟

انقضى وقت غير قصير ، واوشك الظهر ان يحين ، فنهض الحاضرون ، ونهض الطروسي عائدا الى المقهى . الطريق هو الطريق ، ولكن السائر فيه يختلف . لقد كرهه

بالامس ، افتراه يحبه اليوم ؟ كان يمله ولا يجد فيه جديدا، فما بال اشيائه تبدو جديدة الآن ؟ والمقهى الذي حسبه سجنا اكان روضة لم يكتشف حقيقتها في حينها ؟

وتساءل في ذاته :« امسرور انا ؟ » ولم تجبه ذاته . وتساءل :« أحزين انا ؟ » ولم تجبه ذاته ايضا ، ودخل المقهى وطلب فنجانا من القهوة ، وافضى بالنبأ الى ابي محمد وخليل العريان ، فقام هذان باذاعته بين الزبائن ونشره في كل مكان .

* * *

كذلك جرت الامور بسرعة . وكان على الطروسي ان يعمل بسرعة ايضا ، لكن الاندفاع المطلوب كان ينقصه ،والبت الحازم المعتاد يعوزه ، وامده عقله بالمبررات في الوقت المناسب فاقترح على الرحموني ان يرأس المركب مؤقتا ، وزعم له انه مضطر الى المكوث فترة اخرى على البر « فترة قصيرة يا سليم ، ريثما ارتب اموري واسافر » .

واقره الرحموني على رايه ، وترك له الحرية في تحديد الموعد ، وسافر مصطحبا احمد ، تاركا شريكه يصفي اعماله كما قال .

وشرع الطروسي يرتب اموره فعلا ، انما بغير اسراع ، وكان يلاحظ من نفسه هذا التماهل، ويستشعر قلقا لا يدري سببه : اهو الاهتياج الداخلي المتولد عن فرحة العمر ، ام الاسى الرقيق المنثال في الذات بسبب الفراق القريب لهذا الدفء اللذيذ بين ذراعي ام حسن ، وهذا الجو الاليف على صخور البطرنة ؟

لقد قضى عقدا كاملا وهو يحلم بالسفر الى بعيد ، وامضى سنواته السابقات يرتقب ساعة يصبح فيها مالكا

من جديد ، وريسا يقلع بمركبه بين الموانيء ، فما شأن هذا القلق الغريب يفسد عليه متعته الخالصة الآن ؟ الم يعد السفر امنيته المشتهاة ؟ وهل اصبحت الملكية شيئا ثانويا في نظره ؟ وهل تضاءلت قيمة الرياسة حتى اصبحت كسائر القيم ؟ ام انه يستخف بملكيته وشراكته كليهما ، والفرصة السانحة هل يتركها تضيع ؟ ولئن ضاعت فهل تعود ؟ وفيم مكوثه على هذه الصخور اذن ؟ وفيم رجاؤه الذي بذل له من ذات نفسه ؟ وماريا التي وراء الافق ، هل عبثا تلفت اليها القلب ؟ والام يبقى هذا القلب متلفتا ؟

جلس القرفصاء على صخرته المفضلة امام المقهى . كان الصباح رائقا من اصباح حزيران ، والشمس تستيقظ وتبتسم ، وانعكاسات اشعتها تتوهج حمرة على جوانب الافق ، وانفاس البحر تتبخر ضبابا خفيفا على وجه الماء ، والموج يلقي بكلمات حب صباه في اذن الشاطيء ، وشراع ما ينطلق في طلب الصيد ، وطيور النورس تجري تمارينها الاولى ، وزرقة السماء تنبسط الى ما لا نهاية ، ورائحة ملحية تهف ، وهمس يتردد آتيا من الاعماق .

ما اجمل الصباح على البحر !

اشعل سيكارة مج منها نفسا ملأ صدره ، ونظر بحنان الى كل ما حوله ، فلما توقف بصره على خط الافق ، تتابعت الخواطر تصل بين ما كان وما سوف يكون ..

عشر سنوات مضت وهو يحسب الا جديد ، ثم جاء الجديد دفعة واحدة فأربكه . ان التفكير الهادىء الذي لم يألفه في ماضيه قد اصبح مفروضا عليه في حاضره ، فهو مرغم على ان يفكر الآن ، وان يحسب ، وينظر حوله ويقدر مواضع كل خطوة ، افيكون هذا مبعث الاختلاط في مشاعره ؟

دارت به افكاره دورة واسعة ، فلما انتهت الى عامه

الحالي ، واستقرت على اهوال تلك الليلة التي انقذ فيها الرحموني ، تذكر الاسطورة التي سمعها من البحار فابتسم: « انتصرنا على البحر ، فأين ملكته ! ؟ »

وندما على هذا التحدي ، ولو في الخيال ، استغفر البحر واعتذر اليه قائلا : « كلا ، انت هو الاقوى ! » وفكر : لقد كانت شختورة الرحموني ، في متاهة الامواج ، قطعة من خشب لا اكثر ، مركبا محطما مترنحا لا يرجى منه خير ، فكيف انقذتها ؟ اية اعجوبة حدثت ؟ اية مغامرة قمت بها ؟ لقد جننت ، جننت ما في ذلك شك ، فقدت حاسة الخوف ، ولا استطيع ان اتصور ما فعلت بالضبط ، ولا اعرف كيف سبحت الى الشختورة ولا كيف اندفعت بها مع الريح ببقية من خام .

اشرقت الشمس من ورائه فراى ظله يرتسم على الماء ، والتفت الى وراء فأبصر بعض الزبائن تحت الخيمة ، فقام واتجه نحو الميناء ، مستظلا الابنية القائمة على جانبي الطريق .

٥

كان مقهى ابي زكور يعج بالزبائن من شاربي النراكيـــل ولاعبـي النـــرد .

وكان ابو زكور واقفا وراء الموقد بقامته العملاقة ووجهه الاحمر ذي الخدين الممتلئين والشارب الكثيف . وقد جعل يفتل شاربه ويفكر بشيء ما ، ثم ازاح لبادته عن مقدمة راسه وارسلها الى وراء ، وانصرف الى مراقبة باب المقهى الذي يطل على الكنيسة المعلقة في حي الشحادين .

وكان ابو حميد يجلس في زاويته . لم يعد سيد الحلقة ولا سيد الاخبار . انكسرت المانيا وانتصر الحلفاء واصبح هزاة الناس . لقد كره الذين انقلبوا على المانيا ، وكره المتذبذبين، ولم يعد يطيق مقهى ابن آمنة في الشيخ ضاهر ، ولزم دكانه في سوق البازار ، وعاد الى عمله الذي هجره وهو يركض وراء يونس .. « يونس الذي كان يعمل للانكليز فـي قلب المانيا ، تأمل يا ابو حميد ! هل كنت تظن هذا ؟ يونس نفسه يعمل للانكليز ؟ تفـــو ..! »

وعلى رصيف المقهى جلس اسماعيل كوسا فـي صف شغل الرصيف كله ، وضم الاشخاص المعتبرين فـي الحي ، جاءوا كلهم يشربون القهوة والشاي، ويتبادلون الاخبار .

وكانت ظهور الجالسين تنحني ورقابهم تنمط حين يتكلم اسماعيل او احد الوجهاء في السياسة . ولم يكن اسماعيل اكثر الحاضرين وجاهة ،، لكنه اوثقهم صلة بالكتلة، وكان عليه ان يدافع عنها امام هجمات الناس ، يشرح الظروف والملابسات

التي تحيط بالوضع ، وينتهي من ذلك كله الى القول ان فرنسا ستخرج من البلاد ،وعندئذ يجابه بالسؤال الذي لا يجد لـه جوابا : « متى تخرج ؟ »

وكانت المظاهرات تنفجر في جميع المدن السوريــة ، والاضرابات شبه عامة بين طلاب الثانويـــات ، والصحف تنشر الافتتاحيات النارية ، والاخبار تنتقل بين العاصمـة والمحافظات برغم جميع الحواجز ،ونذير المعركة يلوح فـي السمـاء .

وكان الناس قد تقاربوا برغم تباين المعتقدات والآراء . نادت دمشق فلبت حلب وحمص وحماة واللاذقية والسويداء. ان الصيحة ، ههنا ، لا تضيع . الشام لا تنهض وتبقى في سورية مدينة قاعدة، والضيم لا ينزل بالشعب السوري وتظل طوائفه ساكنة ، فالاتحاد في ساعات الخطر تقليـد اصيل، والكفاح رضاع حق في الدماء ، والعدو لا يستطيع ان يخدع الجماهير عن نفسها مهما تقنع ونفنن في الخداع .

الخلافات ظلت موجودة بين الشيخ ضاهر والميناء ، وبين نديم مظهر وابي رشيد ، ولم يتنازل الاستاذ كامل عن مبدئه ، ولا اعتنق مخالفوه هذا المبدأ ، ولم ينته الصراع بين العمال وارباب العمل ، ولا بين الفلاحين والاقطاعيين ، ولكن الفئة الكبرى من كل هذه الاطراف ، التقت على صعيد الكفاح، وبدأ التمهيد للعمل المشترك .

ووصل رجال من الاحياء الى مقهى ابي زكور فأرسلهم الى بيت زكي قعبور ، وظل هو ينتظر الرجل الذي وعده ان يأتي وتأخر ، وكان يعد القهوة ويناولها الى الخادم بحركات آلية ، ويفتل شاربيه ويحرك لبادته علـى راســه بعصبيـة بعثها الاخلاف بالوعد .

ان مقهاه عامر هذه الايام بسبب من وجوده فـي حـي شعبي ، فمقاهي الشيخ ضاهر مكشوفة للسلطات والمخبرين

الذين ما زالت فرنسا تحتفظ بجهاز خاص منهم ، وهي لا تصلح الا للذين يعيشون من الاحداث على هامشها . ومقهى الكازينو مركز فئة تلعب البوكر والبريدج وتشرب وترقص وتتفلسف بعد وجبات الطعام ، بينما مقهى ابي زكور وامثاله ملتقى الشباب والطلاب ورجال الاحياء ، يحتشدون فيه فيتبادلون المعلومات والتعليقات وينفعلون ويتحمسون ويشتمون ويعملون وتتبلور ارادتهم وتنعكس على حياة المدينة وكفاحها.

لم يأت الرجل الذي تواعد معه ابو زكور . كان بعض الشباب قد اندفعوا تلقائيا الى العمل ، ودفعوا بعض المال لشراء قطع صغيرة من السلاح ، فقام ابو زكور بالتحريات حتى وقع على وسيط وعده بأن يجمعه ببائع سلاح ، وها هو الوقت المحدد يمضي والوسيط لم يأت وابو زكور لا يستطيع الانتظار اكثر مما فعل لانه سيحضر الاجتماع في بيت زكي قعبور .

هو يعرف ان وعود مهربي الاسلحة وبائعيها غير دقيقة، وقد حاول ان يلتمس عذرا للرجل فقال « ربما انكشف امره او حدث له حادث ، لكنه اذا كان كاذبا او واشيا ؟وهل يجرؤ ؟ ان ساطور اللحم ما زال عندي في البيت » .

ارسلها في نفسه وهو يهم بمغادرة المقهى ، وشق طريقه وسط نداءات الزبائن بطلب القهوة والشاي ، وطقات احجار النرد وهمهمات وشتائم لاعبي الورق الذين فتحوا اوراقهم ولم تأتهم « الباصرة » المطلوبة .

وفي الطريق التقى بالاستاذ كامل وآخرين فترافقوا . وسأله عن الحالة فقال :« سيئة ! » واضاف :« الطلاب سيتظاهرون غدا ، لكن المظاهرة يجب ان تدعم بحركة شعبية موحدة ومنظمة ، وهذه الحركة تكون سندا للحكومة ودافعا لها ، والا رجعنا الى وراء » .

وحين وصلوا الى بيت قعبور كانت الغرفة الكبيرة لا تكاد تسع ، ودخان كثيف ينعقد في الجو ، ولغط وجدال ، ورجال من الاحياء والاحزاب والهيئات يجلسون في كل اطرافها ، ونديم مظهر في الزاوية ، والى قربه الطروسي يجلس القرفصاء وفي حضنه خيزرانته .

ـ السلام عليكم ..

ـ وعليكم السلام .. يا هلا ..

وصاح الطروسي :

ـ تعال الى عندي ابو زكور ..

وجلس ابو زكور وهو يسأل :

ـ الى اين وصلنا ؟

ـ بعدنا في محلنا ، نقول لهم ثور ، فيجيبون احلبوه. فقول لهم اللاذقية غير الشام ، فيقولون خطر ١٩٣٦ ولى وراح ، فتأمل !

وتكلم عدد من الحاضرين عن الوضع وخطر المرشد وقال الاستاذ كامل : الاستقلال الذي اخذناه لا يصبح استقلالا كاملا حتى يخرج الفرنسيون والانكليز ، ونحن نعرف انهم لا يريدون الخروج ، وهم يماطلون ، ويتآمرون ، لكنهم لا يستطيعون البقاء اذا وحّدنا صفوفنا ، اما بالنسبة الى اللاذقية فان خطر المرشد خطر حقيقي يجب ان نقضي عليه .

فقاطعه رجل كان ضد التعاون مع فرنسا والانكليز خلال الحرب :

ـ هذا الكلام قلناه من زمان ، وحذرنا من الوعود فقال جماعة الكتلة : الوعد هذه المرة جد ، فمن منا كان على حق ؟

صاح نديم مظهر :

ـ اتركونا من الحساب الآن، جئنا لنتعاون ام لنتخاصم؟

وقال بعض الحاضرين :

ـ اتركونا من الماضي ، وحدّوا الله وخلونا في الحاضر.

وتابع الاستاذ كامل قائلا :

ــ حصولنا على الاستقلال كان الخطوة الاولى ، وتحقيق الجلاء هو الخطوة الثانية ..

ــ والخطوة الثالثة ؟ واخطاء الماضي !! ؟

وعاد نديم الى الاحتجاج :

ــ اتركونا من الماضي يا جماعة ، نحن اولاد الحاضر ، ماذا يجب ان نفعل الآن ؟

ــ التاريخ يعيد نفسه ، حوادث ١٩٣٦ نفسها ، والمرشد وحركات الانفصال من جديد .

قال الاستاذ :

ــ التاريخ لا يعيد نفسه . فرنسا اليوم غير فرنسا بالامس ، انها اضعف ، والانكليز اضعف ، نحن اقوى ، الدنيا تغيّرت ...

ــ والمرشد !؟

اجاب اسماعيل كوسا :

ــ المرشد لم تعد له قيمة ...

ــ ولماذا ؟ وكيف ؟

ــ زمنه ولى وراح .

فتصدى له احد التجار :

ــ لا يا سيدي ، ما ولى ولا راح ،والخطر على اللاذقية مضاعف ، من فرنسا والمرشد ،فلماذا نتهرب من الحقيقة؟

ــ لا نتهرب من الحقيقة ..

ــ بل تتهربون . تقولون : فرنسا خطر، وهذا على راسي ، ولكن المرشد خطر اكبر ، انا اشم رائحة عصيان ، « وجوبة برغال » (1) اصبحت مركز المستشار فماذا يفعل

---

(1) جوبة برغال احدى قرى اللاذقية . كانت مركز المرشد ومعتصمه في ذلك الحين .

هناك ؟ يصلي ؟ يصطاد ؟ لا ، يتآمر ، وغدا ترون كيف تبدا المشاكل وتقطع الطرق على سياراتنا وارزاقنا وتنتشر العصابات ..

قال اسماعيل كوسا :

ــ من هذه الجهة الحكومة ساهرة .

ــ سهر الحكومة وحدها لا يكفي ، مشاركة الشعب ضرورية ، لام نستعد .

وقال البعض :

ــ الحكومة تؤمن بالمفاوضات ، ونحن نؤمن بالسلاح .

وقال نديم مظهر :

ــ خلوا الحكومة تفاوض والشعب يتسلح ، السلاح ينفع في كل الاحوال ، اذا وقعت الواقعة مع فرنسا يلزمنا السلاح ، واذا تحرك المرشد يلزمنا السلاح ،والسلاح يحتاج الى المال ، وعلى الاغنياء ان يدفعوا ، انا هكذا افهم المسألة ، وهذا رأيي والسلام .

نظر ابو زكور الى الوجهاء الحاضرين ليرى وقع الكلام في نفوسهم فلم يتبين شيئا . وقال الاستاذ كامل :

ــ انا من هذا الراي . لا بد من معركة .. والمعركة تحتاج الى سلاح. فمن كان في مقدوره ان يشتريه فلا يتأخر، ومن لم يقدر على شراء السلاح يجب توفيره له ، والا فهل يقاتل بيديه ؟

ــ عندنا ساطور اللحم (قالها ابو زكور ساخرا)

ــ وهل تنوي استعماله مرة اخرى ؟

ــ هذا سلاحي حتى استلم بارودة .

ــ الرجل لا يتخلى عن صنعته . اشتقت الى التقصيب يا ابو زكور ، لماذا لا تعود الى بيع اللحم ؟

ــ الله اغناني عن هذه الصنعة ، يكفي انها كادت توصلني الى المشنقة .

كان ابو زكور جزارا في صباه . وكان شرطي ينظم بحقه المخالفات ليرغمه على رشوته ، فلما رفض ذلك ضايقـه ، فضربه بالساطور وهرب الى فلسطين ، ثم عاد بعـد عشر سنوات ففتح المقهى في الشحادين واعتصم به ، وصدر عفو عام وكان الله يحب المتقين . وقد ازعجه التذكير بالواقعة فقـال :

ـ اعفونا من هذه القصة .. انا ايضا من راي نديم ، لماذا لا تتكلم يا اسماعيل ؟

ـ اطمئنوا !

ـ علـى مـاذا ؟

ـ الحكومة ساهرة .

فقال نديم محتدا :

ـ علينا ان نسهر نحن ايضا ، لماذا الاتكال ؟

وسأل رجل من صغار الملاكين :

ـ ما هي اخبار الشام ؟

ـ الحالة متوترة جدا ، ربما اعلن الاضراب العام وبدات المعركة في كل لحظة .

ـ وما هو موقف الانكليز ؟

ـ يلعبون على الحبلين ، ويريدون الحلول محـل الفرنسيين .

ـ وهل نستطيع مقاومة الدولتين ؟ ومن يساعدنا ؟

قال الاستـاذ :

ـ الشعب يستطيع كل شيء .. اما المساعدة فتأتـي في وقتها ، لنا اصدقاء نحن ايضا ..

ـ لا نريد دعاية في الاجتماع .. لا نريد دعاية للروس..

ـ الروس ليسوا بحاجة الى دعاية ..

ـ بل انت تعمل دعاية لهم ، وتتكلم كما يتكلمون .. و

... وجاء صوت الطروسي من الزاوية :

ـ واذا تكلم كما يتكلمون ؟ هل تريد ان تسد فمـه ؟ حاسبه على اقواله، هل فيها شيء مضر ؟ وهل هي خطأ ؟

وتدخل بعض الحاضرين فقالوا :

ـ لا بأس بتبادل الآراء .. ولكن احصروا المـوضوع بشراء السلاح .

ـ الفوا لجنة لجمع المال ، ولجنة لشراء السلاح .

ـ هذا هو الحل ..

ازدادت الجلسة حماسة ، وظهر الارتياح على الوجوه، وبداوا يستعرضون الاسماء ، فلمـا ورد اسم الطروسي قال: « اعفوني من عضوية اللجان ، اجمعوا المال واشتروا السلاح وانا اقوم بنقله » .

ـ عظيـم ..

واقترح ابو زكـور :

ـ من رايي ان نبلغ اهل السوق لكي يستعدوا . ربمـا خطر للفرنسيين ان يغدرونا ، او ربمـا نزل جماعة المرشـد وهم مسلحون ، نسيتم غارة ١٩٣٨ ؟

فأجـاب الطروسـي :

ـ لا حاجة للشرح .. شعبنا مثل النار في القش ..

قال الاستـاذ :

ـ ومع ذلك لا بأس بالتفهيم والاستعداد .

وقال رجـل :

ـ يجب مراقبة طريق « الجوبة » لنعرف من يذهب ومن يأتـي .

ـ فكرة حلوة ..

ـ خذوا الاخبار من الفلاحين في البازار .

ـ ابو حميد يعاونكم في شم الاخبار

ضحك اسماعيل كوسـا وقال :

ـ اتركوه بهمه .. ابو حميد زعلان علـى هتـلر هذه

الايام ، يجلس في المقهى فلا يتكلم ، واذا تكلم شتم الكتلة ..

ــ نحن لا نتدخل بينه وبين الكتلة .. ابو حميد وطني والا لا ؟ اما قال انه يحب المانيا نكاية بفرنسا وبريطانيا ؟ ليثبت قوله الآن ، نديم يفاتحه بالموضوع لانه يمون عليه .

فوافق نديم على كلام الاستاذ وقال :

ــ انا مستعد اذا كنت تذهب معي .

ــ على راسـي ..

ــ تصبحون على خير ..

ــ وانتم بخير ، مع السلامة يا شباب ، احموا ظهـور بعضكم بعضا ، وكونوا على قلب واحد .

ــ هذه لا تحتاج الى وصية .

وقال مصطفى خادم الجامع .

ــ ان ينصركم الله فلا غالب لكم .

وكانت هذه كلمته الاولى والاخيرة في الاجتماع .

٦

ترافق الطروسي والاستاذ كامل بعد خروجهما من بيت قعبور وسارا في طريق افضت بهما الى شاطىء البحر ، قرب المستشفى الوطني، ومن هناك انعطفا نحو الميناء .

وسأل الاستاذ كامل :

ــ ما الذي جاء بك الى الاجتماع يا ابو زهدي ؟

ــ الذي جاء بـك انت .

ــ اقصد انك مشغول بالسفر ولا تطيق الاجتماعات .

ــ نعم لا اطيقها .. احب العمل اكثر من الكلام ، ولكني تغيرت « عاشر القوم اربعين يوما تصبح منهم وفيهم » ونحن عاشرناكم سنوات .. خطيئتي في رقبتكم .

ــ في رقبة الذين حببوك بهتلر .

ــ بل في رقبة الذين كرهوني به .

ــ ومن هم الذين اقترفوا هذا الاثم ؟!

ــ الابرار الاخيار امثالك ! (وبعد وقفة) الم تسمع ؟ ابو حميد يتهم الجميع بالتذبذب ، بما فيهم انا ، ويقول اننا تغيرنا وانقلبنا ، فهل يعجبك هذا ؟

ــ وماذا ترى انت ؟

ــ لا ارى شيئا .. انا لم اقبض هتلر من اول الامر هتلر حليف موسوليني ، وموسوليني قاتل عمر المختار، وكنت اساير ابا حميد حتى جئت انت ..

ــ اذن صدق ابو حميد ، تغيّرت ..

ــ وهو نفسه تغير .. آراؤه في الروس ليست كالسابق

وحماسته لالمانيا خفت ..وقد مدحك منذ ايام ، وقال انك رجل فهمان ، لانك عرفت ان المانيا ستنكسر .

فابتسم الاستاذ وقال :

ـ ابو حميد رجل طيب ، احب المانيا لانها ضد فرنسا وبريطانيا ، واحب هتلر الذي زعم انه صديق الشعوب ، ثم تبين انه عدو الشعوب .. نحن قوم لا نحب الدكتاتورية ، والافكار ستتغير ، والناس سيتغيرون .

فقاطعه الطروسي مع ضحكة خفيفة قائلا :

ـ اراك تحوم حولي لتصطادني (واضاف ضاحكا) هل تظن ان ما تقوله يخرق في عقلي؟ اقوالك حلوة ولكنها لا تدخل راسي،انا ، كما ترى ، لا اصلح للفلسفة ، انا وطني بدون فلسفة ، وطني على الناشف .

ـ انت « زكرت » ولذلك احببتك .

ـ وانت « زكرت » ايضا . حدثني قاسم الجرو فقال انه كلف بالاعتداء عليك،ودخلت انت مقهى كان موجودا فيه مع بعض اصحابه ، فجئت وجلست معه وتحدثت اليهم فخجل ان يتعرض لك بعد ذلك .

كانت الحادثة بعيدة . وقد علم الاستاذ ان ابن الجرو مدفوع للاعتداء عليه ، فدخل احد المقاهي الصغيرة يوما وفوجىء به فيها ، لكنه لم يشأ ان يتراجع بل سار وجلس على نفس الطاولة ، واكل معه خبزا وملحا .

ولخص الطروسي رأيه فقال :

ـ يعجبني منك هدوؤك وصبرك في مناقشة جماعة ابي حميد ، ويعجبني اكثر جلوسك مع البحارة والعمال .

فكر الاستاذ « اذن افكاري لا تجذبه بل اخلاقي ومعاملتي » ثم هتف في سره « وما الفرق ... الفكرة هي المعاملة » .

كانا قد وصلا الى مفترق السراي ، فودع احدهما

الآخر ، وسارا في اتجاهين مختلفين : نزل الطروسي نحو البطرنة ، وصعد الاستاذ نحو القلعة .

كان الليل قد اوشك ان ينتصف ، وكان في المقهى بعض الزبائن ما يزالون ، ومعظمهم من الصيادين ، يتسامرون كعادتهم ، وقد تحلقوا شبه دائرة حول خليل العريان. وصياد منهم يتحدث عن الصيد ويقول : البوري ! البوري !

كان يتغزل بسمك البوري الذي يعتبره اطيب انواع السمك ، وقد روى ، اثباتا لرأيه ،ان الاسماك اجتمعت يوما واخذت تتفاخر في طيب لحومها ، فلما اراد البوري ان يفخر قالت له : « نحن لا نتكلم عنك يا الية الغنم » .

ففتح خليل عينيه واعترض :

ـ لا الية غنم ولا بلوط ، بعد السلطان ما فيه سلطان والسلام .

ـ والجربيدن ؟ نسيتم ملك السمك يا اخوان !

واراد صياد في النهر الكبير ان يدلي بدلوه فقال :

ـ اكلة الحنكليس عندي اطيب من الخروف .

فقاطعه صيادو البحر :

ـ آتركنا ياه .. يلعن الحنكليس واكله .

انقسم الحاضرون على الاثر : صيادو النهر براي ، وصيادو البحر براي، وكانت المناقشة طريفة ، تبدأ ولا تنتهي، فغادرهم الطروسي وفي وده ان يبقى معهم . خيل اليه ان قلوب هؤلاء البسطاء خالية لا تعرف الاحزان ، وان افتتانهم بالصيد سر سعادتهم ، وانه كان سعيدا حقا يوم كان مثلهم حقا ، فماذا حدث له وهو على البر ؟ ولماذا تنوعت مشاغله وازدادت همومه ؟ واين ذلك الزمان الذي كان فيه لا يكترث للدنيا ؟ ود ان يسافر من غد ، ان يترك كل شيء ويمضي ، ان يقطع اسبابه بالمقهى والبطرنة ، ويسترد نفسه من جديد .

مضى الى صخرته فلف سيكارة واشعلها ، وفكر بما سمع الليلة وما طرأ على المدينة وما ينتظر وقوعه من احداث وتساءل :« اسفر أم بقاء ؟ »

كان يظن انه سيسافر بعد عودة الرحموني من الاسكندرية ، وها هي قضية المرشد والمعركة مع فرنسا ، فكيف يسافر في هذه الاحوال ؟ وكيف يبيع المقهى ولا يجد من يشتريه بسبب الازمة ؟ وحتى لو باعه فانه لن يسافر قبل نقل السلاح كما وعد ، والا حسبوه جبانا ، وربما احتاجوا اليه فافتقدوه . وعندئذ ماذا يقولون ؟: « هرب الطروسي ! هذا رجل بحر ما رجل بر ،والذين خرسوا يوم عدت بالرحموني وشختورته سيجدون فرصتهم الآن لاغتيابي والانتقاص مني. لن اسافر الآن ، سأتريث حتى ينجلي الموقف ، ثم ابدأ بتصفية اعمالي ، فالمعركة لن تطول ، وسأسافر بعد اداء واجبي ولو طالت » .

رنا الى البحر مشوقا .. كان موجه المصطفق يتكلم ويدعوه ، ونداء بعيد يترامى اليه ، وشيء ما يذوب في صدره .

وكان الليل قد تقدم ، وصيادو البحر والنهر قد انصرفوا . لم يتفقوا ولم يختلفوا ، ولم يكملوا الحديث ولا هم بقادرين على اكماله . سيستأنفونه غدا وبعد غد الى آخر حياتهم ، ففي كل يوم صيد جديد وقصة جديدة ،وفي كل يوم رجاء وشقاء وسباب وعراك ، هذه هي حياتهم ، وهو يعرفها ويحبها برغم قسوتها .

٧

كان ابو حميد منهمكا بتطريق قطعة حديد حين دخل عليه نديم مظهر والاستاذ كامل .

وكانت الحديدة حمراء كالجمر الذي اخرجت منه، وابو حميد شبه عار ، والدنيا حر ، والبازار قائم قاعد ، وصوت ابي سميرة يلعلع كعادته ، وامامه وحواليه سحارات الخضرة في هذا الجو المشحون بالضجيج ،« المعطر » برائحة الشواء، جلس الثلاثة يتحدثون ، وقد قدم أبو حيمد احسن مقعدين عنده الى ضيفيه ، وقرفص هو امامهما وعلى وجهه اشراقة طفلية ، بعثتها الزيارة وطبيعة المفاجأة التي رافقتها.

ـ اهلا بالشباب اهلا ، خير ! كيف جرى ؟

قال نديم :

ـ ما لنا غنى عنك .

وقال الاستاذ مداعبا :

ـ وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر .

ـ العفو ، انا محسوب الشباب ، محسوب شواربكم، انتم البدور ، اي علم الله زيارتكم غالية عندي .

وفرك يديه وسحب علبة التبغ فقدمها الى نديم ، فأخذها هذا وناولها الى الاستاذ ، ثم خرج ابو حميد فأوصى على فنجانين قهوة وعاد ، لكنه ما كاد يجلس حتى نهض الى الباب وصاح بأبي سميرة :

ـ ابو سمرو ، على مهلك .

ـ على عيني ابو حمدو ، ما تكرم !

الا ان الحديث ما كاد يبدا حتى ارتفع صوت ابي سميرة منتهرا احدى العجائز :« انت يا اختي ، قلنا لك اسعارنا محدودة كلمة واحدة ، العمى ، حددنا الاسعار وما خلصنا!؟»
فأجابته :

ـ متى يا بعدي ؟ متى حددت الاسعار يخزي العين ؟

وفرقع ابو سميرة بضحكة انزعج لها ابو حميد فنهض منتهرا وقال :

ـ ابو سمرو ، قلنا لك عندنا أوادم ، اتركنا نفهم عليهم خي .

ـ ما على راسي ابو حميد ، وحياة شواربك انت والاوادم ما راح يطلع صوتي من حلقي .

فتدخل نديم قائلا :

ـ اتركه يسترزق ، ضجة السوق اعلى من صوته .

وجاءت القهوة فشرباها ، وقال نديم :

ـ المعركة مع المرشد اصبحت قريبة يا ابو حميد .

واضاف الاستاذ :

ـ مع المرشد وفرنسا .. وقد اجتمعنا امس وقررنا توحيد الجهود ، واقترح الاخوان ان نتعاون ، فما رأيك ؟

تمسكن ابو حميد باديء الامر ، واراد تمثيل دور المتواضع العاتب على العقوق ونكران الجهود فقال :

ـ ومن انا حتى اعاونكم : ايام ابو حميد راحت ، اصبح راينا غير مقبول وكلامنا مضحكة .

فانتهز نديم الفرصة لاستمالته اليه شخصيا،قال:

ـ باطل ابو الحمد .. كلمتك مسموعة دائما ، وامس ذكروك بالخير وقال الجميع ، انعم واكرم .

ـ واسماعيل كوسا ؟

غمز نديم مظهر الاستاذ وابتسما :« عدنا الى موضوع الكتلة ! »

ـ اسماعيل فرد وسعره بسعرك ، والمعركة مع المرشد وفرنسا ،ولا بد من التعاون والا فشلنا !

وشرح الاستاذ ما دار في الاجتماع ، و قال ان الآراء السياسية اذا اختلفت فلا يجب ان تكون عائقا دون توحيد الجهود الوطنية ، واعطى مثلا بالاضراب الخمسيني في دمشق : « لولا اشتراك جميع الهيئات ما نجح ، والان نحن امام معركة ، ونواجه عدوين : فرنسا والمرشد » .

ـ والانكليز ؟

ـ الانكليز يتظاهرون بالوقوف على الحياد ، ولكنهم كاذبون . يريدون الحلول محل الفرنسيين وستكون المعركة ضد الفرنسيين والانكليز معا .

ـ وما راي الكتلة ؟

ـ هذا راي الاكثرية .. وكذلك الكتلة .

ـ وهل تصدقون ؟ الكتلة في الحكم ، وهي..

وابتسم نديم والاستاذ مرة اخرى ..

ـ من المفروض ان يتعاون الجميع ، ومن يتخلف يكشف نفسه ، المعركة هي المحك .

ـ وما دوري انا ؟

ـ دورك شم اخبار المرشد .

ـ بسيطة ، سأغلق الدكان من الغد .

قال نديم متحمسا :

ـ عشت ابو الحمد ، صدق الاستاذ والله ، معدنك من ذهب .

وقال الاستاذ :

ـ هذا معدن شعبنا .

ـ شعبنا وطني ولكنه متقلب ..

ـ لا ، شعبنا حساس ، هذا هو الصحيح ، لا يمكن خدعه طويلا ، والا لجره الشيخ تاج وراءه .

لم يقتنع ابو حميد بهذا الكلام ، فهو ساخط على الذين انفضوا من حول المانيا ، ولو قال ذلك غير الاستاذ لعارضه فورا ، الا ان هذا استطاع ان يفهمه وان يحظى باحترامه رغم إختلاف العقليتين .

وعلا صوت ابي سمير في الخارج ،فقام ابو حميد وخرج صائحا :

ــ خلصنا ابو سمره سودت وجهي ، يلعن ..

غاص ابو سميرة بين السحارات ، واغلق فمه بحركة ارضت ابا حميد ، رغم ان صياحه تجدد بعد لحظة ، وكان ابو حميد يعرف منه هذا ، لكنه تعمد اصدار الاوامر اليه امام ضيوفه ، مدفوعا برغبة لا ارادية للظهور بمظهر صاحب النفوذ ، خاصة بحضور نديم والاستاذ اللذين جاءا يطلبان منه الاشتراك في عمل سياسي .

ولقد توقع من الاستاذ ان ينظر الى صورة هتلر الملصقة على الجدار ويبتسم ، او يعلق بكلمة . وادهشه منه انه تجاهلها كأن صاحبها لم يعد شيئا ، او لم يكن في الاصل شيئا . وكان ابو حميد قد الصق الصورة حيث هي مؤخرا ، نكاية بالانكليز وبالذين كانوا مع المانيا فأصبحوا مع بريطانيا « هؤلاء الاوغاد الذين اداروا ظهورهم لهتلر بسرعة » .

وكان الميجر الانكليزي في اللاذقية يسعى جاهدا للاتصال بالذين كانوا على علاقات مع المانيا ، وحتى انه ارسل الى دكان ابي حميد يسأل ما اذا كان لا يزال حاقدا على بريطانيا ، فأجاب ابو حميد الرسول :

ــ سأظل ضدها حتى الموت .

فنصحه الرجل :

ــ لو خففت عداءك قليلا لاستفدت .. الميجر يسأل عنك .

ــ يسأل عني انا لماذا ؟ قل للميجر ابو حميد حداد ما سمسار سياسة !

ونكاية به صاح في مقهى ابن آمنة بالشيخ ضاهر وراديو لندن يهاجم الاتحاد السوفياتي :

ــ لا تصدقوا دعايات الانكليز .. الروس اشرف من لحية ابيهم .

وانقطع بعد ذلك عن المقاهي ، وبدا ضيق الصدر كثير التأسف على اخلاق الناس ، واصطفى ابا سميرة يبثه اشجانه ، معتبرا نفسه في السياسة من المتقاعدين ،حتى جاءه اليوم نديم والاستاذ يخرجانه من عزلته . وسمع نديم يقول له « معدنك من ذهب » فاغتبط كما لم يغتبط الا ايام انتصارات هتلر ، وعد هذه الكلمات تعويضا عن العقوق ، واحسن مكافأة على الجهاد القديم ، واندفع يتحدث في حماسة متقدة فقال :

ــ أؤمروا يا شباب ، قنابل ؟ مفرقعات ؟ هجوم على الثكنة ؟ انا متطوع ، فدائي وحياة شواربكم .

قال الاستاذ :

ــ الحركة لا تعتمد على القاء القنابل . سنعمل في وضح النهار ، واول شيء هو الاستعداد ومعرفة اخبار « الجوبة » .. هل لك زبائن فيها ؟

ــ من « الجوبة » لا،ولكن من « الحفة » نعم ، اتركوا المسألة عليّ .

ــ على شرط ...

احس ابو حميد بصدمة غير متوقعة فسأل :

ــ ما هو ؟

ــ ولا كلمة عن الموضوع في المقاهي..

ــ على راسي ، ما عدت اجلس في المقاهي .

ــ لا ، اجلس ولا تقل شيئا ، اشتر ولا تبع .

ــ واذا سألوني عن الاخبار ؟

ــ حدثهم عن هتلر ..

وضحك الثلاثـة ..
وقال ابو حميد :
ـ فهمت عليكم .. لا حاجة للشرح .
ونهض الضيفان وانصرفا ، فعاد هو الى تطريق قطعـة الحديد ، ثم لم يلبث ان تركها ولف سيكارة وجعل يدور فى الدكـان ..
كانت فرحته طاغية ، ولا بد من اشراك غيره فيهـا ، فاسرع الى الباب وصاح :
ـ ابو سمرو، اترك شغلك وتعال بسرعة .. بشارة حلوة.
ولما تلكأ انتهره قائلا :
ـ ابو سمرو ، اترك البندورة والبطيخ .. المسألة مهمة .
لكن البيع اهم عند ابي سميرة ، فتصامم ، وظل يساوم زبونا على بيعة من البطيخ ، الامر الذي اثار اباحميد ودفعه الى زعيق حاد :
ـ ابو سمرو . ما سمعتني خي!؟ يلعن دين البطيخ ، قلنا لك المسألة مهمة وبعدك قاعد ، ما تهببني هه !
فقفز ابو سميرة من مكانه وهو يقول :
ـ لا تكفر ابو حميد ، امر ، خير ان شاء الله !
فمد ابو حميد ذراعيه الطويلتين واحتضنه قائلا :
ـ خير وبس ! اعترفوا بحزبنا يا ابو سمرو !

٨

رجع الرحموني من سفرته الىالاسكندرية وفي ظنه ان الطروسي صفى اعماله واعد عدته للسفر . فلما فاتحه فـي الامر اجابه « امهلني قليلا ايضا .. ما زلت اسعى لبيـع المقهى وترتيب الامور .. انا اكثر الناس شوقا الـى السفر ، ولكـن هناك بعض الاعمال ، وهذه الحالة اللعينة عقـدت الوضع ، والمرشد يتحرك ، والمظاهرات لا تنقطع ، وربمـا حدثت بعض الامور » .
ـ ولكن انت بحـار ..
ـ وهل البحار على راسه خيمة ؟
وقال الرحموني موضحا :
ـ اقصد ان عملك في البحر ، ولا تستطيع البقاء على البر ، اما الواجب فعلى الراس ، وهل تظننـي اتأخر ؟
وابتسم الطروسي كأنما يعتذر عن حدته :
ـ الحق معك يا سليم ، لا يستطيع البحار البقاء علـى البر ، ولا اقصد ان نترك اشغالنا ، ولكن علينـا ان نفعـل شيئا ، ان نساعد بشكل من الاشكال ، بالعمل او بالمال ..
ـ المساعدة من حبة العين ، انت مفوض بدفع اي مبلغ تـراه مناسبا باسم الموكب ..
ـ ولدي مهمة ايضا ، اقضيها واسافر ، ما رأيك ؟.
ـ وتسألنـي ايضا ؟
واحتضن الطروسي شريكه في فورة من حماسة وقال:
ـ ما شككت ابدا في الجواب ..

ولما افترقا اوصاه سليم بنبرة رجاء :

ــ هل تعدني بأن تحترس ؟

وقال الطروسي وقد ادرك خشية الرحموني عليه :

ــ وهل تحسبني ذاهبا الى القتال !؟

* * *

بعد يومين من ذلك روى الطروسي هذا الحديث لنديم مظهر ، ومازحه قائلا :

ــ اصبحنا من اصحاب المراكب ، فلا « تثقلوا » علينا في المهمات !

واجابه نديم :

ــ نعرف هذا ونقدره ، لذلك اخترنا لكم مهمة «خفيفة» تليق بالمقام !!

وتحدثا قليلا على انفراد . كان مع نديم رجل رآه الطروسي لاول مرة في اجتماع الشحادين ، وعرف انه غريب عن المدينة ، وان لوجوده علاقة بما يجري في البلاد . ولم يتكلم الرجل قط ، بل ترك نديما يشرح الامر الذي جاء لاجله، فلما نهضا نادى الطروسي ابا محمد واوصاه بأن يبلغ احمد انه سيلقاه في المكان الذي عينه له ، وذهب الى طرف الصخرة وتفقد فلوكة ذات مجاذيف وشراع ، ووضع يديه وراء ظهره وانصرف .

كان مسدسه مشكولا في خاصرته ، فوق القميص وتحت الدامر الاسود ، وقد حجبته السترة القصيرة المشقوقة عند الظهر ، حيث تبرز ثنيات شرواله الاسود ، ومن كل سيمائه يلوح انطباع يدل على انه ملكف بمهمة . وربما تضاعف اهتمامه بها لانها بتكليف من نديم مظهر ، ولانه يحرص على القيام بها بمهارة ورجولة ، لكي يثبت وفاءه وجرأته ، ويقول له « ها انا ذا يا نديم ! »

ولاحظ ابو محمد الجو الغامض فقلق ، وود لو يعرف ما دار بين نديم والطروسي ، وزادت حيرته حين جاء بحار وسأل عن الطروسي ورفض ان يجيب عما يريد منه .

وجاء احمد أول الليل ومعه بحاران ، فرفع مرساة الفلوكة واتجه بها الى الشمال ، وركض ابو محمد وناداه من فوق الصخرة ، والح عليه ان يعود ليكلمه ، فما رضي، ولعله تعمد تجاهل صيحات ابي محمد ، ليشعره ان الزمن الذي كان ينتدبه فيه لقضاء صغار الامور قد ولى ، وانه مكلف بمهمة الليلة .

وعاد ابو محمد من على الصخرة ساخطا ، فقد تسبب احمد في وضع وزنة جديدة في كفة الشك، وبدا الموقف له وكأنه فوق طاقة فهمه ، فسار الى الوجاق واستسلم الى افكاره الخاصة .

٩

وجه الطروسي قبل ان ينطلق بالفلوكة التعليمات التالية الى بحارته : « لا سيكارات ولا كلام بصوت عال حتى نقطع منطقة المرفأ . ادفعوا المجاذيف بقوة ، ولكن بدون صوت ،انتم بحارة فهاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

سأله بحار :

ـ وما حاجتنا الى كل هذه الاحتياطات، نحن معك وتخاف؟

ـ لا اخاف غير الله .

قالها بحدة لا اثر فيها للمسايرة، ثم اضاف مؤنبا البحار:

ـ وممن اخاف ؟

ـ لا ادري ..

فنظر اليه نظرة رازه فيها برغم العتمة وقال :

ـ لولا انني اعرفك ، واعرف انها كلمة صدرت عفوا ، لافترقنا قبل ان نبحر .

وادرك البحار ما انطوى عليه كلامه من تعريض فقال :

ـ وحياة ابي الزهد ..

قاطعه الطروسي :

ـ لا تكمل ، فهمت ..

اصر البحار على الكلام :

ـ وحياة الطروسي والاخوة ما سألت عن غش ، اردت ان اعرف فقط ، و...

ورجاه احمد :

ـ امسحها بذقوننا ابو زهدي ، سيا ياشباب سيا ..

انطلقت اربعة مجاذيف تلامس الماء ببطء .. وتغرف منه بقوة كأنها تمتح البحر ،وراحت الفلوكة تجري خفيفة سريعة كالحسكة في طريقها الى الشمال . وكان الطروسي يوجه الدفة وعضلات اذرع البحارة تتقلص وتتمدد بتواتر عنيف ، وصدورهم تعلو وتهبط بتوافق مع حركة التجذيف، والماء يقطر ويخر ، والزبد الابيض يرغي فوق الفجوات المائية الشبيهة بأقدام الفرس وهي تخب على رمل ، والفلوكة تشق طريقها كمحراث قوي،وتترك وراءها ثلما طويلا ازرق على حافتيه الزبد ، ومن جانبيه اثار المجاذيف بشكل خطين طويلين من النقط ذات التخاريم .

وكان الجو صافيا ، كأن مصباحا كهربائيا قد اضيء في قلب الكرة البلورية ، فأصبح في الامكان رؤية ما في داخلها فيما يلي قشرتها الشفافة التي ترصعت بنجوم لا عد لها ، وكان ليل الساحل المندى بطراوة المساء ، وخرير الماء المتصاعد من المؤخرة ، وايقاع المجاذيف ، وتكسر الموج على المقدمة ، ورائحة البحر التي تشعل فتيل الشهوة وتبعث جنون الحب والمغامرة : كان كل هذا ، يضاف اليه ما احيط بالرحلة من سر ، يحف بالفلوكة ، ويرف عليها ، ويعبق بالمشاعر الفوارة في صدور بحارتها ، حتى انتشوا ،وسكتوا، واصفوا الى ترنيمة البحر والليل .

وقطع صوت الطروسي نشوتهم هذه طالبا ان يتوقفوا عن التجذيف .ان في البعد ضوءا ينوس ، وهو ضوء صيادين بغير شك ، لكن الطروسي كان حذرا بشكل غير عادي ،حتى تساءل البحارة في سرائرهم :« الى اين نحن ذاهبون ، وماذا نحمل من اشياء تبرر هذا الحذر والاحتياط !؟ »

ومضى على ذلك وقت غير قصير ثم جاءهم صوت الطروسي قائلا :

ـ سيا ، جذفوا ...

والتفت الى احمد وامره :

ـ افتح الخام ..

كان الاتجاه شرق شمال بسبب تعذر السير بمحاذاة الشاطيء ، ثم لا بد من الذهاب مع العمق للتضليل ،وقدتحرك الهواء قليـلا ، فاندفعت الفلوكة خفيفة الى امام ..

انها حمامة ذات جناح ابيض ترف الآن على وجـه الماء ، تلامسه بجناحيها ، تحدق فيه بحثا عن شيء ،ثم تمضي والموج المستثار يشرئب اليها ليمسك بها ،الا انها لا تبالي به لانها تعرف انه لا يبلـغ سوى ان يغسل عنقها .

وفي قاع الفلوكة مد البحارة ارجلهم واستراحوا .حين تنفرد الريح بالعزوف على الشراع لا بد ان يصمت المجذاف، وفي حال كهذه يحسن به ان يضع رأسه في الماء وينتحب وجدا كما تفعل الناعورة ذات الانين. وقد انغمست رؤوس المجاذيف في الماء ، وظلت مدلاة كذلك ، فما دامت الريح قـد واتت فلتسترح الاخشاب مشكورة على مـا بذلت من جهد كبير لتعطي فائـدة قليلة .

ومد الطروسي يده بعلبة التبغ الى البحارة :

ـ دخنـوا !

تناولها البحار الذي يليه فلف سيكارة ثخينة ومررها لمن يحاذيه . انهم يحملون تبغهم معهم ، اما السيكارة الاولى فلا بد ان تكون من الريس .. هذه قاعدة بحريـة يعرفون ان الطروسي يحافظ عليها لتستوفي رياسته حقها .وقد داعبه احدهم قائـلا :

ـ عادات البحر تتغير عند الجميع الا عنـدك يا ابـو زهدي ، مع انك لست بحارا محترفا الان .

قال الطروسي :

ـ ولا انا قهوجي محترف . المقهى باب رزق ، امـا البحر (وسكت كأنه يفتش عن كلمة) البحر حبيب .

ـ نحن نشتهي سفرة معك يا ريس .

ـ ان شاء اللـه ..

ـ اما انا فقد قضيت شهوتي (قال احمد)

ـ فقال الطروسي :

ـ وكدت تندم عليها .. حادثة الرحموني عجيبة ، وقد لا تتكرر .. الشباب ! بارك الله بالشباب . فـي صبـاي تراهنت مع بحار على الفطس من تحت البابور ، واليـوم لا افعل ذلك مهما كان الثمن .

قال احمد :

ـ اما انا فأفعل ، اصبحت احب السفر ، والرحموني يعاملني كأبن ، وكلما ذكرك قال « هذا اخ » وفي الاسكندرية اخذني الى السوق وقال « سأشتري طقـم ست كروزه للطروسي » وفي عودتنا كان يتساءل : اشقفة راح تعجب الطروسي يا ترى ؟» وكنت اقول له « تعجب الملك » .

قال الطروسـي :

ـ صحيح شقفة تعجب الملك ، وقد فصلتها ولم البسها، « الست كروزه » ملبوس الريس ولا يلبس الا في المناسبات. اذا مت يا اولاد البسوني « الست كروزه » كرامة للبحر .

قال بحـار :

ـ بعد عمر طويـل ..

فأجاب الطروسي :

ـ طويل ام قصير ، النتيجة واحدة ، والله الذي روحي بيده لا يسوى الموت عندي قلامة ظفر ، ليأت ساعة يريد ان يأتي ، كله سواء ، الموت ، في رأيي ، جبان ، لو كانت لـه قدرة اخذ الامانة من زمان ..مئة مرة التقيت به ومئة مـرة نجـوت .

ـ لـك عمـر ..

ـ يجوز ، الاعمار بيد الله ، لكنني لا اهتم للموت ، ولا

افكـر فيـه اصلا ..

ــ الحياة حلـوة .

ــ والموت حلو ، كل شيء في وقته ، المهم ..

لم يكمل الحديث . كان الهواء رهوا ، والفلوكة تندفع منزلقة برشاقة على الماء ، وسكون يسود الجو ،ومن الاعماق يتعالى نشيد اللجة المقدس .

اصلح الخام وعاد الى مكانه ، انما لم يستأنف حديثه السابق . خطر له ان يوضح المهمة بعـد ان اجتازوا نصف الطريق فقـال :

ــ والآن هل تعرفون اين نذهب ؟

واجاب على سؤاله بنفسه فقال :

ــ نذهب في مهمة لا يعلم بها احد غيرنا . يجب انتظل سرا بيننا . المسألة بسيطة ، شحنة سلاح لاخوانناالمجاهدين، تعهدت بنقلها باسمكم فما خاب ظني فيكم .

ــ ومن اين السلاح ؟

ــ من البسيط (١) ، اشتراه الاخوان ، وننقله نحن ، وهذا كل دورنـا .

ــ ولماذا اختاروا نقله في البحر ؟

ــ لان طريق البر مراقب من قبل الفرنسيين ،وقـد وعدت بأن ننجح في نقل الشحنة ورسمت الخطة، وكان اخطر ما في الامر ان يرانا رجال الجمارك فيتبعونا حاسبين اننـا نهرب ، وعندئذ نشتبك معهم ويضيع السلاح .

قال البحار الذي اثار الموضوع اول الامر :

ــ لو عهدناك تحسب حساب الامور الى هذه الدرجة ما سألنا .. انت تشتم رجال الجمارك في وجوههم ثم تحتاط بهـذا الشكـل ؟

(١) البسيط احدى نواحي اللاذقية . سكانها من الاتراك السوريين، وتقع على الساحل ، الى الشمال .

ــ ومن قال انني لا احسب حساب الامور !؟

كان قد سمع الناس يقولون عنه « يده والضربة » وها هم البحارة يصدقون هذا الكلام ويعتبرونه من المغامريـن المتهورين ، وهو يرفض هذه التهمة ، ولئن كان كذلك فيمـا مضى ، أو في المسائل الخاصة ، فهو غير ذلك في المسائـل العامة ، خاصة في السنوات الاخيرة. وتساءل في ذات نفسه وهو يفكر بهذا :« ترى ، هل اثر العمر فاصبحت كثير الحذر؟»

قال احمد مبددا الصمت :

ــ حدثني الرحموني في سفرتنا الى الاسكندرية انك اشتركت في تهريب الزعماء من جزيرة ارواد (*) . وقال ان هذه القصة يعرفها الجميع ، ومع ذلـك لم اسمع بها انا .

ــ لا تسمع بها احسن .. مسألـة صغيرة ومضت ، والذين هربناهم اصبحوا في الشام ، وكانوا يومها منفيين .

ــ ليست مسألة صغيرة ابدا .. قال الرحموني انهـا كبيرة . لا يعملها الا الرجال .

كان ظاهرا ان احمد يستدرجه الى الكلام ، وربما يتملقه ليكسب المزيد من اعجابه ، وهذه القصة لا يعرفها الكثيرون بعكس ما يقول ، ومع كل عزوف الطروسي عن التحدث عـن نفسه فقد احس بفرحة غامرة في ان يسمع الناس يتحدثون عن اعمالـه البعيدة ، البعيدة حتى كان ينساها هو نفسـه .

قـال بحار :

ــ كل انسان يذكر باعماله ، لا شيء في الدنيا ينسى.

مرة اخرى اغتبط الطروسي«لا شيء في الدنيا ينسى؟»

(*) ارواد جزيرة صغيرة تبعد ٣ كم عن طرطوس . فيها قلعة اثرية جعلها المستعمرون الفرنسيون منفى للزعماء الوطنيين . سكانها ٣ ــ ٤ الاف نسمـة . تردد اسمها كثيرا في سياق الرواية .

ـ فكر في هذه الجملة ـ « واذن فان حادثة الرحموني لـن تنسى !ولن انسى كأنني لم آت الى هذه الدنيا ، ما هذا الذي اسمعه الليلـة !؟ »

شط به الخيال الى ماضيه. كم في ماضيه من اعمال لا تنسى ؟ عمل ؟ عملان ؟ ثلاثة ؟ تهريب الزعماء ، وانقـاذ الرحموني ، ونقل السلاح ،فهل سيذكر الناس هذه الاعمال؟ « وقال في نفسه »بلى، لا بد ان يذكروها ،ولا بد ان يذكروني .. سيذكرني البحر والبحارة والصيادون ، وسيتحدثون عني وهم يتحدثون عن المهنة ، فانا نفسي تحدثت عن الذين مضوا، عن البحارة الذين تمنيت ان ابلـغ نصف ما بلغوا من صيت وجـاه » .

لقد اكتشف ذاته على غير قصد ، وها هو بدوره حلقة في السلسلة : تحدث عن اعمال الذين عملوا ، وسيتحدث الناس عن اعماله، تعلم الصنعة وعلمها ، اكل زرع الاخرين وزرع ليأكل الاخرون .. ما اروع هذا !

فكر في خليل العريان وحكاياته « اذن ليست هـي خرافات كما كنت اظن ! لا بد ان تكون قد حدثت يوما،والناس يريدون ان يعرفوا ما حدث ، ويحبون الحكايات فيجتمعون حول خليل ويصغون باهتمام . لقد كنت أستغرب واقول : ما اصغر عقولهم ! وانا نفسي كنت صغير العقل ، لانني كنت احب خليل العريان وحكاياته في بعض الاحيان .. ما اطيبك يـا خليل العريان ! انت راوية البحر بحق ، وغدا تروح ويأتـي غيرك ، وفي المستقبل يذهب الطروسي والرحموني وخليل العريان ويأتي غيرهم، والحكايات تكثر لان الناس يحكون مـا يجري معهم ، ويسمع الصغار من الكبار ويحكون بدورهم ، ولعل السندباد كان بحارا ايضا ، او لعله من الذين اولعوا بالبحر وسافروا ورأوا ، ومن يدري اذا لـم يكن السندباد خليل العريان ذلك الزمان ..»

تنبه الى وجوده على الفلوكة فالفى نفسه قد انفصل عن البحارة وغاص في تأملاته . وكان البحارة ايضا يتحدثون في الطرف الاخر من الفلوكة ويتضاحكون ، وعاد الى موضوع الزعماء فتذكر كيف حدث ذلك : « نزل هو وبعض البحـارة مع الريس ابو مسعود في قارب صغير من جنوب طرطوس ، وساروا في الظلام وبدون صوت حتى الجزيرة ، فوجدوا ثلاثة ينتظرون تحت صخور القلعة على البحر ، فأركبوهم ونقلوهم بأمان الى البر ، ولم يعد يعرف عنهم شيئا ، وان كان قـد سمع باسمائهم فيما بعد . لقـد كان الريس ابو مسعود بحارا مشهورا ، وكانت معهم ثلاث « بواريد » وجفت بعين واحدة و« برابيللو » ،فهل يعرف خليل العريان ابا مسعود ؟ وهل حفظ حكاية عنه ؟ لا بد ان يحدثه بقصته حين يعود ،ولا بد ان بحارة طرطوس يعرفون هذه القصة، اما بحارة ارواد فلا تخفى عليهم خافية من اخبار البحر .. هؤلاء هم البحارة، بل هؤلاء اسياد البحر ، فيه يولدون وفيه يموتون ، ويسبـح اطفالهم فيه كما تسبح الاسماك في قلب التيار ، وكان لهـم عز يوم كانت عدة البحر الخام والزند القوي ومعرفة الطريق بواسطة النجوم لا البوصلة . لقد كانت الرحلة من ارواد الى قبرص او مرسين او رومانيا رحلة حقيقية، تستغرق الاسابيع والشهور ، فيشتاق البحارة الى اهلهم ، ويشتاق اهلهـم اليهم، وينتظرون عودتهم على الشاطيء ، ومنهم من يعـود ، ومنهم من لا يعود ، ومع ذلك لا يخافون ولا يكفون ، بـل يواصـلون الابحار صيفا وشتاء وفي كل الشهور، غير ان زمن الشراع ولى ، لم يعد الخام خاما ولا الشراع شراعا وحلت «البوابير » محل المراكب .. تغير كل شيء حـتى اخلاق البحارة وفقدت المهارة قيمتها ، فيا عجبا ، هل ينتهي عهـد المجذاف ايضا !؟ »

نظر حواليه فالفى اشياء الشاطيء تلوح كأشباح عـن

بعد ، ومعنى هذا ان الرحلة توشك ان تبلغ غايتها .

قال :

ــ اقتربنا يا اولاد ، استعدوا !

وانحنى الى القاع واخرج رشيشا من تحت الشباك ، بينما الفلوكة تتحول الى الشاطيء.وتسير بقوة التجذيف .

انه لا يعرف المكان بالضبط، وقد جرى الاتفاق على ان يسيروا بمحاذاة الشاطيء ، حتى اذا رآهم اصحاب السلاح اشعلوا ضوءا فأجابوهم باشعال ضوء مماثل ، ويعود الذين على البر الى اشعال الضوء ، ومعنى هذا : اقتربوا .

قال الطروسي مداعبا البحارة :

ــ اخطأنا فلم نأت معنا بواحد من المجاهدين ، هؤلاء يعرفون استعمال السلاح ..

فقال بحار اسمه عبدالسميع .

ــ انا ابو السلاح .. خدمت في العسكرية سنتين ، هات الرشاش ..

ــ خدمت في العسكرية على راسنا ، ولكن اشتغلت بالتهريب ؟

ــ لا .

ــ اذن لا اسلمك الرشاش ، هل تحسب المهربين اوادم مثل تجار سوق البالستان !؟

ضحك البحارة لذكر تجار سوق البالستان الذين يبيعون الاقمشة والعطور والثياب النسائية وكل اصناف المانيفاتورة ، ويحلفون باولادهم من الصباح الى المساء دون ان يرف لهم جفن .

قال الطروسي :

ــ نحن نتعامل مع مهربين يا عم ، مهربين لا عندهم ذمة ولا عهد ، قد يسلموننا السلاح ويقبضون الثمن ، ثم ماذا ؟ يسلبونه منا اذا لم نعرف كيف نحميه ، فما رأيك ؟

ــ الى هذا الحد ؟

ــ واكثر ! المهرب مهرب دائما ، وهو مخبر في نفس الوقت ، يسلمك المهربات ويحاول استردادها، فاذا لم يستطع اخبر عنك الجمارك وقبض حصته من الاخبارية .. دود الخل منه وفيه ، ولو لم يكن المهربون مخبرين لما استطاع رجال الجمارك ضبط عشرة بالمئة من عمليات التهريب .

نظر احمد فزعا الى الطروسي وتساءل :

ــ هل يراس عصابة تهريب ايضا ؟

وسرعان ما اطرح هذا الخاطر وعزا معرفة الطروسي بهذه الامور الى البحر ، لان التهريب جزء منه ، والميناء تعج بالمهربين ، وفي المقهى تظهر المهربات كل يوم وتختفي ، ويأتي المولون و « المدمرون » فيدفعون وينقلون ويتفقون من جديد.

وانتهى الطروسي من تفحص الرشيش فقال لعبدالسميع:

ــ يا اخونا العسكري القديم ، قررنا تسليمك الرشيش فكيف تستعمله ؟

ــ انت هاته وما عليك ، قوصت بالرشيش على عدد شعر راسي ، ولي نيشان لا يخيب ، اعطني انت ، هه (وامسك الرشيش كما يمسك به كل عسكري) .

قال الطروسي :

ــ ما قلت لك يا عبدالسميع حرب التهريب غير حرب العساكر ؟ هذه الطريقة في حمل السلاح تنفع في الجبهة لا مع المهربين . وماذا يقولون عنا اذا رآونا نحمل السلاح ؟خائفين! لا ، ضع عقب « التومي » تحت ابطك ، وانزع بطانة جيب الجاكيت وامسك الزناد بيدك الممدودة منها ، وابق على جانبنا ، لا امامنا ولا وراءنا ، ولا تنظر الى ما نصنع ، ولا يلهيك الحديث ، ولا تحملق فيهم ، استرق النظر ، وتظاهر بأنك تتفرج ، فاذا بدانا نقل السلاح راقب كل حركة تصدر عنهم ، واذا رأيت سلاحا يشهر في ظهورنا فاخرج سلاحك ،

وعندئذ يفهمون اننا ابناء كار ..

فرك بحار كفيه متحمسا ، بينما اخرج الطروسي مسدسه وقال له :

ـ اما انت فسنعطيك المسدس وتظل في الفلوكة ، ولكن احترس يا شيخنا ، ولا تجرب ان تتعلم « النيشان » الليلة. اذا مد احد يده الى الشختورة فحطم دماغه ، وفيما عدا ذلك لا تهتم بشيء ، ومهما لعبت الفلوكة لا ترم الياطر ، يكفي الحبل الذي نربطه بالشاطىء ، وعند الاقتضاء اقطع الحبل فتتجه الفلوكة مع الريح .. سمعت ؟هذه مجرد احتياطات !

كانوا قد انزلوا الخام قليلا .. جعلوه بشكل مستطيل مائل لافراغ الهواء ، وتولى الطروسي توجيه الدفة وطلب من احمد ارسال المدري في الماء لاكتشاف الصخور والابتعاد عنها.

وساروا ايضا مسافة قصيرة ، ثم اشتعل عند منفرج صخرتين، ضوء ، وتم التعارف فاقتربت الفلوكة من الشاطىء.

قفز الطروسي واشعل المصباح الكهربائي ، ثم شد الحبل لتربيص الفلوكة على حافة الصخر ، وبدا استلام السلاح وتسليم الثمن ، حتى اذا انتهى نقل شوالات البنادق والذخيرة قفز الطروسي وبحارته الى الفلوكة ، فقطعوا الحبل وشرعوا بالتجذيف ونشر الخام مبتعدين عن الشاطيء ..وفي الوقت الذي قال فيه عبدالسميع « نجونا » ازته رصاصة وسقطت في الماء ، فقال الطروسي « هذه للذكرى والوداع» وضحك ..

وابتعدت بهم الفلوكة الى قلب الماء ، فشمر عن ساعديه وقال :

ـ ستكون الريح مؤاتية بعد قليل ، هات الدفة يا احمد.

ثم التفت الى البحارة واضاف :

ـ يجب ان نبلغ الطابيات قبل الفجر ، مهمتنا اصبحت اصعب الآن .

١٠

قلائل فقط علموا بما حمل الطروسي من « البسيط » الى « الطابيات » ، ومن بين هؤلاء نديم مظهر والاستاذ كامل. وربما كانت المصادفة المحضة ، او الثقة اللاارادية ، هي التي دفعت الطروسي الى البوح بذلك للاستاذ كامل ، وفيما عدا ذلك حاول نديم اظهار العملية كشيء خاص ،كعمل من تدبيره الشخصي ، وشاء استغلالها لصالح الشعبيين .

ولم يكن الطروسي ليهتم بهذا الجانب من الموضوع ،فقد اثبت جدارته امام نديم ، واتى عملا يعتبره واجبا .وتخفف من شعور المسئولية على نحو ما ، ولم يعد ثمة ما يحول بينه وبين السفر الآن .

لقد تعزز هذا اليقين في نفسه بما سمع من ثناء الاستاذ كامل عليه.وكان قد اعتاد الركون الى آراء صاحبه والتماس مشورته ، وربما احوجه ان يعرف مقدار الخطأ والصواب في عمل ما ، فينظر الى موقف الاستاذ منه ويقول : ليس هذا سيئا ما دام قد وافق عليه. ما دام قد حبذه ».

والتقى به بعد ايام، فعرض عليه مسألة السفر طالبا رايه:
قال الاستاذ :

ـ هذه مسألة خاصة .. هذا عملك انت ، وفي كل الاحوال ليس في البلد ما يوجب ترك الاعمال الآن .

واطرق الطروسي مفكرا . كان واضحا انه يحتاج الى دعم معنوي ، وانه ازمع السفر ولن يتأخر اكثر مما فعل ، ولكنه يريد ان يعرف راي الآخرين ، ويسمع مزيدا من الكلمات

الطيبة. وكان، في الواقع ، يبحث عمن يقطع له حبل الشراع من البطرنة .

وادرك الاستاذ هذه الحقيقة . فهم الطروسي على حقيقته واحبه واحترمه ، وفكر بالطريق التي جاء منها ، وبالطريق التي يسير فيها، وبالتحول الذي طرأ عليه ، وبالجراة التي يتحلى بهما فهتف فيذاته : هذه هي الصخرة التي ينهض على امثالها البناء . صحيح انه ليس عاملا ولا فلاحا ، ولكنه من الشعب ، من ابناء الشعب المخلصين ، من فروع سنديانتنا الضاربة جذورها في الارض .وتذكر كلماته « انا وطني بدون فلسفة » وتساءل: ما قيمة الفلسفة بدون وطنية ؟ ان يكن الانسان وطنيا فذلكهو الاساس . الفلسفة تأتي مع الايام، اما الوطنية فشيء من ذات النفس ، انها الشعلة الاولى المقدسة ، والباقي هو الرفد ، هو الزيت .. »

سأله :

— وهل قررت ان تترك المقهى ؟

— من كل بد .

— ولن تعدل عن العودة الى البحر ؟

— ولماذا انا على الشاطيء اذن !؟

كان جوابه هادئا ، ومع هدوئه لا يخلو من عتب « حتى انت ! » وكانت نظراته ترسم علامة استفهام كبرى : هل يمزح، ام انه لم يفهمه حتى الآن، او يشك في حقيقة حبه للبحر !؟

وفطن الاستاذ الى عدم جدية موقفه من مسألة لها في نفس الطروسي هذه الحرمة ، فقرر ان يعطيه الجواب الذي يبحث عنه، وان يقطع له حبل الشراع لينطلق به حيث يشاء، ما دام هناك حبل آخر ، اقوى وابقى ، هو حبل الفكر . قال له بلهجة صريحة حازمة :

— سافر .. سافر . انت لم تخلق للمقهى كما قلت ، ولا

بد ان تعود الى البحر ، فعد بسرعة اذن ، عد منذ الغد . ولا تقلق على شيء ، ولكن لاتنس شيئا ، وفي وسعك ان تكون معنا وان كنت بعيدا عنا .. فحيثما كان الانسان يستطيع ان يساهم في خدمة الوطن والشعب .

وافترقا عند هذه النقطة .. ذهب كل منهما فيسبيله، شاعرا ان الخيط الذي يشده الى رفيقه اصبح اشد وامتن.

ولاول مرة ، منذ بروز مسألة السفر ، فصل الطروسي بأمرها بشكل جاد ،قال : سأسافر ! لقد تركت الكلمات اثرها العميق في نفسه ،ولم يعد الحاجز الفاصل بين البحر والبر قائما الآن ..ان العالمين متصلان بخلاف ما كان يتوهم.

سار فرحا مستثارا الى ام حسن : انتهى كل شيء ، سأسافر. وتصورها وهو يلقي اليها بهذا النبأ تغتبطلغبطته، وتنضح جوارحها استجابة لجوارحه ، فتشهت غريزة الذكر في ارضاء الانثى لديه،وايقن ان قيلولة ممتعة تنتظره ،ودعابا تشتهيه حواسه يستحث خطاه . انه ما كان يقبل على وصال اذا لم تقبل عليه سعادة من دنياه ، فالامر المفضل لديه ان يتم كل شيء في جوه ، وجوه الآن جو وصال ، جو غبطة ، جو انشراح ولذاذة .

واسلمته خواطره الى احبابه البعيدين : هل علموا بقصته يا ترى ؟ وهل سمعت ماريا بهذه القصة ؟ومن يخبرها بها ويبلغها انه قادم ، وانه ريس ، كما عرفته ، واكثر مما عرفته مكانة وشوقا ؟

لئن بلغها ذلك فما هي فاعلة ؟ اتأتي اليه ؟ لا ، لو كانت تدري لاتت او لكتبت ، ولكنه ،في حياتها، كما هو في حياة غيرها ، ذلك المجهول الذي لا يعرف له مقر، يأتي ويذهب كالطير الموسمي ، وهو مثل هذا الطير عرضة لسهم اي صياد يكمن وراء اي دغل على الطريق .

« اما وقد نجوت من سهام الصيادين – قال في نفسه – ونبت على جانحي الريش ، فما قعودي بعد اليوم عن الطيران؟ وهل اتلكأ ؟ لا ، ابدا .. »

اطلق هذه الصرخة الباطنية وهو على عتبة الباب. وكان عليه ، وهو يدخل ، ان ينسى كل شيء الا ام حسن ، فلا يترك مجالا لاختلاطات عاطفية في ساعة يريدها خالصة الصفاء .

وقد افلح ، موقتا ، فيما اراد . كانت له ، وهو في احضانها ، ساعات قلب . فلما عاد الى المقهى ، في حمرة الاصيل ، وجلس على صخرته المفضلة ،عادت خواطره تلح وصورة ماريا تتراءى له ، وحنينه اليها يحرك الساكن من عواطفه نحوها .

ايقن انه لن يقوى على تركها اذا رآها ثانية . انما ، في حال كهذه ، « كيف اجمع بين الاثنتين في وقت واحد ؟ ماريا وام حسن ، في بيت واحد ومدينة واحدة ، كيف يكون ذلك؟ ومن اترك منهما ؟ هل استطيع ان انسى ماريا ؟ وهل يمكنني ان اترك ام حسن وقد اختبرت اخلاصها ؟ واذا لم اتركها فكيف اوفق الى ارضائها ؟يا للمشكلة الجديدة التي لم احسب حسابها ، كيف ورطت نفسي بهذا الشكل ؟ »

١١

اسقط فكرة ترك ام حسن من حسابه اسقاطا ،واعتبرها اثما ما كان يجوز اقترافه ولو على هذه الصورة من التساؤل. « اذهب الى رومانيا فأرى ماريا واطفىء شوقي اليها ، ثم اعود الى ام حسن فأصطفيها شريكة عمر .. وقد لا ارى ماريا ابدا فمن يدري اين اصبحت ، وفي اي بلد تقيم ، وهل ما زالت تنتظرني ام استبدلتني برجل آخر » .

« من المرجح ان الايام الطويلة قد غيرت كل شيء » – فكر بهذا ايضا – ثم اعترف بغير تحفظ انه احبها ومايزال، فمن بين كل النساء اللواتي عرفهن في موانيء المتوسط استأثرت هي بقلبه دون سواها . انها اميرة . وقد احب هو الامارة في الجمال والوقار وكرههما ، او لم يأبه لهما ، فيما عدا ذلك.

والى هذا فانه لا يعرف امارة الا مجازا . لم يعايش الامراء ولا خبر حياتهم ، وان كان يحب ان ينادي الاشخاص الذين يعجب بهم بهذا النداء :« آه يا امير » ان للامارة في ذهنه معنى السمو ، معنى الهيبة والوقار والترفع عن المباذل والسفاسف ، وقد كانت ماريا تجمع كل هذه الصفات . ومن يدري ، فقد تكون اميرة حقيقية ، ما دامت كذلك في وقفتها ومشيتها ومعاشرتها وطريقة حبها .

لقد ارسلت اليه تدعوه في احد الايام وهو في مرفأ كونستانزا . لم يكن يفكر بالنساء وليس به حاجة اليهن ،ومع ذلك لبى الدعوة ، اذ وجدها غريبة وجريئة معا .

وحين دخل بيتها شعر أنه في جو غريب . اجلسته الخادمة في غرفة الاستقبال ، وجاءته بعلبة التبغ ، وكانت الغرفة انيقة ، مترفة،وفيها لوحات وتماثيل بديعة ، ورائحة بنفسجية تهفهف في جوانبها وتعبق في فضائها ، فاشعل سيكارة وانتظر ، وطال انتظاره حتى شعر بأنه اهين عن عمد، وهم بالخروج لحظة انشقت الستارة المخملية الزرقاء وخرجت من خلفها امراة فارعة القامة ، صبوح الوجه ، ذات خصر طويل منحوت يتوسط جذعا ممشوقا بكتفين عريضتين وردفين ممتلئين ، ويكسو الجسم « روب دي شامبر » وردي،مفتوح من اعلى الى اسفل ، مربوط على خصرها ، عند السترة ، بزنار ينتهي طرفاه بشرابتين ، ولها عينان سوداوان وقرطان كبيران مستديران ذكراه بنساء اسبانيا .

تقدمت منه فوقف لها مأخوذا ، وصافحته وجلست قربه ، واشعل كل منهما سيكارة ،وتبادلا النظرات كأن كلا منهما يروز صاحبه عن كثب. كان يلبس شروالا من « الست كروزه » ، وقميصا من حرير القز فوقهما زنار حريري ، وله هيئة بحار من بلاد الشرق .

ولم يفهم عليها ولا فهمت عليه . كلمته بالانكليزية فما فهم ، وكلمته بالفرنسية فأشار لها انه لا يعرفها ، وعمدا بعد ذلك الى التخاطب بالنظرات ، وببضع كلمات رومانية حفظها في سفراته الى رومانيا .

وجاء الخادم بصينية عليها قدحان وزجاجة مبردة. لم تكن الخدمة على الطريقة الاوروبية هي التي اثارت فضوله لمعرفة حياتها ، بل نوع الشراب ، وطريقة التصرف ،والجلسة الفاتنة ، والنظرة الواثقة والجسم الممشوق ،ودلال المراة التي تطلب لجمالها احتراما يتكافأ معه .

ولما سألها :« اين رايتني؟» قامت الى النافذة وسحبته من يده ، واشارت باصبعها الى المقهى القريب ، ولوحت

بذراعيها كانسان يتعارك ، فتذكر كل شيء ، وادرك امام اي نوع من النساء هو .

لقد وقعت له في هذا المقهى واقعة طريفة . فحين وصل مركبه الى مرفأ كونستانزا ، علم اكثر من كان فيه بوصوله : كانوا يطلقون عليه اسم « ارابو » ويشربون التبغ اللاذقي الذي يحمله ، ويحضر معه بعض الهدايا وبعض صناديق الفاكهة فيوزعها على اصحابه ، ويقضي وقتا طيبا قبل ان يبحر عائدا الى الوطن .

ولقد خرج من المركب تلك المرة ، وجلس مباشرة مع البحارة في المقهى ، وطلب قهوة ولف سيكارة من التبغ« القره ضوراني » الاشقر كشعر النساء نبت جبال اللاذقية و« مشروبه » الخاص ، ودارت العلبة على البحارة ، فلفوا منها ودخنوا ، واصبح وصوله معروفا ، فما بال هذا الفتى الايطالي الجالس الى « البار » يشرب ويسخر من بحار مصري عميق السمرة فلفلي الشعر ؟

حدق فيه الطروسي مغتاظا فازدادت وقاحته ،وبدا يهزأ بطربوشه هو ايضا ، فيا للواقعة السوداء ! انعم النظر فيه وفكر « اي نوع من الرجال هو ؟ قرصان ؟ مجرم ؟ نذل ؟ مسلح ؟ اعزل ؟ هل يعرفني ؟ وهل هو معذور اذا كان لا يعرفني أم أنه تعمد استفزازي لانه مخلب قط لآخرين يريدون بي شرا !؟

انها حياة البحر هذه ، والمعارك فيها شيء ملازم لها ، ولا بد للبحار ان يخوض معركة في البحر ومعركة في البر كي يظل محترما ومرهوبا ، كي لا يأكله الاخرون .

قرر في نفسه « لأسألنه اولا ، فلعله يرعوي ، وقد يكون مخطئا فيكتشف خطأه ويعتذر ، ولئن كان ، بعد ، رجلا فلا بد ان يعرف قيمة الرجال .. انهض يا طروسي وجربه ، كن هادئا كعادتك ولا تقع في الفخ » .

نهض وتقدم نحوه . الشروال « الست كروزه » فضفاض بين رجليه ، والقميص الحريري يخفق مع الهواء ، والزنـــار مشدود على الخصر وفيه السكين ، وخيزراته في يمينه « ويا مرحبا بالموت في ساعته » .

تفرس فيه فحكم فورا بانه نذل عشير نساء ساقطات . فتى ميناء من فئة القوادين . فهل يليق به ان يضربه ، لا ، ليصبر عليه قليلا ايضا ، وليتكيء على المشرب .

وتمادى الايطالي في مجونه فصاح « فيفا دوتشي » واشار اليه وقال : « ارابو ! » وتف وتلفظ بكلمة ايطالية لـم يفهم معناها ولكنه ادرك انها شتيمة .

كانت ايطاليا تهاجم الحبشة ، ومقتل عمر المختار على يدها ما زال حديث عهد ، وقد اعتبر الطروسي الهتاف بحياة موسوليني على هذا الشكل المقصود اهانة قومية مقصودة اليه والى كل بحار عربي في الميناء . ثم هذه السخرية ، وسمعته ، وسمعة المنصورة ، والتحرشات المقبلة اذا « اخذوا ساحته » هـذه المـرة ؟

دارت هذه الخواطر في راسه بسرعة . كان يتروى لان البحارة الايطاليين زملاؤه وهو يحترم الزمالة ، ولا يريـد الاعتداء ، الا انه لا يقبل ان يعتدي عليه احد ، وهذا الايطالي قد اعتدى وبدأ والباديء اظلم ، وعليه ان يدفع الثمن .

قال الطروسي في سره « الآن سيقوم المقهى ويقعـد فاحذر الغدر . اذا رفع يده فاكسرها بسرعة ، بضربة خيزرانة يسقط بعدها كل ما في يده ، مسدسا كان ام سكينا . اضربه على الزند ، انت تعرف اين ، هذه شغلتك فقد كنت فتى ميناء ، ولكن فتيان الميناء في بلدك يصبحون بحارة لا قوادين . اضرب ولا تلتفت وراءك فان بحارتك مدربون ويعرفون واجبهم . كن خفيف الخطى وانت تتقدم ، وكن هادئـا شأن الواثق مـن ذراعه ، واسأله ماذا يريد ، بل واجعل سؤالك عمليا فاسحب

الكرسي من تحت قدمه ، وانتظر رد الفعل . انك في مواجهته الآن ، ولن يستطيع ان يمد يده الى جيبه ، وكل من هم قبالتك محسوب امرهم ، وظهرك محمي من وراء ، فادفع الكرسي برجلك لان هذا ادعى للاحتقار واضمن لبقاء يديك طليقتين » .

دفع الكرسي من تحت قدم الايطالي وانتظر . ولم يزد هذا على ان اعاد الكرسي وهو يضحك « انه نذل اكثر ممـا كنت تنتظر يا طروسي ، ولكن لا بد من تأديبه ، فادفع الكرسي بعيدا هذه المـرة » .

لبط الكرسي فتهاوى وسقط بعيدا . وضح الامر . تم السؤال وعلى « ابن الفاعلة » اعطاء الجواب . وجاء الجواب زجاجة امسك بها الايطالي من عنقها ، فعاجله الطروسـي بضربة اطارتها من يده فسقطت وتحطمـت وراء المشرب ، واثارت انتباه جميع الجالسين في المقهى .

تناول الايطالي كرسيا وقذف به الطروسي ، فمال هذا عنه ، ومع ذلك اصاب كتفه ورضه ، وعندئذ انهال عليه بضرب رصاصي محكم ، متتابع ، فوق الذراعين وعلى الراس ، حتى شل قدرته على الضرب وكاد يعود الى مكانه وقـد شفـي قلبـه منـه .

لم يتدخل احد من بحارته رغم انهم وقفوا وراءه . ذلك انهم يعرفون ان الريس يأخذ بصدره ثلاثة من امثال الايطالي ، ثم ان من شرف المعركة الا يتدخلوا اذا لم يتدخل الاخرون . وكان واضحا ان الطروسي اكتفى ، غير ان المعركـة تطـورت فجأة . انفتح احد ابواب المقهى عن رجل كان يشرب في حجرة خلفية يجالس فيها البحارة البنات عادة . وفي نفس اللحظـة اصابت زجاجة صدر الطروسي بضربة قوية امتقع لها وجهه حتى خيل الى بحارته ان عظم الضلع قد انكسر ، وتساقطت عليه ، من الايطاليين الذين خرجوا من الغرفة ، الزجاجـات والكراسي ، وعندئذ صاح بحارته صيحات الغضب مقرونة

بالشتائم ، وقفز واحد منهم عن المشرب الى باب الغرفة ، فعاجله ايطالي بلكمة ترنح اثرها وسقط وتطايرت اشياء المقهى في الفضاء ، وانقلبت وتبعثرت الكراسي وزعق الطروسي ببحارته « ارجعوا يا شباب » وانسحب الى الخارج .

ظنوه ، بادىء الامر ، قد اصيب وتعطل . لكنه كان يتراجع بحذر ويتفادى ما استطاع الزجاجات والكراسي، فلما اصبح في الشارع، وجر اليه الايطاليين الذين حسبوه قد انهزم ، كر عليهم من جديد ، وانحط بخيزرانته على سواعدهم ورؤوسهم ، ولاحقهم بالضرب السريع الجارح ، وعاونه بحارته واستبسلوا معه ، حتى سال الدم وصبغ الارض ، وتراكض كل من في الميناء على ضوضاء المعركة .

تمزق قميص الطروسي وجرح ساعده بضربة اتته من جهة ما ، وعندئذ استقتل حتى لم يعد يميز اين يضرب . كان يعرف ان خصومه يعتمدون على قبضاتهم وعلى الزجاجات والكراسي ، فلما اصبحوا في الشارع لم يعد لديهم لا زجاجات ولا كراسي، واصبحت المسافة بينه وبينهم ملائمة لرجل يتقن فن الخيزرانة ، وهكذا صار يطالهم ولا يطالونه ، ويضربهم ولا يمكنهم من الاقتراب منه ، ونجحت خطته وضمنت له التفوق ، وغدا قادرا على التحكم بالموقف ، فاذا واجه مهاجما هشمه بضربات عنيفة بارعة ، متعددة المواقع ، كأن خيزرانته « ساطور » جزار صناع ، حتى اذا ضاقت حلقة المهاجمين من حوله قفز وانتقل الى مكان آخر ، وجرهم واحدا واحدا اليه ، وتمكن منهم بشكل افضل .

في قلب هذه المعركة وصل رجال الشرطة ، واطلقت عيارات نارية لا يدري من اين ، ووجد نفسه محاصرا ، فكف عن الضرب ، وانزل ساعده الذي تصلب لشدة ما توترت اعصابه ، واستسلم مرغما ، فاقتيد هو وبحارته وبعض

الايطاليين الى دائرة الشرطة ، واجريت الاسعافات الطبية للجرحى وهم قيد التوقيف .

لم يكن ثمة قتلى ، ومع ذلك سجن شهرا وخرج بكفالة ودفع غرامة جعلت سفرته كلها خاسرة ، الا انه ربح تأديب « ابن الفاعلة » فعاد الى المقهى يجلس فيه متحديا ، لكن الايطاليين كانوا قد سافروا ، وتحاشى الآخرون العراك ، بل انهم باتوا ينظرون اليه باحترام ، وغدا كل من في المقهى يخطب وده ، حتى البنات العاملات كن يتركن الزبائن ويأتين اليه اذا طلب احداهن لمجالسته . وكان يجلس بعد ذلك وخيزرانته تحت ابطه الايسر ، ومن حوله البحارة العرب في حلقة لها مجلس معروف ومرهوب ..

هذه الواقعة لا بد ان ماريا شهدتها من نافذتها . وربما حدثها بها محدث حلو اللسان خصب الخيال فابلغها انه بحار من الشرق ، من بلاد الف ليلة وليلة وموطن السندباد ، ففتنها واغراها بالتعرف اليه، وربما كانت امراة ذات نزوات، تهوى البحر وتسمع بالشرق وتريد السفر اليه . وقد تكون ملت ابناء جنسها وشاءت الدخول في مغامرة صغيرة مع رجل غريب . ومهما يكن من امر فان الحادثة نفسها كانت السبب المباشر في جذبها اليه ، وهذا واضح كل الوضوح .

عادا الى مجلسهما واستأنفا الشرب ، والتقت عيناه بعينيها في نظرة كان مستعدا بعدها ان يخوض معركة مماثلة. ولقد تذكر بعد ذلك كثيرا هذا اللقاء ،واعتبره حادثا نادرا من حوادث الحياة ، واحب ماريا حبا قويا جارفا ، وشعر نحوها بحنين لم يشعر به نحو امراة قبلها ، وبات يعد ايام السفر اليها ويتعجلها كلما كان في ارض الوطن .

واحبته هي ايضا بمثل ما احبها وزادت ، واذاقته من حلاوة الليالي ما جعله يلازمها حتى غرقت المنصورة وانقطع عن السفر ، واذ ذاك اقام منها على ما يقيم عليه العاشقون

اذا نأت بهم الدار وشط المزار . وقد رغب في السفر اليها مرارا ، في اية سفينة او اي مركب وكيفما اتفق ، الا انه كان مخلصا لرجولته اكثر من اخلاصه لشهوته ، وقد آثر ان يسافر اليها ريسا او لا يسافر ، ريسا يمشي بحارته وراءه ، لا بحارا يمشي وراء ريسه وربما حمله هذا الريس شيئا من اشياء المركب ، وعندئذ كيف يذهب الى « اميرته » وبأية حال يلقاها ؟ ان هذه الخواطر قد طافت في مخيلته، وعذبته ، وحرمته من السفر كلما سنحت فرصته .

وفي ايام الشدة ، وفي ليالي السهد ، حين كان يجلس على صخور البطرنة ويرنو بقلبه الى مرفأ كونستانزا ، كان يراها وكأنه بقربها . كل تفصيلات لقائهما ، كل اوضاعهما في خلوات الصبابة ، كل ما في بيتها وغرفة نومها تراءى له واستثار حنينه واشجانه، ومع هذا امتنع عن السفرباصرار. كان في اعماقه يمارس لذة بمعاندة كل ما يعتقد انه يسيء الى رجولته ، وحتى الحب نفسه كان يريده متعة وجدانية اكثر منه عملية جنسية مجردة . ان متعة الوصال شعور بعنفوان الحب ، ولن يلقى ماريا بهذا الشعور اذا ذهب اليها مجرد بحار ، لا مركب ولا رياسة ولا شروال « ست كروزة » او قميص قزي ، وانه ليرضى بكل شيء الا ان يكون صغيرا في نظر نفسه ، وان تستعبده شهوته وتحطم كبرياءه على عتبة صاحب مركب او عتبة امرأة . ولو كانت ماريا ذاتها .

لقد احبته رجلا معتدا بقوته ومركبه ، ولن يذهب اليها الا بهذا الاعتداد .. بزهو الريس الذي يلقي « الياطر » اذا وصل ، ويغتسل ،ويبدل ثياب السفر ، ويخرج الى الميناءوكل من فيها يقول : « وصل الطروسي » فيسير وبحارته من حوله ، ويلجسون في المقهى فيدخنون ، ويفرغون حمولتهم ويشحنون غيرها ، ثم يقلعون من جديد في سفرة جديدة، كأنهم ما خلقوا الا للابحار والسفر ، وكأن حياتهم سفرة طويلة

لا تنتهي .

هكذا سيذهب اليها . بهذا الشعور . بشعور الرجل الفخور المقتدر . فتستقبله بشعور الانثى التي تنتظر رجلا محبوبا ومعبودا ، واذ ذاك يحس بأنه انسان عزيز يضع قدمه على عتبة بيت يعرف ان كل من فيه سيغتبط لدخوله ، اما بخلاف ذلك فلن يكون احساسه الا كاحساس بحار بائس ، يحمل في جيبه قروشا آقتطعها من طعامه ليقضي بها لذة عابرة بعد ان طال بعده عن زوجه وبلده .ثم ان ماريا ستكون اكثر استجابة له وهو ريس كما عرفته،لا لان مركز الريس اشرف ، بل لان المرأة تحب ان ترى رجلها في صعود .

وما دامت قد عرفته ريسا فمن المحال ان يعود اليها بحارا .

وها هي سنوات عشر تنقضي ، يعود بعدها ريسا كما كان، فيسافر الى رومانيا ويلقى المرأة التي احبها ، ويطير اليها من يخبرها انه جاء ،ويدفع هو الحلوان بكرم ،وترتدي هي، كما عهدها ، ثوبا ثمينا ، رائعا ، وتتعطر ، وتلتمع اسنانها البيضاء فتزيد من عذوبة ابتسامتها ، وينهدل شعرها الاسود على كتفيها ، ويهتز قرطاها الكبيران ، المستديران ، وتجلس على الاريكة قربه ، او تتمدد عليها في وضع مغر . وخوان الشراب جاهز ، مكافأة للريس الذي قاد مركبه من شواطىء سورية الى شواطىء رومانيا ، وطار على شراع الحب الى لقائها ، هازئا بالانواء ومصاعب الطريق .

انما قد لا تكون ماريا حيث فارقها ، وعندئذ ـ قال في نفسه ـ يصبح الفراق ابديا ، وينتهي كل شيء ، ويختم على ذكراها في قلبه ، ويمنح كل عاطفته لام حسن ،ويتخلص من عذاب مبرح يتسلل الى ضميره ويعذبه كلما فكر بانه اصبح بين امرأتين : احداهما بعيدة والاخرى قريبة ، ولكل منهما على البعد والقرب ، حب وايثار .

١٢

هبط الليل وهو يجتر ذكرياته . انه ليس بشـاب ، ولكنه لم يستنفد طاقة الشباب بعد . هو من اولئك الذيـن يطغى استواء رجولتهم على كهولتهم ، فـلا تبدو الكهولةعليهم، ويستمرون شبابا حتى الشيخوخة . ان نارا تستعر فـي حناياه ـ بفعل يقظة عاطفية حادة ـ اذا هو ذكر مطـارح الهوى من حياته . يتمثل كل شيء في اقصى استثارته ، ويخلد الى هذا التمثل منجذبا بمغناطيسية الخيال الذي اونته الاسفار ، ويمضي مع تداعي افكاره ، وبخاصة في السنوات التي عاشها على هذه الصخور كحالم في اليقظة يصطنع لنفسه عالمـا يستعيض به عن عالمه .

كان ذا شغف قديم بأمسه عن يومه ، فمـا ان يـرى مركبا يقلع ، او بحارا يتحدث ، حتى تعتاده صورة الماضي ، ويغدو مشوقا للقاء المشوقين .

ولم يكن يعرف ايهما يهيجه اكثر : حبه للبحر ام حبـه للمراة التي وراء البحر ، ولربما كان البحر والمراة كلا واحدا حيا مضرما في خياله الملتهب بفعل الشوق ، ومع هذا كله كان يجد عزاء مستمدا من ايمانه بالعودة يوما الى البحـر ، وكان هدفه واضحا حقيقيا لا يرقى اليه الشك ، جعله علـى يقيـن ثابت بانه سيتخطى العقبات ويصل الى ما يريد .. وها هوذا قد وصل الى ما يريد .

السنوات الطوال الطوال كيف تقضت ؟ كيف كـرت

وتصرمت وقد حسبها لن تكر ولن تنصرم ؟ الصبر ؟ نعم ، الصبر ولكن بكبرياء ، بدون يأس ولا شك ، فاذا نبت هـذان في ذاته اقتلعهمـا بمجهود ناجح في كل مرة ، وانتصرعليهما بفضل ثقته بنفسه ، وايمانه بانه سيعود كمـا كان . ان السجين ليتلف نفسه اذا نظر الى اعوام الحكم وحسبها يوما يومـا . ليدع هذا ، ولينظر الى الفرسة في باحة السجن ، فسيراها قد كبرت بسرعة ، انها نفسها لا تدري . لقـد عاشت ، وهو ، السجين ، يجب ان يعيش ، وسيجد ايـام سجنه قد تقضت ، وجاءت الحرية تقرع عليه الباب .

وهاهي حرية الطروسي تقرع باب مستقبله من جديد . انها المكافأة ! السماء تمنح المكافآت لمن يجاهدون لاجلها علـى الارض ، ولقد نظر وهو في هول العاصفة ، والرحموني بين يديه ، الى هذه السماء ، وسألها العون فاعانته ، انما كافح حتى حصل على عونها وانقذ الرحموني ، وكافح حتى ظل في البطرنة وعاد ريسا كما كان .

« من الغد يجب ان اترك هذا المكان ـ صمم على هذا ـ فاذا ضاعت الفرصة الان فقد لا تعود ابدا ، فالعمر لا يتجدد ، وكل ساعة تنقضي محسوبة منه » .

ما كف دماغه عن التفكير لحظة . كان محموما بانفعالاته الكثيرة المتباينة ، فهو سعيد ، مبتهج ، وهو متوجس ، حائر ، وشعور مبهم يراوده ، وخشية من افلات سعادته من يديـه تساوره ، وعليه ان يبدأ العمل فورا ، من الصباح !

١٣

في الصباح جاء الى المقهى وفاتح ابا محمد في الموضوع .

كانا تحت الخيمة . ناداه الى جلسة يشربان فيهما قهوتهما ويتحدثان . ومع القهوة ناوله سيكارة لفها له بعناية. وفي سره كان يقول :« لك عندي مفاجأة سترقص لها يا ابا محمد » فلما خيل اليه ان الجو الذي نشده لالقاء مفاجأته قد تهيأ، ابلغ صاحبه ان المقهى سيباع ، وانه سيعودنهائيا الى البحر ، ويأخذه معه . وقال له : « يا ابا محمد ، ابشر بالفرج ، ستسافر معي بعد الآن . لن تكون ريسا ولا بحارا ، ولكنك عندي وعند البحارة بمقام الريس وصاحب المركب . ستسافر الى بعيد ، الى بلاد لم ترها عينك ، وستتعرف الى حياة جديدة واقوام جدد ، وتنسى حياتك الشقية وغلاظات الزبائن ومتاعب المقهى. ربما دخت في السفرة الاولى ، ولكنني سأعلمك كيف ستتغلب على الدوخة اذا تجنبت النظر الى وراء المركب يسير . وسنأخذ معنا عدة الصيد ، وثيابا بحرية ، ولك حصة بحار ، وكل ما تريده خذه من هذه العين قبل هذه العين (قالها واشار الى عينه اليمنى ثم اليسرى) .

ــ تسلم عيونك يا ابني .

لفظها بصدق ولكن بغير ابتهاج ، وقرقف ورق الغار فوق الخيمة ، واتت نسمات طرية تحمل رائحة البحر المنعشة الى وجه ابي محمد الكئيب بلا مبرر .

لقد ارادها الطروسي مفاجأة لابي محمد فاذا هي مفاجأة له . توقع منه ان يبتهج ، ان يبارك له عودته الى البحر ، ان يهنئه ، ان يشاركه الفرحة ، ان يقول له « ها قد تحققت احلامك اخيرا ، وتحقق حلمي بالسفر معك » فاذا بالوجوم يلف العجوز كأن خبر سوء قد وقع عليه ، فما نطق بكلمة تعليقا على الموضوع .

سأله ثانية :

ــ ماذا قلت يا ابا محمد ؟

ــ مثل ما تريد يا ابا زهدي. انا معك حتى اموت وتقبرني بيديك ، فانا مقطوع ، لا ولد ولا اهل ، وانت الوحيد الذي سيسير وراء نعشي ، وهذا فضل من الله وسترة لآخرتي .

ــ وما دخل الموت الآن؟ الا تريد السفر معي ؟ لماذا انت ساكت هكذا ؟

ــ لا ادري والله ، انا مبسوط بنجاحك ، ومبسوط بسفرك ، لكن المقهى . .

قال الطروسي :

ــ اذن انت لا تريد السفر معي ، بكيفك ، ابق على البر . .

ــ والمقهى ؟

ــ سأبيعه ، انا بحاجة الى المال لاجل المركب .

خطر له ان يسأله :« واذا غرق المركب كما غرقت المنصورة ؟ اين تصبح انت واين اصبح انا ؟ وهذا المقهى الذي اسسته ، وبذلت كل هذا التعب فيه،هل تتخلى عنه بهذه السهولة ؟ هل تتركه لسواك ؟ وهل نعود ــ حين نعود ــ غرباء اليه ؟ وانا ؟ انا يا ابا زهدي ؟ انا العجوز ، هل اصلح لاكون بحارا ؟ انا قهوجي ، انام واقوم واعمل في المقهى ، واجد فيه شغلي وبيتي وحياتي ، فلماذا تحرمني منه ؟ ولماذا

تهدمه وتهدمني ؟ وهل تراني اصلح ، في آخرتي ، لركوب البحر والسفر من بلد الى بلد ؟ »

خطر كل هذا لابي محمد ، وخطرت له اشياء اخرى، واراد ان يدافع ، هو الآخر ، عن مملكته ومهنته ودنياه الصغيرة التي الفها ، ولكن كيف يقول ذلك ؟

وفهم الطروسي كل هذا دون ان يقوله ،وعز عليه الا يحقق رغبته ، واسف لان الحال لا تسمح بعدم بيع المقهى ، وانطوى على ذاته على رجاء ان يعوض ابا محمدعن دنياه هذه بدنيا احلى وامتع ، واعتبر ان اعلامه بعزمه قد تم ، ولا حاجة للافاضة في الحديث .

سؤال واحد طرحه عليه قبل ان ينهض :

ـ اذن لا ترغب في السفر معي ؟

ـ انا ؟ لا ارغب في السفر معك ؟ من قال ؟ هذه امنيتي منذ تعرفت اليك ، ولكن المقهى ! لو استطعنا ابقاء المقهى !

لف الطروسي سيكارة تعمد ان يلهو بتبغها وهو يفرشه وينسقه قبل ان يجمعه ويفتل الورقة عليه ويريقها ويلصقها بعناية المدخن صاحب المزاج ، والتفت الى ابي محمد وقال محاولا تغيير الحديث :

ـ اوصتني ام حسن ان ابعثك اليها .

وقبل ان ينهض ابو محمد اوصاه :

ـ ولا كلمة عن بيع المقهى هه !

ووافق ابو محمد وذهب ..

فما ان عبر الحديقة حتى هز راسه آسفا ، وشرع يحاسب نفسه ، ويلومها لانه ازعل الطروسي ، ويعجب لحزنه على فراق المقهى الذي تبرم منه قائلا :« متى نتخلص منه ونسافر ؟ » فلما جاء السفر لم يرحب به، ولا شارك الطروسي فرحته فيه، بل فاجأه بحقيقة حبه للمقهى اكثر من حبه للبحر، وتمنى الا يباع المقهى ولا يفارقه .

مضى من امام الكازينو ، وانعطف الى طلعة الاميركان قاصدا بيت الطروسي ..

ولم تكن المسافة بين المقهى والبيت طويلة . لقد انتقل الطروسي بأم حسن الى بيت قريب ، وغادرا حي السجن ذات يوم ، وقال السجناء وهم ينظرون من طاقة « القاووش» العالية الى عربة الطنبر تنقل الاثاث « لن نرى للطروسي وجها بعد اليوم . » وذكروا بيوتهم وزوجاتهم واطفالهم وقالوا: « لا بد ما تفرج ونعود الى الدنيا » .

وكانت ام حسن تعجب للتغير الذي طرا على مشاعر الطروسي بعد خروجه من المستشفى .جعل يعاملها باسلوب جديد ، فيه شعور بشراكة الحياة ورفقة العمر . وكان ،خلال فترة النقاهة ،يقضي اكثر اوقاته في البيت ،وقد ابدى رايه بعدة مسائل بيتية ، ودخل المطبخ وسأل عما ينقصه ، وجاء بزجاج وصنع اطارات لبعض الصور وعلقها ،وكان يغتنم كل فرصة ليطمئنها الى انه لن يتركها ، وانهما سيقضيان العمر معا ، لانهما على وفاق يندر بين الزوجين ، واخذ يفتح قلبه لها ويستشيرها ، ويقص عليها بعض ما يجري معه .

وكان صادقا في وده لها ،وقد ازداد اعجابا بها لما لمسه من حشمتها وسلوكها وعلاقاتها بجاراتها ،واكبر وفاءها يوم جاءها بخبر المركب فقدمت له ما معها واصرت ان يقبله منها ، فلما رضي احست انها اصبحت اكثر قربا منه ، وامتن علاقة به ، ولم تعد الجامعة بينهما جامعة جنس،ولا حاجة بها الى ابتداع الاغراء ، ولا الوسوسة والخوف ، والشيء الوحيد الذي اسفت لفقده هو الولد :« لو انجبت ولدا واحدا فقط ولا يهم اكان انثى او ذكرا ، المهم ان يكون لي ولد » .

ورغم قناعتها بانها لا تحبل ولاتلد،كانت تنتظر برجاء امراة عاقر ان تحدث الاعجوبة ذات يوم ، وان يلبي الله

نداءها ويرزقها ولدا ، وليس يهمها اسجله على اسمه ام لا ، انها تثق بشهامته وشرفه،وتثق ان ولدا من صلبه لن يتخلى عنه،ولن يتخلى عنها بسببه ، وحتى لو تخلى فانهـا لا تبالي بشيء .. انها غريقة والولد هو حبل النجاة .

ولشد ما تساءلت : « لماذا لا اربي لقيطا ؟» انها تجد من نفسها القدرة والحنان على تربية طفل ليس من احشائها. وبغريزة العاقر ادركت ما في تبني الاطفال من لذة وعزاء .انها فعلة الزوجين المعذبين نفسيا،القلقين، المفتشين عن استقرار روحي يحمله لهما طفل ، اي طفل .

ولئن كان الطروسي يخيفها ويأسرها بغرابته وصمته في الماضي ، فانه لم يعد كذلك الآن . ان شجاعته التي تتعارض مع خوفها قد انقلبت الى حنان متبادل منذ ان فتح عينيه وابصرها الى جانبه في المستشفى .

وبخلاف ما كان يظهره من بأس في حياته العامة ، كـان رقيقا في حياته الخاصة ، ان القوي كان ضعيفا ايضا .. الا يعيش على حب المراة التي في كونستانزا ؟ الا تستبد ماريا بعاطفته كما يستبد هو بعاطفة ام حسن ؟ وكيف يواري ضعفه العاطفي الا ان يجد له القوة عند عاطفته اضعف؟ انها ام حسن وليس غيرها ، وقد فهم الآن انها شيء عزيز عليه ، لازم له، فمنحها كل ما يجعلها سعيدة راضية ، وشعرت هي بهـذا الصدق يندى دفئا فيبدد قلقها .

وفي غمرة هذه الهناءة الوافدة دخل عليها ابو محمـد محزونا . وبدا على غير عادته ،وقد فشل في الكتمان فقرر ان يصارحها ، وان يستعين بها على الطروسي ليحتفظ بالمقهى.

جلسا في ارض الدار : ام حسن تقشر البطاطا وهـو يتحدث اليها مهموما عن بيع المقهى :

ــ الطروسي لم يخلق ليكون قهوجيا،وانا لم اخلق لاكون

بحارا . البحر غدار ، اما رايت ما صنـــع بالرحموني ؟ والمقهى ، على كل حال ،باب رزق،فلماذا تغلقه في وجهنا ؟ ولماذا نخاطر بارواحنا ؟ واذا غرق المركب كما غرقت المنصورة فماذا نصنع ؟ من رايي ان المقهى يربط الطروسي ، ويمنعـه من ... هجرك .

اصفت ام حسن الى حديث ابي محمد باهتمام . بـل واضطربت عند سماع كلمة الهجران . وتمسكت مـن كـل الموضوع بفكرة ربط الطروسي بها عن طريق ربطه بالمقهى . قـالت :

ــ كلامك صحيح ، والله اذا ضاع المقهى ضعنا ، ولكن الطروسي عنيد فكيف نفعل ؟

ــ كلميه انت . قولي له ان صحته لا يوافقها التعب والسفر ، واقنعيه بأن يسافر مرة او مرتين ثم يعـود الـى المقهى ، وسامح الله الرحموني بما دفع له ، نحـن يا بنتي لا نريد اي شيء ، شغل المقهى يكفي والرزق على الله .

ــ واذا رفض وعاند ؟

ــ نكون قد قمنا بواجبنا ..ولكنه يسمع منك ولا يكسر خاطرك .. جربي ، الامر لله من قبل وبعد .

ــ سأجرب الليلة او غدا من كل بد ..

واتفق الاثنان على ذلك .

١٤

بكت ام حسن كما لم تبك من قبل . هي تعرف ان الطروسي ينفر من الدموع حين تكون وسيلة للاقناع ،وتعلم ان ذرفها سيزيد في توكيد ضعفها وتعزيز قوته ، لكنها وقد تفجرت عواطفها لم تعد قادرة على ضبطها ولا التفكير بما عسى ان يكون منها على مستقبلها .

ليست ام حسن هي التي تبكي الآن ، وفي هذا الوقت المتأخر من الليل ، بل هي « نجوى » التي تغسل بعبراتها كل آثام ماضيها ، كأنما الدمع كان حبيسا في مآقيها منذ عشرات الاعوام ، متجمعا قطرة قطرة في خزان الصبر ، وقد فار الان فانساح من عينيها وسال على وجنتيها غزيرا يبلل منديلها وقميص نومها ووسادتها . هي تبكي لانها تريد ان تبكي . تشتاق ان تفعل ذلك . وقد احست منذ زمن بعيد انها قادرة ، لو مات عزيز عليها ، ان تغسله بدموعها . لقد غدا الدمع حاجة بالنسبة اليها ، فلو بكت لاستراحت ، وعادت اعصابها الى الاسترخاء بعد طول توتر . وحين انفجرت باكية لم تكن تبكي شيئا معينا بالذات ، انها تبكي طفولتها ووالديها واخوتها ، تبكي بيتها وحيها والدروب التي لعبت فيها صغيرة وسلكتها كبيرة الى ان ضاعت خاطئة مجرورة بحبل مشدود الى قعر .

ولقد صبرت طويلا ، وحسبت نفسها سعيدة ، وخيل اليها ان الايام ستنسيها ماضيها ، فما بلغها ان الطروسي

سيبيع المقهى، وانه قد يهجرها ، ويضعها على منحدر القاع من جديد ، حتى غلى تأثر غريب في ذاتها ، واستحال الى دمع تحير في مآقيها ،ثم انساب منهما في نوبة كره شملت كل شيء من حولها : وجودها وبيتها وحياتها والقلق الذي يفترسها ، والوساوس التي عادت تعذبها ، وعاطفة الانثى التي تفننت في اظهارها لترضي رجلها ، فاذا هذا الرجل يوشك ان يتركها للخطيئة ويرحل .

وعاد الطروسي متأخرا فوجدها مستيقظة تبكي . ان صبرا غريبا واتاه فلم يثر عليها ولا على دموعها ،ولم يخرج عائدا الى المقهى في انقطاع يطول او يقصر ، شأنه سابقا .

هو مثلها تأثر لفراق اشيائه الاليفة في البطرنة ، بل هي اسعد منه حالا لانها نفست عن كربتها بدموعها ولهذا ظل واجما امام بكائها لا يدري ما يصنع ، فقد اصطدم بها حين جاء يستعيد صفاءه عندها ، واستغرب ان تتورم عيناها من البكاء وان تنفجر ناشجة في وجهه هو بالذات .

وازداد تعاسة بسبب من شعوره انه دخل في علاقات شخصية معقدة افقدته صفاءه وغلت يديه عن العمل الحاسم الذي اعتاده . وفكر بان يقطع هذه العلاقات ويتحرر منها وينطلق وحيدا لاهيا على هواه ، متنقلا حيث يشاء في اي وقت يشاء ، لكنه لم يجد استجابة فورية من نفسه، ولاحظ انه بدأ يحن الى بيت يأوي اليه ، وقلب يستدفئه ، وصدر يضع راسه عليه . انه تعب ، مشتت ، مستاء من ابي محمد، مقهور لبكاء ام حسن ، آسف لبيع المقهى ، وقد جثم على صدره ثقل باهظ .

كان يريد ان ينام،ولكن كيف ينام والى جانبه امراة تبكي؟ ويريد ان يخرج ولكنه لا يجد حماسة للتشرد من جديد ،وقد ادرك الآن ضعفه ، ورد كل ذلك الى العمر فقال « لم اعد شابا كما كنت !» .

ولو كانت ام حسن على فراسة كافية ، او لو سمحت لها اعصابها ان تهدا لوجدته هذه الليلة اقرب اليها من كل ليلة. لقد اعتاد ، خلال هذه الاعوام ، الحياة البيتيــة المستقرة ، والف الزواج ، الا انه لم يحسب حساب التعارض المقبل بين حبه للبحر وحبه للمراة التي سيخلفها على البر ، فلما واجه مثل هذه الحال كان عليه ان يقف على احــد جانبي الخط الفاصل بينهما ، وان يختار بحزم ، الا ان الخيار كان صعبا ، لا قبل له به ، فعمد الى المداراة ، مستسلما الى ضعف شفوق سيطر عليه في غفلة منه .

سألها :

ـ لماذا تبكيـن ؟

فاجابته من خلال دموعها :

ـ لماذا تريد بيع المقهى ؟ اذا كنت تريد السفر فانا لا اعارضك ، اما بيع المقهى فما وراءه ؟ تريد ان تقطع علاقتك بالبر وبالبيت ؟ تريد ان تهجرني ؟ اهجرني ، ولكن قل لي ذلك، قل ان كنت تضحك علي وتخدعني ،قل انك تريد العودة الى المرافىء ونساء المرافىء .. لقد عاشرتني في اوقات الشدة، فلما جاءك الفرج ادرت لي ظهرك وقررت الرحيل .

ووثب من مكانه كأن مدية حادة غارت في قلبه « انهـا تمن علي » قالها وهو يذكر حليها المباعة لاجل المركب، وهم بأن يصفعها، ثم ارتد وقد افلح في الا يفعل ، وحدق فيها بعينين يتطاير منهمـا الشرر وصاح :

ـ قومي اخرجي من هذا البيت ولا تعودي اليه .

ـ كما تريد ، الله الذي خلقني لا يتخلى عني ، الآن عرفت قيمة الرجال ، ليس فيهم ..

ـ كفى ، ولا كلمة واحدة ، مصاغك يصلك غدا ، فـي اي مكـان تريدين ..

وتنبهت للاهانة التي صدرت عنها بدون وعـي ، فمـا وجدت الا هذه العبارة للرد عليه :

ـ مصاغي ؟ أنا امن عليك بمصاغي ، سامحك الله .

ودارت في البيت تجمع ثيابها ، وتجفف دموعها فلا تجد الا دموعا جديدة تنساب ، فلما انتهت من جمعها وقفت قبالته وقالت « بخاطرك » فلم يجبها ، وقالت « الن نرى بعضنا بعد الآن ؟» ومضت الى الباب وهي تنشج فانجرد وراءها وامسك بهـا من كتفيهـا وقال :

ـ لا تذهبي .. المراة لا تذهب، الرجل هو الذي يذهب.

وشرع يجمع ثيابه ، لاعنا حظه وحياته ومصمما ان يطرد ابا محمد ويبيع المقهى ويسافر ..

غير انه ما كاد يهم بالخروج حتى سبقته اليه وسدته في وجهه ، واحتضنته وبكت وهي تنتفض على صدره باستسلام انثى ارادت ان تكون قوية فخانتها قواها وضعفت وعز عليها ان تفقد كل شيء في لحظة .

جرته وهو يتظاهر بالمقاومة الى مقعد في صدر الغرفة، فجلسا وقد هدأت فورتهما معا ، ولف سيكارة واشعلها وهو ينظر الى دخانها مشفقا على نفسه القوية ان تهون ، ودارى شعورا بالحنق والالم والرغبة في انهاء كل شيء والفرار الـى بعيد ، الى حيث لا يرى احدا يعرفه .

مضت الدقائق بطيئة وسط صمت مطبق ، كانت تقطعه ام حسن بنشيج مخنوق ، وفي كل دقيقة تمر يفوض في ذاته جزء من شعور الغضب ليحل محله جزء من شعور الرأفة .

وارسل اصابعه تداعب شعرها . وامسك بذقنها ورفع راسها اليه ، صفا هذا الرأس الآن ،اغتسلت خلاياه وتطهـر ، وراحت العينان المبللتان بالدمع تعكسان صدق الحب وحرارة الرجاء وذكريات الحياة المشتركة والعشرة الطويلة،وجفونهما

ترمشان بتوسل لا تحفظ فيه« لا تتركني!» ومن عينيه ينعكس نفس الشوق والرجاء والذكريات . « انه الطروسي الحقيقي الجالس قربك الآن يا ام حسن .. الطروسي صاحب القلب الرحيم والمهجة النقية . انه على البر وليس في البحر وهو في بيته وليس في المركب، وهو مظلوم اذا كان خشنا في مظهره، عنيدا في مواقفه ومتهما بالقسوة في معاملته » .

ومن نظراته ، اذ التقت بنظراتها ، سال هذا العتاب « وانت ايضا يا ام حسن !؟ انت !؟ لماذا فعلت هذا !؟ لماذا دفعتني الى هذا التصرف الاحمق ؟! وابو محمد هذا ؟ الم اوصه الا يقول ؟؟ فكيف باح بما ائتمنته عليه، يا لوقعتك السوداء يا ابا محمد حين اراك غدا .

صاح الديك في الخارج معلنا انبثاق الفجر، وكان السهر قد اضناهما وهما جالسان وقد التصق كل منهما بالآخر ، والسكينة تحيط بهما ، وعاطفة ملتهبة منداة بالحنان تتردد في صدريهما ، وتطل من حبة العينين ، ممهدة الجو للتفاهم والمصالحة .

طلب فنجانا من القهوة فلم تدع زكية تعده له ،بل قامت الى المطبخ فوجدت زكية جالسة على كرسي خشبي صغير ، فضحكت في وجهها ضحكة تستغفرها عن حماقتها ، ضحكة تقول « انتهى كل شيء .. بقينا لبعضنا » واشرقت اسارير زكية ، وانبسطت الغضون في وجهها وهي تتمتم بالدعاء الا يفرق بينهما .

ولما عادت ام حسن وضع يده على كتفها وسألها :

ــ لماذا فعلت هذا ؟

ماذا تقول ؟ السماء التي غامت امطرت وصحت، رجعت زجاجية لا اثر فيها للغيم ولا شهوة للامطار . ويجمل بها ان تبتسم ، وان تسطع بشمسها من جديد .

اكتفت بالابتسام وهي تمسح آخر قطرة علقت بمحجريها . وقال وهو يرتشف القهوة مخاطبا فيها عقلها :

« هل تريدين الا اسافر ؟ ان ابقى قهوجيا طوال حياتي؟ وهل خلقت لهذا ؟ لخدمة الناس؟فكري ..كيف يمكن ان اقضي حياتي اذن !؟ »

وقدم لها فنجان القهوة فجرعت منه رشفة وقالت مدافعة عن موقفها :

ــ انا لم اقل لك لا تسافر ،كل ما قلته لماذا تبيع المقهى؟

ــ ومن اين ادفع حصتي في المركب ؟

ــ لا تدفعها ، سافر بدون ان تكون شريكا ، وانا وابو محمد لا نريد منك شيئا ، المقهى باب رزق فكيف نغلقه بيدنا؟

« نفس كلمات ابي محمد »

ــ هذا شغلي ، الرزق انا اجيبه ، وليس من عادتك ان تتدخلي في اموري ، فلماذا تتدخلين الآن ؟

ــ وهل تراني اتدخل ؟ اذا بعت المقهى ستهجرني وتهجر البر وتسكن البحر .

ــ ومن يمنعني من هجرك اذا كنت في البر او في البحر؟

ــ لا احد ، كل ما في الامر انني خائفة من البحر .

ــ خوفك مجرد وهم ، انت لا تخافين من البحر (وهو يبتسم) انا اعرف ماذا تخافين ، ولكنك واهمة ،الماضي مضى، والعمر له حق ، والعشرة لها حق ،ومهما اسافر فسأعود ولن اتركك ابدا .

قال لها اشياء اخرى كثيرة،حاول فيها افهامها بحبه وبقائه لها،وحاول تبديد شكوكها وافهمها انه لن يعود الى البحر الا وهو صاحب مركب وريس ، وما من قوة تحول بينه وبين ان يفعل ذلك ،وانه سيأخذ ابا محمد معه، وسيعود اليها بالهدايا من البلاد البعيدة،وسيبقى الى جانبها الشتاء كله ،

لان موسم السفر في الصيف والخريف فقط، ووعدها وعودا اخرى كثيرة كانت زكية العجوز تستمع اليها من وراء الباب، وترفع يديها الى السماء طالبة ان تتحقق .

ثم جذبها اليه وقبل شفتيها المرتعشتين لفرط التأثر والبكاء ، الدافئتين اكثر من كل ما سبق ، واحس وهو يضع وجهه على وجهها ان الدمع يبلله ، وبينما كانا ينهضان الى الفراش توقف وسط الغرفة وقال :

ـ اعطني تذكرة نفوسك .

ـ لماذا ؟

ـ احزري .

وارتمت عليه وهي تبكي فرحا . وقال لها وهو يمارس نفس شعورها وفرحتها « ستصبحين زوجتي الشرعية باذن الله » .

١٥

رجع الرحموني من سفرته الاخيرة ..

كان الطروسي قد باع المقهى وقبض الثمن . وقد بكى ابو محمد وطاف يجمع اشياءه ويرسل نظرات مودعة في جوانب المقهى ويقول لخليل العريان : « اذكرنا يا خليل ! »

وكان قد زرع ، على جوانب الخيمة ، نبتات حبق وغرسات ورد ، فدار عليها يسقيها قبل فراقها ،واخذ يداعبها ويشمها ، وسار الى الصخرة الكبيرة وجلس عليها ذاكرا الايام الماضيات .

لم تعد يداه تمتدان الى شيء في المقهى . لقد اصبح ملك الآخرين ، وعليه ان يعتاد وينسى ،وان يستعد لمغادرته نهائيا. فاذا عاد اليه عاد كغريب ، وربما تبدلت الاشياء الاليفة الموجودة فيه فانكرها .

احس بحرقة لم يحسها من قبل . وفكر بالطروسي فقال : « سامحه الله ووفقه »وامسك بالقط الذي رباه ومسح بكفه على ظهره وناجاه قائلا :« هل تسافر انت ايضا ام تبقى على البر ؟ »

وفي المساء مضى الى الحمام ،ودخل القمين الذي يعمل فيه ابو خضر ، وطفق يبثه شجونه قائلا :

ـ الطروسي باع المقهى !

ـ وانت ؟

ـ سأسافر معه ، هكذا قال .

– ولماذا باعه ؟
– تشارك مع الرحموني .

فتنهد ابو خضر ومد يده الى زجاجة العرق ، وبعد ان نظر فيها على عادته ، جرع منها جرعة وقال غير مكترث :

– لو كانت خمارة لاسفت عليها ، اما المقهى ؟ لماذا تزعل انت ؟

– لان المقهى عزيز علي .. عشت فيه منذ تركت القمين، وكان بيتي وكل دنياي ، وغدا يجري تسليمه فأحمل ثيابي واخرج ، وانا لا اريد الخروج، ولا اريد العودة الى القمين، فكيف لا ازعل ؟

– وما نفع الزعل ؟ وما وراءه ؟؟ ما فائدته ؟ ازعل لنرى ماذا تكسب !! لقد زعلت انا ، وتألمت ، وتشردت واصبحت في القمين ، ولم ينفعني شيء، فلماذا تزعل انت ؟ افعل مثلي، انني اعيش يوما بيوم ، لا ورائي ولا امامي ، من القمين الى الخمارة ، ومن الخمارة الى القمين ،وفي النهاية .. اعرف انهم سيأخذونني الى المقبرة ، ولن يبكي علي احد ، وهذا احسن ، انا ايضا لن ابكي على احد ، يكفي ما بكيت ، لولا هذه (ورفع زجاجة العرق) كنت القي بنفسي في القمين ، ولكنني اتحمل .. الحياة حلوة يا ابا محمد ، حتى ولو كانت مثل حياتي،ويمكن ان يعيش الانسان ، ويسكر ، وينسى همومه ، وينسى انه مقطوع مثلي ومثلك ، فلا تزعل ، عندي لك مكان اذا اردت ، الم تعد تعجبك حياة القمين ؟

– لا تقلق علي ، الطروسي لن يتركني ..

– حظك كبير .. سأسمع اخبارك من خليل العريان . نحن نلتقي دائما في خمارة توفيق ، واسأله دائما عنك .

– وعدني خليل ان يأتي الليلة الى الحمام .

– وعدني قبلك واخلف ، خليل لا يأتي الى حمام السوق.

– وانا لا اريد ان اتحمم الليلة .. لم تعد لي قابلية (وبعد وقفة) سأعود الى المقهى ، بخاطرك .

وضع شحاطته في قدميه واحنى ظهره وخرج من الكوة الصغيرة التي هي باب القمين . كان ثمة ، في الموقد ، نار تشتعل ، ولهب القش يتسعر ويضيء ، وابو خضر ما ينفك يعطي النار غذاءها ، وزجاجة العرق تتناقص وغناء ابح متعتع يتصاعد مرة بعد اخرى في الجنبات الخربة لقبو القمين القديم ، والفراش القذر ، المشوش ، في الزاوية ، وابو خضر ، كانسان الغابة في طول شعره ولحيته وقذارته، يوقد ويوقد، وذكريات تنثال ، وافكار تروح وتجيء ، وضحك لا مبرر له يتصاعد، وصمت لا يلبث ان يعقبه، وتنهدات ، وليل طويل ، وطريق قصيرة : من الخمارة الى القمين ، ومن القمين الى المقبرة .. اللعنة !

تلك هي حياة ابي خضر . وقد كانت صورتها ما تنفك تتراءى لابي محمد فتفزعه ، وعلى انها لم تكن مفاجئة له ، وعلى انه عرفها ، فقد كان مجرد التفكير في انها قد تفرض عليه ثانية يثير فيه شعورا بالشقاء . وقد كان في سعيه الى الحمام اليوم ، يسعى الى تفقد الحياة في القمين ، اشفاقا على شيخوخته ان تباغتها الاشياء مباغتة .

لقد كانت له ، هو ايضا ، اشياء حلوة في ماضيه: زوجة وولد وعمل ،غير ان « سفربرلك » والفقر والبطالة كانت لها ضحاياها ايضا،وبسبب منها اصبح وحيدا، مسحوقا بقسوة.

ثم تناوبه السعد وسوء الحظ زمنا ،وهو ،الآن،ليس في مواجهة وضع شقي ما دام في صحبة الطروسي، بيد ان نفسه منقبضة ،حتى ليحسد ابا خضر على لامبالاته بهذا الكون ، ويحسد خليل العريان على سكره واقباله على الحياة ،ويتمنى لو كان له عمل وبيت،ويستشعر الاهمية الفائقة في ان يكون للانسان عمل وبيت .

واقبلت ليلة السفر . كان الطروسي قد سلم المقهى الى صاحبه الجديد ، وانهى اعماله ،واشرف على تحميل المركب ، ولم يبق الا ان يرفع المرساة ويقلع .

وقضى ليلته تلك الى جوار ام حسن ، يحدثها عن المستقبل ويمنيها بالوعود ، ويقول لها سأجلب لك الهدايا ، واقص عليك الاخبار ، ويوصيها ببيتها ، وكل ما له علاقة بحياتهما المشتركة .

واضطجعا بعد حديث طويل،فأغفت ام حسن راضية، قلقة ، مستسلمة ، راغبة عن كل شيء الا بقاء الطروسي لها. واغمض هو عينيه وقد استقر على جنبه الايمن ، ثم استدار الى جنبه الايسر ، ثم استلقى على ظهره ، وفتح عينيه واغمضهما وفتحهما ولم يؤاته النوم . كانت اعصابه متنبهة، وعقله مستيقظا ، وفرحته عارمة، وعقله الداخلي يمور باحاسيس متباينة لا سبيل الى تجاهلها او اطفائها ، وقاع نفسه شفافا يعكس ادق المشاعر ويستدعي ابعد الذكريات: طفولته ، صباه ، المحروسة ، البطرنة ، الميناء ، علاقاته بالناس عشرته مع ابي محمد ، حياته مع ام حسن ، عداوته مع ابي رشيد ، صداقته مع نديم مظهر ، شراكته مع الرحموني ، سفراته الماضية ، سفرته المقبلة ، عمره الذي تصرم ، شعره الذي وخطه الشيب ، كهولته ، ماضيه ومستقبله ..

وارسلت الشمس ، من وراء القلعة ، اشعتها الاولى . وبدا الصباح نديا ، وزقزق عصفور على شجرة ، وتعالى صراخ رضيع ، وارتفعت اصوات الباعة ، وصفرت باخرة في الميناء ، ونفثت مداخن البيوت لهاثها الاسود، ووشوشت الامواج صخور الشواطيء ، وقال الناس بعضهم لبعض : صباح الخير !

وقال الطروسي لام حسن « صباح الخير ! » هل نمت؟

فضحكت وقالت « واستغرقت في النوم » ثم سألته : هل كنت تحلم ؟ قال « لم اعد اذكر ، احسب انني اغمضت عيني لحظة واحدة .. اعدي القهوة ريثما اغتسل والبس .».

ونهض مسرعا فاغتسل وارتدى ثيابه : لبس قميصه الحريري ، وشرواله الاسود : ولف زناره ، المعرق ، وانتعل حذاءه المعكوف ، واعتمر اللبادة الصوف ، ونظر في المرآة : هذا لباس الريس اثناء السفر !

وتناول قهوة الصباح ، وافطر ، ثم ودع ام حسن ، وقال لها كلمات لطيفة ، اودعها كل ما يطمئنها الى عودته القريبة ، ووضع جاكيتته على يده وخرج، فلما تخطى العتبة امتلأت نفسه رهبة ، فتمتم بصوت مسموع :« يا ميسر يا الله ! » .

سار باتجاه الميناء ، في نفس الطريق التي قطعها مئات ومئات المرات . كان الشاطيء هادئا ، دافئا ، والبحر راكضا كأنه صورة على جدار ، وعلى سطحه قوارب صيد صغيرة ، وفوقه طيور بيضاء ، وفي اقصى الافق نديف قطن احمر مبعثر .

لقد سكن البحر الآن .. فعل كل ما يمكن ان يفعله في الشتاء واخلد الى الراحة فيالصيف .ومع انه خسر جولة مع الطروسي في شباط من هذا العام، ومع ان له معه ثارا ما يزال ، فان مرآه الان لا يدل على الحنق او الرغبة في الانتقام . لقد زحفت امواجه الى الشاطيء عاتية متحدية غداة انقاذ شختورة الرحموني،وكان ارتطامها على صخور البطرنة عنيفا رهيبا يدل على ان له ثأرا وان له خصما تحداه واستخلص فريسته منه، خصما جاء من اليابسة فانتهك حرمة الماء ، داس البقعة الحرام بدون انيخلع نعليه،قهر جيوش الملك واستذل كبرياء الملكة وطارد العاصفة القوية بشراعه المحطم،

ولكن احدا لم يجبه على تحديه آنذاك . كان الفارس قد ترجل ونزع عدة القتال ، وللبحر ، اذا شاء ، ان ينتظره حتى يعود ، فهو الذي سيناديه الى البراز . . وهاهو قد عاد ، وها هو يناديه ، ويسير الى لقائه واثقا ، رائعا ، مطمئنا الى النتيجة .

وتابع الطروسي سيره ، فراى البحارة والعمال ينحدرون الى المرفأ ، والصيادين يحملون شباكهم وصناراتهم ويذهبون الى الصيد ، وكانت السماء ، من فوقه ، زرقاء ، صافية ، مشوبة برقاق السحب في بعض ارجائها ، ملونة بالارجوان في حوافيها ، والشجر ، والورق ، والنبت في سكون متعبد ، وشيء ما يحس ولا يرى يغوص في الاعماق فيدغدغها ويبهجها ويحمل المرء على ان يخفف الوطء ، وان يتملى الوجود ، ويصغي الى تنفس الحياة ، ويرى الى تثاؤبها ، وغنجها ، فعل نائمة تتخلص رويدا رويدا من اسر النوم ، وتستيقظ في كسل ، وتتحرك عضوا فعضوا قبل ان تصحو وتنشط من جديد .

وجعل يتأمل هذا البهاء من حوله في غير دهش ولا استخفاف . هذه اصباح الصيف على الشاطىء ، وهو بها كلف ، وقد وهبها عمره ، واستوهبها جوارها ، وحلا له ، اذ كان على البطرنة ، ان يستقبل الشمس ويودعها بفنجان من القهوة على صخرته المفضلة ، في المقهى الذي انشأه ، وباعه ، واحبه وكرهه ، ويريد ان يمر به الآن ليقول له : وداعا !

وما كاد يجوس حديقة المنشية حتى هفت اليه رائحة الصخر والعشب والملح ، وابصر رجلا يسبح عريانا ، وصيادا ينظف فلوكته ، وبدأت جلبة الميناء تبلغه ، كلما تقدم من حافة الماء ، واعمدة الرافعات تبين له ، ومر به خفير جمرك انهى حراسته ، وخرج عجوز على ظهره كيس من كهف بين الصخور ، وبعد ان دب عليها ليتسلقها توقف قليلا في الشمس كأنه يستدفيء من رعشة برد .

ولما بلغ الطروسي البطرنة مضى الى صخرته ووقف عليها ، ثم تلفت وتنهد وابتسم : هنا كان مجلسه ، هنا كان عالمه : بيديه مهد الارض ، وبهما جوف الصخر ، ونظف الكهف ورفع الخيمة . هنا عاش السنوات ، وعرف معنى الحياة . لقد حسب الزمن لا يدور ، ولعن الزمن الذي لا يدور ، ولكن الزمن كان يدور . . اين ؟ اين؟ كل شيء اصبح قديما ، بعيدا ، قريبا ، ماضيا ، لا يعرف كيف يحدد موقفه منه . كان يكرهه وكان يؤثره ، كان يلعنه وكان يباركه ، وهو لاينكر منه شيئا ، ولا يعق شيئا . لقد نسي السيئات ، وبقيت الحسنات . ترسب الكدر وطفا السماح ، وامتلأت النفس بنشوة الظفر ، ولم يعد فيها متسع الا لجميل الذكريات ، وانه ليحن الى تلك الذكريات ، ويعجب لنفسه كيف تحن الى تلك الذكريات ، وكيف تناست تلك الآلام .

وهذا مقهاه ، انه امامه ولكنه ليس ملكه ، وقد تغير منذ امس ، فانتهى عهده بالشباك والمراسي والحبال وسلال السمك ورائحة القلفون والقطران . . . سيصبح مقهى آخر ، اكثر نظافة ، واحسن ترتيبا ، ولكن اكثر بعدا عن البحر ، واقرب الى البر ، وربما صار ادعى الى الراحة ، ولكنه سيغدو اجلب للوحشة ، وابعث على الملل ، وهو لذلك لا يريد ان يدخله ، ولا يريد ان يرى ما صار اليه ، ويكفيه ان يمر به ويمضي . .

دار من ورائه ، وانحدر الى الميناء ، وقطع المسافة القصيرة الباقية بينه وبين عالمه الجديد القديم ، فلما راى المركب استعاد بهجته ، واحس باعتداد وفرح ، انه صاحب مركب الآن ، ريس مثل جميع الرياس ، بيد انه لا يريد ان يزهو ، ولا يحب الخيلاء ، ويعرف انه بحار في الاصل ، وان قيمة البحار في مهارته ، وعليه الا يبدو خفيفا ، والا تخرجه

الفرحة عن طوره ، وان يراعي احساس من حوله ، ويستمتع بسعادته ويترك المظاهر لسواه .

اقبل على الميناء في غير تعجل ولا ابطاء : مشيته الهادئة ذاتها ، ونظرته النشيطة وكتفاه المنضمتان ، وجسده المطاوع، وانفته ، وطيبته ، وكل سمات البحار الهادىء كالبحر ، المزبد مثله عند اللزوم .

دخل منطقة المرفأ وسار الى مركبه راسا . كان يعتزم ان يبدأ العمل كسابق عهده : يتفقد شئون الرحلة ويشرف على حمولة المركب ، ثم يخرج الى مكتب رئيس الميناء فيسجل ويودع ويقلع ..

الا ان ابا رشيد تلقاه على غير ميعاد . عجوز الميناء هذا اين يكون واين يصير ؟ متى يختفي ومتى يظهر ؟ بل متى يعادي ومتى يصادق ، ان الطروسي ليكرهه ، ولكنه لا يستطيع الا ان يعجب به . هذا رجل بحر من نوع آخر ، هذا هو الدهاء بعينه .

وتصافحا . لم يدعه الطروسي يشعر بأي تفوق ، ولا اظهر ارتباكا امام بادرته ، ولم يجامله الا بما يقضي الموقف والخلق ، بينما اظهر ابو رشيد عطفا وودا حارين . كان يلثغ، وتبرق عيناه ، ويرتجف شارباه عند الكلام ، ويبدو ، بالنسبة للطروسي ، شيخا ، اقصر قامة ، وارق بنية ، الا انه يختبىء في ثيابه ، ويعتمد على عزيمته بأكثر مما يعتمد على ساعده، ويعرف كيف يتصرف ، وكيف يتصرف بصورة طبيعية ، وبصدق وحرارة احيانا .

دعاه الى تناول القهوة ، وكذلك دعا الرحموني ورئيس الميناء ، وقال كلاما طيبا فيه تقدير واطراء ، حتى عجب الحاضرون مما يسمعون . اما الطروسي فقد ادرك مغزى الكلمات ، وفهم سببها جيدا . ليس بينهما شيء الآن ، فما

دام الطروسي مسافرا فليس لابي رشيد عليه حقد ولا ثأر . انه يريد الاحتفاظ بسيطرته في الميناء ، فاذا انتفى اي عمل ضد هذه السيطرة اصبحت الامور سهلة ، وعرف كيف يعبر عن عواطفه صادقا . انه يدفع الخنجر في الظهر ، ثم يوقفه قبل ان ينفذ، اذا راى الا داعي لنفاذه . لقد اراد قتل الطروسي في يوم ، وها هو يكرمه في يوم ، ومن يدري ، فقد يعود الى قتله في يوم ثالث ، فان امثال ابن برو كثيرون في الميناء « ولكن امثالي كثيرون ايضا ، فاذا سافرت فلن يسافر الجميع ، ولا بد ان ينتهي الاستبداد » .

استوى صعود المد ، وبدأت حركة الاقلاع ، ووقف الطروسي مستعدا لاعطاء الاشارة ، وهرع اليه احمد قائلا:

ــ لننتظر قليلا ، فربما اتى ابو محمد .

وتطلع اليه الطروسي مبتسما ، مقهورا، تكاد الدمعة تطفر من عينيه . لقد احب ابا محمد ، واحب لهفة احمد عليه ، وشاركه فيها ، وود لو جاء هذا العجوز وعاش كما يعيشون، الا انه هز براسه وقال :

ــ ابو محمد لن يأتي ..

ــ وكيف عرفت !؟

ــ وهل ذلك صعب ؟ البحر جديد يا احمد بالنسبة اليه ، ومن الناس من يخافون الجديد، ولا يعرفون كيف يحيون فيه .. لقد حزرت ذلك سلفا ، وايقنت انه لن يأتي فأوصيت نديم مظهر به ..

وفكر نديم مظهر : هل يعتني حقا بأبي محمد ؟ انه واثق من مساعدته له ، انما لا يمكن ان يعيش الانسان على المساعدات ، ولا بد له من عمل، فماذا في وسع هذا العجوز ان يعمل ؟ وهو ، ماذا في وسعه ان يفعل لاجله ؟ وهب انه استطاع ان يمنع بؤس هذا الشيخ ، فهل يستطيع منع بؤس

جميع الشيوخ ؟ « صدق الاستاذ كامل .. القضية ليست قضية فرد بل مجتمع ، ينبغي اصلاح المجتمع » .

اعطى اشارة الاقلاع فتحرك المركب ، ومضى هو الى المقدمة فوقف عليها ولوح الى الواقفين على الرصيف ، ورنا الى البر والميناء والمراكب والفلائك، وذكر في لحظة كل اشيائه، كل اصحابه ، واستشعر الرغبة في ان يكون معهم ، وان يعود اليهم ، وتساءل :« ماذا سيكون حالهم ؟ وهل تتغير الظروف وتتحسن الاحوال ؟» واجاب على نفسه بنفسه قائلا: « حتما ! » ثم تحول الى بحارته ، وصاح فيهم « همتكم يا شباب » وامسك بالدفة وراح يعمل ، وراح المركب يشق طريقه ، وثلم ازرق ينفتح امامه ، وثلم مزبد يرتسم وراءه ، وطيور تحوم حوله ، والميناء تنأى ، تنأى ، والمدينة تتكشف ، تتكشف .

بانت « الطابيات » اولا ، ثم القلعة ، ثم المآذن ، فالقبب، فالابنية ، ولاحت البطرنة والمقهى والصخرة ، وتجمع المنظر، وتجسم ، وبدا اكبر ما يكون .. ثم اخذ يضيق ويصغر ، وغابت الشوارع ، وتداخلت البيوت ، وتوارت المآذن ، واختفى حي ، ثم آخر ، واختفت المدينة كلها بعد قليل .